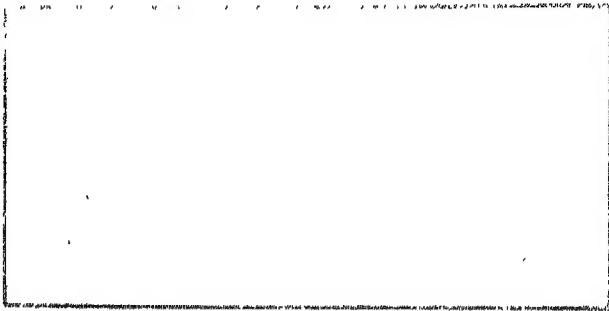


د. انور محمد رزق

كلية التربية



مجلد
جانب

خزانة المصنف

الطبعة الأولى
مكتبة جامعة القاهرة
جامعة القاهرة

١٩٨٢



دكتور
محمد مديحت جابر
أستاذ الجغرافيا المساعد - جامعة المنيا

بعض جوانب جغرافية العمران في مصر القديمة

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

١٩٨٥

المطبعة التجارية الحديثة
تليفون ٩٠٣٣٦٤ القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم الكتاب

اتجه الاهتمام الى دراسة التاريخ المصرى القديم ، بعد أن أبانت المحفائر العديدة التى قامت بها بعثات متخصصة عن كنوز الحضارة المصرية • وحظيت الفترة الواقعة فى النصف الأول من القرن الحالى بنشاط ملحوظ فى ذلك المجال • وبعد أن توافرت مادة علمية متنوعة عن حضارة مصر القديمة ، وضح أن الكثير من علامات الاستفهام لاتزال ماثلة ، وأن العديد من الموضوعات لايزال ينتظر اجابات شافية ترضى الباحثين •

وقد ظهر منذ البداية ، ان تلك الكنوز التى جادت بها الأرض المصرية ، قد انصبت على المعابد والآثار الخاصة بالحياة الثانية التى عمل المصريون من أجلها فى حياتهم الأولى ، تبعاً لما اعتقدوه فى البعث والحساب • لذلك فان الخوض فى موضوع محدد — كموضوع الدراسة الحالية — مثل جغرافية العمران فى مصر القديمة هو أكثر صعوبة تبعاً لندرة المادة العلمية الخاصة بالموضوع ، وان كان المؤلف قد حاول بقدر الامكان ، وفى حدود المادة المتاحة رسم صورة لابعاد جغرافية العمران فى مصر القديمة ، لعل ان يفيد ذلك فى سد النقص الكبير فى ذلك المجال وقد استفاد المؤلف بدون شك ، من الكتابات التاريخية العديدة — وان غلب عليها بطبيعة الحال المنظور التاريخى — وكان لابد من اخضاع هذه الكتابات لمنهج الدراسة الجغرافية •

كذلك استفاد الباحث من بعض الدراسات الحديثة التى كتبت فى بلغات أجنبية ، وفى مجال جغرافية العمران المصرى القديم بالتحديد • وفى النهاية أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد •

المؤلف

مقدمة

تهدف هذه الدراسة الى محاولة رسم صورة لجغرافية العمران في مصر القديمة ، وتحديد مصر القديمة هنا تحديد عام . ويعنى ذلك أن الدراسة تنسحب أصلا على فترة الأسرات المصرية والتي تبدأ حوالى سنة ٢٧٠٠ ق.م بحسب التقسيم الذى أورده « بوتزر Butzer » (١) وتنتهى سنة ٣٣٣ ق.م بتأسيس الاسكندرية ومعنى ذلك ان تلك الفترة سوف تلقى الاهتمام الأكبر فيما يختص بمكونات جغرافية العمران . وليس معنى ذلك ان الفترة التى سبقت ذلك التحديد (عصر ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات) أو التى تلت ذلك (العصر البطلمى والرومانى) لن تلقى أى اهتمام اذ ان الأشارة إليهما له ضرورته فيما يختص بالتطور الذى لحق مكونات جغرافية العمران على طول التاريخ المصرى ، ولكن ستكون الفترة المشار إليها هى التى نستقى منها كل الأمثلة الدالة لما نورد هنا ، وستكون هى المثل لما يساق منسوبا لجغرافية العمران في مصر القديمة .

وفي دراسة عمرانية كهذه ، تهتم أساسا بجغرافية العمران التاريخية ، لا شك ان منهج البحث التاريخى هو الأساس الذى تعتمد عليه . وسوف تسير الدراسة معتمدة عليه الى جانب المنهج الموضوعى بمعنى ان الدراسة تجنح الى الناحية الاصولية systematic من البداية الى النهاية .

وبناء على ما تقدم ذكره من توضيح ، فإنه في دراسة تشغل مساحة زمنية تبلغ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا من الزمان ، كان لابد من عمل مسح شامل للكتب التاريخية التى اشارت الى بعض جوانب جغرافية العمران عن غير قصد في اغلب الأحيان ، وعن قصد في قليل من الحالات ، وأيضا الكتب الجغرافية القليلة التى تناولت بعض

(١) Butzer, K., W., Early Hydraulic civilization in Egypt, (١) Chicago and London, 1976, p. 5.

جوانب الموضوع وغير ذلك من الكتابات المفيدة في دراسة الموضوع
دراسة جغرافية .

ولا شك ان تعدد فروع العلم التي تخدم مثل هذا الموضوع لتؤكد
على ان الجغرافيا بالفعل علم بينى Interdisciplinary وقد روعى
دائما ان تكون دراسة هذا الموضوع ذات منظور جغرافي عمراني صرف ،
برغم طول للفترة الزمنية التي يشغلها ، لا سيما وان القرية كمكان
للسكن والتجمع عرفت منذ فترة باكرة في مصر شأنها في ذلك شأن
بعض مناطق العالم ولكنها بالقطع كانت في مصر من أسبقها معرفة^(١) .

أما عن صعوبة هذه الدراسة ، فهي مسألة مؤكدة مادامت تتناول
المنظور المكاني من التاريخ المصري ، ويلاحظ ان ذلك المنظور المكاني
تقابلته عقبات أهمها ان محلات العمران الريفي والحضري أساسا
غائبة شواهدا ، مما جعل بعض الكتاب يتحدث عنها افتراضيا
أو نظريا . وليس ذلك غريبا مادام المنظور الزماني للتاريخ المصري
نفسه ملئ بالفجوات وعلامات الاستفهام ، ولذا كانت مثل هذه
الموضوعات لا تجد اقبالا من الباحثين لغياب ادلة الخوض في دراستها
وتحليلها ، حيث كان الجانب المتصل بالآخرة يهيمن على اهتمام
المصريين القدماء ، بينما لا نجد أى مثال لمحلة عمرانية دنيوية تشفى
غليل الباحث في مجال دراسة جغرافية العمران .

وعلى ذلك فالدراسة التي نحن بصدددها ، تحاول استجلاء هذه
الجوانب العمرانية بقدر الامكان في حدود المعلومات المتاحة
في ذلك المجال .

Flannery, K. V., The origin of village settlement type, (١)
in Meso - America and the Near-East: A comparative study, in Ucko,
P. J., Tringham. R.; and Dimbleby, G. W. eds. Man, Settlement and
urbanism, London, 1972, p. 23.

الباب الأول

العمارة المصرية القديمة وخصائصه

الفصل الأول : البيئة الطبيعية والبشرية وتطورها وأثرها في العمارة

الفصل الثاني : توزيع العمارة والمجالات العمرانية •

الفصل الثالث : العمارة المصرية القديمة وعلاقته بالسكان واستخدام الأرض •

الفصل الرابع : الموضع والموقع لمجالات العمارة المصرية القديمة •

الفصل الخامس : التخطيط العمراني وأبعاده في مصر القديمة •

الفصل الأول

البيئة الطبيعية ، وتطورها ، وأثرها في العمران المصرى القديم :

شهدت فترة العصر الحجري القديم الأعلى مولد نهر النيل ، بعد استقرار الأحوال المناخية ، وقام النظام المناخى الحالى فى الحبشة ، ونظام الفيضان المتصل بهذا النوع من المناخ^(١) ، والذي سيكون أكبر العوامل المؤثرة فى العمران فى مصر .

وكما يذكر « حزين » ان علاقة الانسان ببيئته الجغرافية فى مصر القديمة ، كانت علاقة تأثير متبادل متطور المظاهر^(٢) .

والواقع ، انه عند الحديث عن البيئة الطبيعية وأثرها فى العمران سواء فى الوادى أو الدلتا فنحن نعننى بذلك بداية استقرار الانسان فى هذه الانحاء بعد طول ترحاله على الهضبتين * * ولم يحدث انتقال الانسان الى الوادى فجأة ، ولكن واكب ذلك التطور المناخى فى المنطقة .

ويذكر بوتزر Butzer ان المطر قل فى الصحراء الشرقية والغربية بحيث اصبح غير كاف لتدعيم واعاشة أى حجم سكانى ذا اعتبار ، باستثناء المناطق ذات الأودية والينابيع وكان ذلك منذ ٣٠ - ٥٠ ألف سنة مضت ، صحب ذلك تعرض السهل الفيضى للفيضانات المرتفعة العارمة ، ومنذ ٢٥ - ١٧ ألف سنة اصبح المناخ جافا بمثل ما هو عليه الآن ، ثم منذ ١٧ - ٨ آلاف سنة مضت كانت الأمطار الشتوية أغزر مما هى عليه الآن ، بينما كانت الفيضانات منخفضة عن ذى قبل حوالى ٦٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م وعاليه مرة أخرى بين ٥٠٠٠ - ٣٧٠٠ ق.م . ثم بعدها منخفضة على فترات ، وقد أدى المناخ الارطب الذى ساد

(١) مصطفى عامر ، حضارات عصر ما قبل التاريخ - فى وزارة الثقافة والارشاد القومى - تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى - المجلد الاول - مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ - ص ٤٩ .

(٢) سليمان حزين - البيئة والانسان والحضارة فى وادى النيل فى وزارة الثقافة والارشاد القومى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥ .

في عهد ما قبل الأسرات المتأخرة ، وبداية الأسرات الى تدعيم الحياة النهائية المتنوعة في الوادي وحول حواطة ، وكذا في تلال البحر الأحمر^(١) .

وكان لهذه التطورات المناخية آثارها العمرانية ، فمن الثابت ان العصر النيوليتي قد انتهى في مصر والعراق قبل ان يحدث مثل ذلك في شمال غرب أوربا بحوالى ٢٠٠٠ سنة وكان من نتائج التطور المناخي التجاء الصيادين والحيوانات أيضا الى وادي النيل تنشد القوات والماء ، مما سهل اصطيادها واستئناسها فيما بعد ، ويذكر « برستد » ان الثور والضأن والماعز والحمير كانت متوحشة ، استأنسها الانسان شيئا فشيئا^(٢) .

ويرى البعض ان الصحراء الغربية مع ذلك ، في فترة ما قبل التاريخ كانت مناسبة للاستغلال الفصلى من قبل الرعاة ، وربما كان اقتصار مواضع العمران في البدارى ونقاده على حواف الصحراء عند أطراف السهل الفيضى راجعا الى النشاط الرعوى الفصلى لجزء من السكان الذين كانوا يخرجون الى الصحراء^(٣) .

وقد بدا تأثير المصرى القديم بالبيئة الطبيعية في اختياره مواضع محلاته في عهد ما قبل الأسرات هذا ، من ذلك ما سبق ذكره عن نقادة والبدارى ، وأيضا يبدو في اختياره لمواضع سكناه كما يبدو ذلك في المعادى قرب قمة الدلتا ، على ربوة ضيقة يمتد طرفها الغربى حتى حافة السهل الفيضى وهنا وجدت محلة لا تقل مساحتها عن ٤٠ فداناً ، والموضع يبين مزايا سهولة الاتصال والحركة لسكانه ، والقرب من النيل غربا ، والاتصال شرقا عن طريق الوديان بخليج السويس^(٤) .

Butzer K., op. cit. p. 13.

(١)

(٢) جيمس هنرى برستد — انتصار الحضارة — ترجمة أحمد فخرى — مكتبة الانجلو المصرية — سنة ١٩٥٥ ، ص ٣٤ .

Butzer, K., op. cit. p. 14.

(٣)

(٤) مصطفى عامر — مرجع سبق ذكره — ص ٥٨ — ٦٢ .

وقد جنحت مواضع المحلات العمرانية غالبا الى احتلال الرابيئين اللتين كانتا تميزان السهل الفيضى حول المجرى لاتخاذها الشكل المحدب ، وقبل ادخال الزراعة كانت الأشجار والغابات والنباتات النامية هي أساس العمران سواء للمساكن التى بنيت منها ، أو للحياة الاقتصادية حيث كان نظام الرعى هو السائد .

وشيئا فشيئا ، عن طريق ملاحظة النباتات البرية ، وخزن بذورها تعلم المصريون الزراعة ، وعرفوا كيف يخزنون ويحفظون البذور لبيذروها فى العام التالى . وعرفوا تربية الحيوانات فى الحظائر ، وكيف يصبحوا منتجوا غلال بدلا من جامعين لها . كما أصبحت قراهم الصغيرة مساكن ثابتة لاقامتهم ، كما كانت المساحة التى يمكن زراعتها فى العصر الحجري الحديث أقل بكثير من مساحة الوادى لاحتلال المستنقعات له ، كما كانت زراعة شواطئ النيل عملا صعبا لمسرعة تيار النهر ، وقوته ، بينما كان يتفرع فى الدلتا الى عديد من الفروع مما جعل استصلاح المستنقعات وزراعتها اسهل هناك ، ولذا كان سكان الدلتا مع مضي الزمن اسبق فى الحضارة ، عن سكان الصعيد ، كما كانوا اسبق فى التنظيم الاجتماعى والمركزي^(١) .

وفى بداية معرفة الزراعة ، لم يكن ثمة حاجة للصرف ، وكان الفيضان يسمح بفصل زراعى واحد على ثلثى المساحة الفيضية .

ومن الجدير بالذكر ان الرى الصناعى ليس حديثا فى مصر ، فقد مورس منذ بواكير التاريخ المصرى ، وكان يسمح بزيادة المساحة المحصولية ، وزراعة محصول ثان ، وربما ثالث وزراعة اراض جديدة ، بعيدة عن النهر ، وقد مارسه المصريون القدماء لمدة ٢٠٠٠ سنة قبل قيام الوحدة السياسية بين مصر العليا والدنيا^(٢) .

والدلائل الأولى للرى الصناعى هي لوحة الملك العقرب احد ملوك ما قبل الأسرات يحتفل بقطع احدى قنوات الرى ، ومعنى ذلك ان

(١) جيمس هنرى برستد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٥ — ٦٧ .

Butzer, K., 1976, op. cit. p. 10.

(٢)

الرى الطبيعى الى المطور والصناعى ، قد اكتمل بنهاية فترة عصر ما قبل الأسرات •

ويعارض بوتزر ، آراء كل من هيرودت ، ويلسون Wilson من ان الدلتا فى نفس الفترة كانت مليئة بالمستنقعات وغير مسكونة ، فقد ادى وجود عدد من الروابى الخطية والجسور ومساحات الجزر الرملية ، الى جذب المحلات العمرانية ، بينما كانت الأرض التى تغمر فصليا ، ملائمة للزراعة ، والرعى ، وكان اقصاها فى الشمال فقط مشغولا بالمناقع ولما كان هناك ١٠ أمطار من الرواسب ارسبت فى ٦٠٠٠ سنة الماضية ، فمن الطبيعى أن تغيب أية دلائل عمرانية تنتمى الى الدلتا (٣) •

ويمكن لنا أن نجمل العوامل الطبيعية المؤثرة فى العمران فى فترة الأسرات المصرية فيما يلى :

- ١ — التغير المناخى فى اتجاه الجفاف •
- ٢ — تذبذب فيضان نهر النيل •
- ٣ — اتساع الوادى واختلاف وتغير طوبوغرافيته •

أما العوامل البشرية المؤثرة فى العمران فتكمن فيما يلى :

- ١ — تطور معرفة الانسان المصرى القديم التى انعكست على استغلاله للبيئة •
- ٢ — التأثيرات البشرية الوافدة على مصر وآثارها العمرانية •

أولا : العوامل الطبيعية وآثارها فى العمران :

١ — التغير المناخى فى اتجاه الجفاف :

تميزت فترة ما قبل الأسرات بكثافة المطر ، ولكن خلال النصف الأول من الألف الثالثة ق.م • وصلت ظروف المناخ الى مثل ما هى عليه •

الآن من الجفاف ، وامكن استنتاج ذلك من عديد من الشواهد ، وشاع الجفاف في كل مكان بالصحراء^(١) ، واختفت كثير من الحيوانات الضخمة كالفييلة ، والزراف ، كذلك حلت أنواع حيوانية مقاومة للجفاف ، واسهم الانسان — الى جانب المناخ — في القضاء على مثل هذه الحيوانات عن طريق صيدها ، وبمثل هذا التغير في ظروف الحيوان ، حدث تغير في النباتات ، ويرى Butzer ان الاتلاف النباتي بفعل الجفاف حدث تاليا للأسرة الأولى^(٢) ، وثبت هجر السكان احلات عند حافة الصحراء لعصر ما قبل الأسرات المتأخرة . ويرى كل من Baines and Malek ان هذا الجفاف كان دافعا لبداية تكوين الوحدة السياسية المصرية وقيام الدولة^(٣) .

٢ — تذبذب فيضان نهر النيل :

تدل الدلائل على أن فيضان النيل في عهد الأسرات كان غير مستقر كما كان عليه الحال في العصر الحديث قبل بناء عديد من مشروعات الري للتحكم في النهر . وقد اثبتت دراسات عديدة ، ان مستويات الفيضان كانت تتجه للهبوط الذي كان أكثر سرعة خلال أواخر الأسرة الأولى وبداية الثانية ، وقد اثبت كل من Vandier, Ball آثار ذلك الهبوط عمرانيا ، وما صاحب ذلك من كوارث ومجاعات ، والتي سجلت احداها في بنى حسن^(٤) .

وفي الدولة الوسطى ، فان تحليل سجلات ٢٨ فيضاننا يوضح ان الفيضانات كانت عالية في النوبة بين ١٨٤٠ — ١٧٧٠ ق.م . وتسجيلات الدولة الحديثة يعتمدها النقص ، وان كانت الاشارات تؤكد ان

(١) Butzer, K. W., Environment and archeology. An ecological approach to prehistory, Chicago, Aldine upb. Co., 1971, p. 581 ff.

(٢) Butzer, K. W., 1976, op. cit. p. 27. and p. 40.

(٣) Baines, J., and Malek, J., Atlas of Ancient Egypt, Phaidon. Oxford, 1980, p. 14.

(٤) Butzer, K. W., 1976, op. cit. p. 28.

الفيضانات كانت غير موثقة بصورة غير طبيعية ، في القرن الخامس ق.م. ، كما كان عليه الأمر في القرن الأول ق.م. (١) .

كذلك ثابته في بعض الحالات في الدلتا أيضا ، أدى نقص التصريف المائي للفرع البللوزي الى ترك المقر الملكي في مدينة بى رميس Pi-Ramesse وذلك الى مدينة Djane (تانيس) على الفرع الثانيتى بعد سنة ١٢٠٠ ق.م. كما اثبت ذلك بيتاك Bietak (٢) .

وكان ذلك التذبذب دافعا الى تعاون السكان في اقامة المحلة العمرانية فوق كومة كبيرة عالية يتضايفر السكان على جمعها من تراب الأرض لتكون من الضخامة بحيث لا يجرفها التيار ، ولا تتخللها مياه الرشح ، وبحيث تكون من الارتفاع بما يجعلها فوق مستوى الماء . وترتب على ذلك تركيز القرى في وحدات كبيرة واستلزم ذلك كله توحيد جهود السكان وتنظيمها ، حيث تقام القرى في مأمن من غائلة الفيضان (٣) ، ويرى لويس مفلورد انه رغم هذا التعاون بين السكان في اقامة المحلات وأبعاد الخطر عنها ، فان المحلة الريفية بالمقارنة بالمركز الحضري فيما بعد - كانت تحت رحمة الطبيعة ، بينما كانت المدينة بمؤسساتها وتخصصاتها ، وسكانها ، أكثر مقاومة وصلابة امام تلك العوامل ، ويرى كذلك ان المحلات كانت تقام في الاجزاء النائية والجافة ، كما ان الزراعة كانت في بعض المناطق التى لا تصلها المستنقعات وان ذلك كان يتم بصورة تدريجية (٤) .

ولعله من الجدير بالذكر هنا أن نذكر أيضا ، أن الفيضان لعب دورا آخر في حماية العمران المصرى أحيانا من الغزاة ، فيذكر « فخرى » أنه في الأسرة ٣٠ وحين حشد الفرس حوالى ٢٥٠ ألف جندي لغزو مصر ، كان أحد عوامل الحماية الكبرى هو فيضان النيل

Tousson, O., Memoire sur L'histoire du Nil., Men. Inst. (١)
Egypte. 8-10, 1925, p. 413 ff.
Butzer, K. W., 1976. op. cit. pp. 29-30. (٢)

(٣) سليمان حزين - مرجع سبق ذكره - ص ١٧ .
(٤) لويس مفلورد - المدينة على مر العصور - الجزء الاول - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٤ ص ص ١٠٠ - ١٠٢ .

حينئذ ، فاضطروا للتقهقر الى آسيا مرة ثانية^(١) . وفي الدلتا كانت مواضع الاممران تختار أيضا مواضع بعيدة عن الغمر ، ويرى « نورثام » Northam ، أن القرى المسورة تطورت في الدلتا أولا حوالى ٣٥٠٠ ق.م. ، وتجمعت هذه القرى في وحدا تلتها استقلالها الذاتى ، وكل لها نظامها الاروائى التعاونى اللازم للزراعة الأساسية وحبوبها وخاصة القمح والشعير^(٢) .

٣ — اتساع الوادى واختلاف وتغير طوبوغرافيته :

كان لاتساع الوادى نسبيا في منطقة ادفو واسنا مع وجود الصحارى على الجانبين المكونة من الحجر الرملى (الخراسان النوبى) أثره في أن هذه المنطقة ، كانت أول أقاليم مصر العليا اتساعا ، واستقرت بها جماعات بشرية منذ أقدم العصور ، وفي اقليم ادفو قامت مدينتا نخب ونخن القديمتان على ضفتى النيل الشرقية والغربية ، كذلك جذب اتساع الوادى في منطقة ثنية قنا العمران ، ونشطت العلاقات بين المنطقة وما يجاورها حتى البحر الأحمر ، لذا قامت هنا عاصمتان مصريتان قديمتان هما طينة (قرب البلينا) وطيبة أعظم العواصم المصرية^(٣) .

وارتبط اتساع السهل الفيضى في الوادى على وجه الخصوص بحركات متغيرة للمجرى ، اذ أثبتت الدراسات أن النيل كان يجنح في اتجاه الشرق على طول الألفى سنة الماضية وأثر ذلك على العمران كثيرا ، ومن الكتابات القديمة ، ومن دراسات بوتزر Butzer نرى على سبيل المثال أن المنطقة التى بها مواضع المراغة وطهطا ، وطما ، نجد أن مواضع تلك المحلات ومواضع غيرها كانت عموما في العصر الهلينستى تقع في المتوسط الى الغرب بحوالى ٣ كم عما هى عليه الآن .

(١) أحمد فخري — مصر الفرعونية — الطبعة الثانية — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة سنة ١٩٧١ ، ص

(٢) Northam, R. M., urban Geography, Willey, New York, 1975, pp. 25 - 30.

(٣) سليمان حزين — مرجع سبق ذكره — ص ٢١ — ٢٢ .

وكان عليها أن تحتل مواضع جديدة على الجسور المرتفعة ، وتشير الدراسات أيضا الى أن المجرى في عهد الأسرات كان مختلفا عما هو عليه الآن ، وكان محور النيل الى الغرب عن مجراه الحالى بين أخميم وموضع القاهرة ونتج عن ذلك وقوع محلات عمران على النيل مباشرة في ذلك الوقت ، ولكنها ليست كذلك اليوم ، على ذلك ، فمدن قديمة مثل القوصية ، والأشمونين (Khonum) ، والقيس (Saks) وممفيس (Menfe) نجدها على النهر زمن بطليموس حين كان محور النيل غرب المجرى الحالى وهى ليست كذلك اليوم ، وقد جرت تغيرات أقل في المجرى في الجنوب^(١) . أما في المواضع التى لم تتعرض لذبذبات فقد كانت ثابتة ، ولم تتغير كثيرا حتى الآن في معظمها استفادة من تعاقب ارتفاع الموضع الخاص بالمحلة وتراكم حطام المباني من السنين الماضية مما يجعلها مفضلة من السكان للبعد عن العمر والفيضان^(٢) . وقد أيدت دراسة عديد من القطاعات الجيولوجية التغيرات الطبوغرافية في الوادى كذا هجرة مجرى النيل ومن ذلك التثقيبات والقطاعات التى أجراها عليه^(٣) .

أما في الدلتا ، فكانت الفروع العديدة عرضة للتغيير ، والتحول من سنة لأخرى مما أثر أيضا على مواضع المحلات ، وأدى الى تغير الحدود باستمرار بين الأقاليم والمقاطعات المتجاورة وهو ما كان يحدث بصورة أقل في الوادى^(٤) ، ولكن في الضفة الشرقية من الوادى ، وخاصة في جزئه الشمالى ، فإن النهر دمر العديد من مواضع العمران ، ولم ينج من ذلك سوى بعض المواضع مثل المقابر والجبانات ، التى بقيت عند حافة الصحراء الشرقية ، ولا شك أن ذلك يثير مشاكل عدة خاصة بالمواضع التى يصعب تحقيقها اليوم ، وتلك التى اندرست .

Butzer, K. W., 1976. op., pp. 33 - 35. (١)

Baines and Malok, 1980, op. cit., p. 14. (٢)

Attia, M. I., Deposits in the Nile valley and the Delta, Cairo, 1954, pp. 48-52. (٣)

(٤) سليمان حزين — مرجع سبق ذكره — ص ٢٣ .

٤ — العوامل البشرية المؤثرة في العمران :

١ — تطور معرفة الانسان المصرى القديم التى انعكست على استقلاله لبيئته :

أصبحت الزراعة أساسا الى جانب بعض النشاط الثانوية الأخرى ، هى حرفة المصرين المستقرين فى الوادى والدلتا منذ اتجاه المناخ نحو الجفاف ، وقد تطورت معرفة هذا الانسان الفنية فيما يختص بالزراعة وادارتها منذ آخر العصر الحجري الحديث وما بعده ، ولعل أهم ما يميز الزراعة المصرية ، وبالتالى الحضارة ، هو اتصالها رغم بعض فترات التفكك السياسى ، وذلك يجعلها متفردة عن الحضارات الأخرى ، كما فى العراق مثلا^(١) وبطبيعة الحال فان النيل هو مصدر الحياة ، والمعلم الأول لتطور النواحي الفنية لدى المصرين فى ذات الوقت عن طريق ملاحظته ، وقد حاكاه المصرى القديم ، كما يذكر « مغمورد » فى شق ترعة وقنواته بشكل طولى^(٢) . وتفتقت عقول المصرين القدماء بعد احتراف الزراعة عن الشكل العمرانى الذى لا زال حتى اليوم وهو القرية وبتطور أفكارهم تطورت المنازل بها وتركيبها الداخلى الذى راعى وجود أماكن لتخزين الفائض ، وتمت معرفة الانسان بأدوات الزراعة بصورة تدريجية ، فعرف المشادوف مثلا فى عهد الأسرات ، بينما لم يعرف الساقية الا فى العهد الاغريقى الرومانى^(٣) . كذلك كانت معرفة المصرين للولب أرخميدس (الطنبور) فى عهد البطالمة ، كما عرفوا الدورة لتفادى ضعف التربة^(٤) ، وفطن المصرى منذ البداية الى أن الانحدار الطفيف للنيل (١ : ١٢٠٠٠) يؤدي الى عدم مناسبة شبكات الري الاشعاعية Radial فى مصر ، فيما عدا منطقة الفيوم . وأدى الاهتمام بالرى منذ البداية الى امكان

(١) سليمان حزين — مرجع سبق ذكره — ص ٦ .

(٢) لويس مغمورد — مرجع سبق ذكره — ص ١٠٠ .

(٣) سليمان حزين — مرجع سبق ذكره — ص ٢٧ .

(٤) ابراهيم نصحي — تاريخ مصر فى عصر البطالمة — الجزء الثالث مكتبة الانجلو المصرية — الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٦ — ص ١٠ ، ١١

الحصول على أكثر من محصول ، وتحقق ذلك في الفيوم زمن البطلمة اذ وصلت المساحة المزروعة هناك الى ١٣٠٠ كم^٢ وهو رقم يقرب من المساحة المزروعة سنة ١٨٨٢ ، وقريب منه اليوم (١٨٠٠ كم^٢)^(١) ويرى البعض أن التوسع في الري الصيفي بمعناه الذى نعرفه اليوم لم يحدث سوى في الفيوم ، وفي عهد البطلمة حيث حققه الانتاج محصولي المعقد هناك في القرن الثالث ق.م^(٢) .

وتعطي الاشارات التاريخية معلومات ضئيلة عن استخدام الأرض في البيئة الريفية المصرية ، وعموما كان نمط استغلال الأرض بسيطا قائما على الزراعة الشتوية ، المعتمدة على الأحواض الفيضية . وكان النظام الاروائى أيضا بسيطا ويعمل على أساس محلى وليس قومى ، وتمثلت النواحي المركزية في الزراعة في جمع الضرائب ، ويستثنى من ذلك الجهود المركزية للدولة بعد أن تطورت إمكاناتها الفنية ، مثل جهود أمنمحات الثالث ، وبطليموس الثالث في نواحي التطوير الزراعى وزيادة المساحة في الدلتا والفيوم^(٣) وذلك في مناطق هامشية ، وغير منتجة وأراضى بور من أجل زيادة الدخل .

ويرى بوتزر أن المعرفة المصرية بالرى وأدواته ونظامه عموما في عهد الأسرات صممت لتوسيع الزراعة الشتوية ، وتقليل آثار تبسين الفيضانات السنوية ، وحماية المحلات العمرانية ، والحقول من التدمير ، بينما كانت الزراعة الصيفية مشابهة للزراعة البستانية الحالية في صورة رقاع صغيرة ضيقة المساحة^(٤) وفطن المصريون منذ البداية الى كيفية التغلب على صعوبات البيئة سواء بأدوات أنتجوها لمواجهة ذلك ، أو بالتصرف في حدود إمكانات البيئة . وإذا ما جاءت الفيضانات مدمرة ، كانوا يأخذون قطعان الحيوانات الى حافة الصحراء في وقت مبكر ، قبل أن يصبح ذلك غير ممكن ، وكانوا يحتفظون ببعض الفائض

Butzer, 1976, op. cit., p. 47.

(١)

Crawford, D. J., An Egyptian village in the ptolemaic period, Cambridge, Cambridge University Press, 1971, p. 112 y.

(٢)

Ibid., p. 41 ff.

(٣)

Butzer, K. W., op. cit., p. 51.

(٤)

لمقابلة الكوارث ، لأن الفيضانات كانت تثقل المحاصيل ، وتؤخر الحصاد حتى إبريل حين تأتي الخماسين فتعمل على تجفيف المحاصيل^(١) .
وتعلم المصريون كذلك ، كيف يدعمون الجسور ، ويظهرون القنوتات ، ويتغلبون على الصعوبات الناجمة عن انخفاض منسوب الفيضان التي كانت لها آثارا شبيهة بهذه الآثار التي كانت تحدث في وادي النيل في القرن ١٩ حينما كان الري المصيفى غير معروف على نطاق واسع ، وكان يترتب على ذلك أن ٣٥ ٪ من وادي النيل لا تصله المياه الكافية^(٢) .

٢ - التأثيرات الأجنبية الواغدة على مصر وآثارها العمرانية :

كان تأمل المصريين لبيئتهم وخاصة نهر النيل ونظام جريانه وفيضانه وعلاقته بالأرض ذا أثر كبير في الحياة الاقتصادية أساس العمران وخاصة الزراعة ومع ذلك يرى الكثير من العلماء أن نشأة الزراعة كان في مكان ما بآسيا • ولا شك أن التأثيرات الأجنبية كان لها دورها في العمران المصرى ولكن ليس بالصورة التي تنكر على الشعب الذى أقام الاهرامات وشيد المعابد لاعظيمة الباقية للكن ومعها المدن والمحلات ، حقه ودوره في الابداع والحضارة • لذلك نجد أن الحضارة المصرية كانت أحيانا أكثر تأثيرا في جيرانها ، حقيقة لقد عرف المصريون استخدام الأخشاب واستوردوها من الشام وعرفوا كيف يبنون منها الأساطيل وكيف يستخدمونها في المباني ، ولا يحسب ذلك لأهل المناطق التي استوردوا منها الأخشاب بل يحسب للمصريين الذين عملوا على جلبها ، أكثر من ذلك أثر المصريون في أهل هذه البلاد حتى انه وجدت هناك معابد تحاكي المعابد المصرية • كذلك يحلو للبعض أن يرجع كل تطور في الحضارة المصرية الى أصل أجنبى • وعلى سبيل المثال ، فإن Baines and Malek يريا أنه خلال عهد الأسرات زادت مساحة المناطق

Willcocks, V., and Craig J., Egyptian Irrigation, 3ed. 2 Vols. (١)

London, 1913, p. 304. (٢)

Ibid., p. p. 176.

المروية في الوادى تدريجيا ، مع وجود بعض الانتكاسات أحيانا وخاصة
حوالى ٢١٠٠ ق.م. وكانت تلك الزيادة جزئيا بسبب تطور المعرفة
الفنية وترقيتها ويقرر أن ذلك تطور قد جاء من الخارج ، وأما السبب
الثانى للزيادة فكان بسبب استصلاح الأراضي^(١)

ولا يمكن لأحد أن يدعى أن شعبا من الشعوب قد طور كل قدراته
الفنية وصنع كل ما عرف من آلات بنفسه وعلى أرضه ، وقد كانت
أحدى ميزات الاحتكاك الحضارى القديم تفاعل هذه الحضارات مع
بعضها البعض ، وإن احتكاك المصريين بالأجانب زاد من خبرتهم سواء
في السلم أو الحرب فكما طوروا أدوات الزراعة زمن البطلمة وعرفوا
الساقية والطنبور بعد أن عرفوا قبلهما الشادوف ، استفاد هؤلاء من
المصريين وعبدت آلهة المصريين في الخارج ، وجاء علماء الاغريق
وفلاسفتهم ليتعلموا في مدن مصر ومعاهدها كما سيأتى تفصيل ذلك
في موقعه من هذه الدراسة وكما عرفوا العجلات الحربية بعد غزوة
الهكسوس ، تأثر هؤلاء البدو الغزاة بالحضارة الراسخة ويرى العديد
من المؤرخين أنهم تمصروا حين استقروا بمصر *

الفصل الثاني

توزيع العمران والمحلات العمرانية

مقدمة :

ارتبط توزيع العمران منذ البداية — وكما سبق ذكره — أساساً بالمعطيات الطبيعية في الوادى والدلتا ، وكان لاتساع السهل الفيضى ، وحجم أحواض الري دورها الكبير في توزيع السكان وكثافتهم ، وبالتالي كثافة المحلات العمرانية •

ويمكن القول أن الضغط على الأرض وكثافة السكان كانت قليلة خلال عهد ما قبل الأسرات ويعنى ذلك أن استغلال الأرض كان واسعاً وانتشارياً extensive وقد عصد الزراعة أيضاً بعض الرعى والصيد والحياة البرية وبعض الثدييات ، وكانت مواضع العمران في ذلك العهد تتخير نفس الأماكن المرتفعة على الجسور الفاصلة بين الأحواض والحواجز والجسور Levees وكذا عند أطراف الصحراء ، وكان السهل الفيضى مشغولاً في حوالى نصف مساحته بالسالفان والأدغال والذي استخدم في الرعى الموسمى والجمع والالتقاط وكانت الحيوانات تنسحب خلال الفيضان نحو الجسور والحواف الصحراوية^(١) • وشيئاً فشيئاً زاد ضغط السكان على الموارد ، بعد تضاعف أعدادهم وكان للتناقض البيئى Enevironmental contrast الذى عبر عنه Butzer أثره في اختلاف نمط العمران في أجزاء مصر ، في الوادى والدلتا والواحات الصحراوية ، وفي الفيوم • وتشير جميع الدلائل الى أن أقل مناطق الجذب العمرانى في عهد الأسرات كانت المناطق الصحراوية حيث سكن هذه المناطق أقل من ٥٠ ألف نسمة وكان نمو العمران وتوزيعه مرتبطاً بنمو الري وتحسين طرقه ، واستصلاح بعض الأراضى الغير صالحة للزراعة والتي تغطيها المستنقعات والمناطق والتي كانت مع

- ٤٤ -

ذلك مصدرا للمبردى الذى اشتهر به المصريون ، ولكنها بعد ذلك تحولت الى مناطق معمورة ذات زراعة كثيفة (١) .

وعند البحث عن دلائل العمران وخاصة المدن نجد أن ذلك يحوطه صعاب جمة ، وان أمكن تحديد مواضع الكثير منها اعتمادا على النصوص ، والأدلة الطبوغرافية على الأقل فى مصر العليا ، على عكس الدلتا ، التى تعرضت بحكم اتساعها وكثرة فروعها النيلية والمؤثرات الخارجية التى وفدت عليها الى طمس للمعالم العمرانية مما يعوق المقارنات العمرانية بين الدلتا والوادي (٢) .

وتشير الأدلة الأثرية الى أن وادى النيل لم يكن ذا كثافة سكانية وعمرانية موحدة ، بل تميز الوادى بوجود بعض الفجوات العمرانية على عكس مناطق أخرى مزدهمة وكانت المنطقة الجنوبية متميزة بهذه الكثافة العالية نظرا لضيق السهل الفيضى وتقطعه وضغط السكان هناك ، على عكس المنطقة الواقعة الى الشمال من أسسيوط الحالية ، وظلت المناطق العريضة من السهل الفيضى مخلطة السكان والعمران حتى العهود المسيحية (٣) وكان سبب ترك مناطق خالية أن معظم المحلات كانت تنجح الى الوقوع على النيل نفسه ، وفى بعض الأحيان ، وفى حالة عرض السهل الفيضى كانت مساحة الظهير المدنى تزيد ، ونتج عن ذلك الوضع أحيانا نشأة محلات عمرانية تابعة Satellite settlements وعلى ذلك كانت الأجزاء الأضيقة من السهل الفيضى تشغل بالسكان أولا ، وكانت قلة الأرض المتاحة والصراع على الأراضي الزراعية ، سببا فى رغبة السكان للتعاون ، والتكتل فى السكن توفيراً للأرض مما أنتج الشكل النووى للمحلات اذ كانت القرية المصرية — أساسا من المحلات النووية المجمعة .

Baines, J., and Malek, J., Atlas of Ancient Egypt, Oxford, (١)
1978, p. 16.

O'Connor, D., The geography of settlement in Ancient Egypt, in (٢)
Ucko, p.; Tringham, R., & Dimbleby, G. W., op. cit., pp. 683-85.

Butzer, K., 1976, op. cit., p. 101. (٣)

ولم تكن رحلة العمل بين مكان السكن والعمل مشكلة ، اذ في ظل نظام الري الحوضي اقتصر العمل على نصف السنة الشتوى ، أى انه عمل موسمي^(١).

وقد أثر حجم أحواض الري والتحكم فيها في نمط العمران ، وكما يذكر بوتزر أن الأحواض الفيضية للنيل والتميزة بالصغر في مساحتها كانت سهلة الاخضاع والادارة حين يكون السهل الفيضي ضيقا ، ولكن باتساعها وزيادة عرضها ، تصبح صعوبة الحكم والاخضاع ، وحتى الأحواض الحديثة جرى تقسيمها صناعيا ، وفي بعض جهات غرب النيل نجد أن متوسط حجم الأحواض هو ٤ أمثاله متوسطها في شرق النيل ، ولذلك كان من السهل أن ينجز الري الصناعي في الجنبوب الأقصى من الوادى وفي شرق النيل لصغر مساحة الأحواض ، وحيث الأحواض هناك لا تستدعى سدودا عرضية ، وذلك يوضح الموقع المفضل لعواصم النومات على الضفة الشرقية ، يضاف الى ذلك أن الأحواض الكبرى بطيئة الانحدار في الضفة الغربية في النومات من ٨ - ٢٠ حتى بعد تجزئتها كانت تتطلب مهارات خاصة^(٢) ولذلك فإن بعض الكتاب قد افترض سيادة حرف الرعى في المناطق المخلطة السكان ومن هؤلاء O'connor^(٣).

ومن العوامل التي أثرت في نمو كثافة وتطور العمران ، وخاصة في المناطق المتعلقة بالتطوير والاستصلاح ، أن بعض الفراعنة قد اقطعوا المحاربين القداماء والضباط والجنود الأجانب والمرتزة أراضي شاسعة في مناطق مختارة^(٤) مما يشير الى حركة واسعة للعمران الداخلى زمن الفراعنة في الدولة الحديثة ، كما تشير بعض الأدلة الأخرى عن هجرة ريفية من النومات المزدهمة ، يفترض أنها كانت شائعة في عهد الامبراطورية الحديثة ، ويرى بوتزر O'connor

Farid, E., the population of Egypt. Cairo, 1948.

(١)

Butzer, K., 1976, op. cit., p. 108.

(٢)

O'connir, D., op. cit., p. 695.

(٣)

Gardiner, A., The Wilbour papyrus. Vol. 2 Oxford, Oxford Univ. Press, 1948, pp. 79 ff.

(٤)

- ٢٦ -

أن نمو المدن الكبرى في المناطق الشمالية من الوادى ، ربما كان يعكس في أوقات الاضطرابات السياسية وعدم وجود السلطة المركزية حالة الاضطرابات التى جعلت السكان يتزاحمون في المدن الكبرى في صورة إعادة تجمع كاستجابة للتدخل السياسى والاضطراب^(١) .

وتجدر الاشارة هنا ، الى أن نمط العمران المصرى قد اختلف عن غيره من الحضارات القريية ، ومن ذلك أن معظم المصريين قد استثمروا في العيش ، المعيشة التقليدية ، في القرى والمراكز الصغرى ، على عكس الحال في منطقة ميزوبوتاميا (ما بين النهرين) حيث كان تطور الحضارة هناك يجذب العديد من السكان الريفيين الى مجال نفوذ المدن وذلك ما جعل النمط المصرى غير قابل للتكرار ، بمعنى أنه نمط عمرانى فريد^(٢) .

الشبكة العمرانية المصرية القديمة :

تواجه الباحث في هذا المجال نفس الصعوبات التى تواجهه حين يحلل المورفولوجية الخاصة بالمحلات العمرانية وإعادة رسم صورة لهذه الشبكة هو أمر بالغ الصعوبة لا سيما اذا ما أخذنا التراتب العمرانى في الاعتبار ، والمشكلة ليست فقط في أن بقايا المحلات قد اندثرت وطمرت ، ولكن لأنه بينما وصل الى علمنا بعض الاشارات عن التراتبات الكبرى العمرانية مثل مدن العواصم والمراكز الحضرية الكبرى فان المراتب الدنيا من محلات العمران هي غائبة تقريبا ، ومحاولة معرفتها وتعين مواقعها هو أمر يعتمد أكثر على الافتراض غير المؤكد .

المقاطع المصرية القديمة :

ومن أقدم الأطر الجغرافية التى احتوت المحلات العمرانية هي المقاطعات التى تبين شواهد كثيرة على أن مصر في بداية عصر ما قبل

Butzer, K., K., 1976, op. cit., pp. 109-112.

(١)

التاريخ كانت مقسمة الى عدة أقاليم أو مقاطعات كما سميت بعدها وقد سمي المصري المقاطعة بلغته « سبات » وهى لفظة تعنى فى الأصل قسما^(١).

ومنذ البداية وضح الفرق بين الوادى والدلتا فى التطور العمرانى وبدأ ذلك فى عدد المقاطعات وحدودها التى كانت أكثر ثباتا عبر التاريخ فى الوادى عنها فى الدلتا المتغيرة والمتطورة نتيجة تحول المجارى والفروع النيلية واستصلاح الأراضى مما أثر على العمران وعدل من الحدود كثيرا وذلك جعل أنماط توزيع المراكز العمرانية بها مختلفة عن الوادى^(٢).

لذلك جاء ترتيب المقاطعات وعددها فى الدلتا مختلفا فى كل القوائم التى وصلت إلينا ، خلافا لما عليه الحال فى الوادى ، ويدل ذلك على أن تنظيم الدلتا الإدارى والسياسى لم يتم الا ببطء كبير ، وأن عدد مقاطعاتها كان لا يزال ١٦ حتى عهد الدولة الثانية عشرة • وحتى فى الأسرة ١٩ لم تتجاوز هذا العدد حسب ما جاء فى قائمة سيبتى الأول^(٣) كذلك اختلفت تبعية مقاطعات منف فى العهد الفرعونى حيث كانت مع مقاطعات الدلتا وتجدها بعد ذلك حين تبعت مصر العليا فى العهد اليونانى^(٤) وأما عن المقاطعة كإطار جغرافى للعمران ، فكانت القوائم تبين أسماءها والترع التى تروىها ، والاقليم الزراعى بها والحقول ، مميزة اذا ما كانت مرتفعة أو منخفضة حسب موقعها من النيل ، وتبين القوائم أيضا أن المناطق من المقاطعة الواقعة عند حافة الصحراء تشتمل على مناطق للرعى وأخرى للصيد ، وكانت السلطة فى يد اله العاصمة ويدير شئون المقاطعة نيابة عنه حاكم المقاطعة أى انه كان يمثل الاله •

(١) سليم حسن : اقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة ١٩٤٤ ، ص ١٦ .

O'connor, D. op. cit., p. 685.

(٢)

(٣) سليم حسن مرجع سبق ذكره — ص ١٨ .

(٤) محمود أمين الله — تطور الوحدات الادارية فى العهد العربى — رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لقسم الجغرافيا بكلية الاداب — جامعة القاهرة — ١٩٦٦ — ص ١٩ .

ومن أوجه الاختلاف الأخرى بين عمران الوادى وعمران الدلتا ، أن مدن الدلتا فى معظمها كانت تعيش فيما بينها على التجارة بالنيل وقرعه وكان لها شىء من الاستقلال القضائى والمالى يختلف عن الجهات الزراعية الأخرى •

وكانت النومات أو المقاطعات تختلف كثيرا فى مساحتها بحسب المنطقة التى تقوم فيها وظروفها الطبيعية وفى المناطق كثيفة السكان فى الجنوب وفى شمال طيبة نجد أن عواصم النومات أقرب من بعضها البعض وتتباعد بصورة منتظمة عن بعضها فيما عدا موقع قفط Gebtyu التى تحكم مدخل وادى الحمامات مصدر الأحجار واحد الروابط الهامة الرئيسية مع البحر الأحمر ومناجم الذهب^(١) فى الأوقات التى يسودها الاستقرار والحكومات المركزية المستقرة مثل بعض الفترات كالدولة الوسطى والحديثة ، فإن عواصم النومات كان لها السيادة الحضرية على أقاليمها ، أى أن مجال نفوذ المدن وعواصم النومات كان ملحوظا ، تاركة مجالا أصغر لغيرها من المدن وعموما كانت المقاطعة وعاصمتها تمثل الخلية الأولى للتكوين السياسى والادارى والروحى لمصر الفرعونية ، متمتعة بنوع من الاستقلال الذاتى المتمركز حول معبد ، وكانت المقاطعة تمثل وحدة إدارية ودينية وزراعية فى وقت واحد^(٢) • والحقيقة أن الاستقرار السياسى كان ضروريا ومؤثرا فى العمران ، وكما أوضح O'connor فإنه بينما كان عدد المدن الهامة فى مصر العليا فى النومات من ١ - ٦ ثابتا تقريبا على طول الدولة الحديثة ، كان هناك زيادة ملحوظة فى عددها فى النومات من ٧ - ١٥ عند نهاية الأسرة ٢٠ •

وعند تفكك الدولة ، تزداد الأهمية الإدارية للمدن ، والاستقلال الإدارى عن عواصم النومات ، والعواصم القومية ويبدأ السكان فى التركز فى محلات أكبر لأغراض الدفاع ومثل هذه التغيرات كانت أكثر احتمالا فى الحدوث فى النومات الكثيفة شمال النوم ٦ عنها فى المناطق الأكثر تخلخلا فى السكان ، ويدل على ذلك الوضع من الاحتماء ببعض

مدن بعينها ما جاء في نقش بيانخى Piankhy (٧٥١ - ٧٣٠ ق م) واصفا غزوه لمصر ، وأجزاء من مصر العليا على الأقل ، فالدلتا كانت مقسمة في ذلك الوقت بين عدة حكام صغار كل منهم قائم على مدينة محصنة (٢) .

التراتب الحضري في وادي النيل :

وقد حاول بوتزر رسم صورة عمرانية لوادي النيل اعتمادا على المعلومات المتاحة وذلك بالنسبة للنومات في مصر العليا والتي يبلغ عددها ٢٢ مقاطعة أو نوما (١) .

وقد قسم المحلات الى ٤ فئات عمرانية تراتبية اعتمادا على الوظائف التي كانت تعكسها كل محلة أو فئة وهذه الفئات هي :

١ - القرى الكبرى (وهي التي تحرز من ١ - ٣ نقاط بحسب وظائفها) .

٢ - المحلات والمراكز الصغرى (وهي التي تحرز من ٤ - ٦ نقاط بحسب وظائفها) .

٣ - المحلات الكبرى (وهي التي تحرز من ٧ - ١٠ نقاط بحسب وظائفها) .

٤ - المدينة (وهي التي تحرز أكثر من ١٠ نقاط بحسب وظائفها) .

ويلاحظ ان الوظائف الغالبة كانت دينية وادارية واقتصادية ، مع ملاحظة ان الحضريّة المصرية القديمة كانت على عكس الحضريّة العراقيّة في ميزوبوتاميا (٣) ، اذ أن معظم سكان المدينة المصرية كانوا

(١) ايتين دريوتون وجاك فاندييه ، مصر ، دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٥ - ص ١٦٦ ، ص ٢٠٣ .

(٢) Bulzer, K., 1976, op. cit., pp. 57-80.

(٣) Wilson, J. A., in Kraeling, c., & Adams, R., eds, city invincible : (٣) An oriental Institute symposium, Chicago University of Chicago Press, pp. 124-ft.

جدول رقم (١) أنماط العمران في وادي النيل في عهد الأسرات (١)

رقم علامة	المدن الكبرى	المراكب الكبرى	المراكب الصغيرة	القرى	متوسط عدد السكان	المساحة بالكيلو متر ٢	كثافة السكان	طول الجبهة	نسبة المساحة الى الجبهة النيلية	رقم
١	١	١	١	٤	٣٩٠٠٠٠	٧٢	٢٤٢	٤٢	١٧	١
٢	١	١	١	٨	٥٢٠٠٠٠	١٣٧	٣٨٠	٦٧	٢	٢
٣	—	٤	٦	١٢	٨٢٠٠٠٠	٢٢٥	٣٦٥	١١٨	١٩	٣
٤	٢	١	٦	١٢	٨٧٠٠٠٠	٢٨٤	٣٠٦	٥٠	٥٧	٤
٥	١	١	٢	٦	٣٩٠٠٠٠	٣٣١	١١٨	٤٢	٧٩	٥
٦	١	—	٢	٤	٢٩٠٠٠٠	٣٠٠	٩٧	٥٥	٥٥	٦
٧	١	١	٢	٤	٣٨٠٠٠٠	٣٠٦	١٢٤	٤٠	٧٧	٧
٨	٢	—	٤	٨	٥٠٠٠٠٠	٦١٣	٨٢	٧٥	٨٢	٨
٩	١	—	٣	١٣	٥٠٠٠٠٠	٥٧٥	٨٧	٦٢	٩٣	٩
١٠	١	—	٣	٧	٣٧٠٠٠٠	٥٣١	٧٠	٤٢	١٢٦	١٠
١١	—	١	٢	٤	٢٨٠٠٠٠	١٢٥	٢٢٤	١٥	٨٣	١١
١٢	—	١	٢	٤	٢٥٠٠٠٠	٢٠٦	١٢٢	٢٠	٦٩	١٢

أخميم

كوم إشتار

مسطب

المكاولية

٦٨	٢٧	١٠٤	٢٥٠	٢٦٠٠٠	٤	٤	—	١	١٣	أسيرط
١١٢	٢٤	٩٢	٢٧٢	٢٥٠٠٠	٤	٢	٢	—	١٤	القومسية
١٢٥	٥٢	١٢٢	٦٥٠	٨٠٠٠٠	١٢	٦	٢	١	١٥	الإسمونين
٨٦	٤٤	١٠٩	٢٧٧	٤١٠٠٠	٥	٢	١	١	١٦	الكوم الأخضر
١٢١	٤٢	٧٠	٥٦٢	٢٩٠٠٠	٦	٢	١	—	١٧	الشيخ فضل
٦٨	٦٢	٨٢	٤٢٥	٢٥٠٠٠	٤	٢	١	١	١٨	الحية
١٢٥	٢٥	٦٩	٤٢٨	٢٠٠٠٠	٧	٢	١	—	١٩	البهنا
١١٩	٥٤	١٢٥	٦٤٢	٨٠٠٠٠	٢٢	٤	١	١	٢٠	اهنامبيا
—	—	١٩٢	٤٠٠	٧٧٠٠٠	١٢	٦	٢	١	٢١	النجوم
٧	١٩	٢٥٦	١٢٢	٢٤٠٠٠	٤	٢	٢	—	٢٢	كر عمل
٥٤	٢٧	١٢٠	٢٠٠	٢٦٠٠٠	٤	٢	١	—	٢٣	اطنيح
—	—	٨٦٨	٨٠٥٦	١٠٤٩٠٠٠	١٧٠	٧٠	٢٤	١٧		المجموع الفرعي
٦١	٤٦	٢٧١	٢٨١	٧٦٠٠٠	٨	٤	٢	١		مفيس
—	—	—	٨٢٢٧	١١٢٥٠٠٠	١٧٨	٧٤	٢٧	١٨		الجملة

BUTZER, K, 1976, op. cit., P. 74-75.

المصدر : الجول عن :

يقومون بأعمال زراعية ، ومع ذلك فإن فئات التراتب سابقة الذكر كانت تقوم أيضا بوذائف خاصة بالتوزيع والتسويق كمناطق عقدية ، وكمكان للحرفيين والمتخصصين ، وكمراكز لإعادة التوزيع مثل المساكن التى كانت واقعة على الجهة النيلية ، أو كمكان للعبادة *cult centres* ومناطق للتخزين وإدارة الأراضي التابعة للمعبد وكسكن لكبار الموظفين والملوك ومن العوامل التى تعوق رسم صورة كاملة عمرانية عامل الهدم بواسطة النيل الذى غير مواضع عديد من المحلات .

وقد حاول بوتزر تصوير الشبكة العمرانية فى النومات فى مصر العليا مستفيدا من بعض مضمونات نظرية المكان المركزى *central place theory* رغم المثالب البادية والمتمثلة فى غياب التراتبات الدنيا من المحلات تماما ، يضاف الى ذلك الشكل الخطى المستقيم *Linear* للوادي والسهل الفيضى والذى لا يناسب كثيرا تطبيق هذه النظرية والشكل السداسى اللصيق بها ، وقد حاول رغم ذلك ، معتمدا على ما يسمى بمعدلات التشعب *Bifurcation ratios* على مثال ما أجراه Johnson سنة ١٩٧٥ فى تحليله الأولى للشبكة العمرانية عند شعب Uruk القديم . ويلخص هذه المحاولة الجدول (١) والذى يوضح المراكز العمرانية وتراثباتها كما استخلصها بوتزر من دراسته باستخدام نسبة أو معدل تشعب ٢ : ١ ، ويبين الجدول تلك النتائج بالنسبة لكل نوم فى مصر العليا ، وعدد المدن الكبرى ، والمراكز الكبرى والصغرى والقرى الكبيرة ، ومتوسط عدد السكان ، والمساحة بالكيلومتر ، والكثافة السكانية وطول الجبهة النيلية المعدلة ونسبة المساحة للجبهة النيلية .

ولعله مما يجعل تلك الدراسة صعبة أنها خاصة بعهد الأسرات كله دون تحديد زمنى معين ولكنها تعتبر محاولة هامة وجادة اذا اعتبرنا ان عدد السكان وعدد المصلات العمرانية لم يكن بالضرورة يتزايد بمرور الزمن كما هو عليه اليوم ، ولم يكن هناك بد من تلك المحاولة الافتراضية لتصوير الشبكة العمرانية في مصر العليا فقط ، والتي تتوافر بها بعض البيانات أكثر من الدلتا .

ويرى « وهيبه » أن متوسط طول المقاطعة كان ٣٢ كم ، وان كان هناك مقاطعات زادت في طولها عن ذلك ، وأخرى قلت ، كما تشير الى ذلك الجبهة النيلية كما في الجدول . وهناك ملاحظة هامة على الجدول السابق ، وهى انه في المقاطعات التي وقعت ضمنها العاصمة القومية أحيانا نجد ان عدد المدن الكبرى يزيد كما هو الحال في المقاطعة الرابعة حيث طيبة العاصمة .

والجدول يعطى فكرة جيدة عن التراتب العمرانى في وادى النيل في منطقة مصر العليا ومقاطعة منف أول مقاطعات الدلتا ، ومن هذا التراتب نستنتج أنه كان هناك ١٧ مدينة كبرى و ٢٤ مركزا حضريا و ٢٩ مركزا أصغر ، ١٣٨ قرية كبيرة ، يضاف الى ذلك ٧٠ مركزا صغيرا جرى التنبؤ بوجودها ، وكذا ١٧٠ قرية كبيرة ، وبلغ حجم السكان في الوادى ١,٠٤٩,٠٠٠ نسمة على مساحة قدرها ٨٠٥٦ كم^٢ ، وبلغ متوسط طول الجبهة النيلية للمقاطعة ٤٦ كم ، اما معدل نصيب الكيلومتر من الجبهة النيلية من المساحة نحو ٦,١ كم^٢ .

كما اختلفت مساحة النومات اذ كان أكبرها النجوم العشرون ومساحته ٦٤٣ كم^٢ يليه النوم الثامن بمساحة ٦١٣ كم^٢ ، اختلف عدد السكان والكثافة فكان أكبرها سكانا النوم الرابع بمتوسط ٨٧ ألف نسمة ولا عجب في ذلك فها هنا كانت العاصمة القومية ويلى ذلك في عدد السكان سكان النوم الثالث ٨٢,٠٠٠ نسمة في حين اننا نجد أن متوسط عدد السكان للنوم عموما كان حوالى ٤٧,٦٨٢ نسمة ومتوسط مساحة النوم كان ٣٦٦ كم^٢ وقد قلت ثلاثة عشر نومات عن هذا المتوسط في المساحة بينما زادت عشرة نومات عنه (بما في ذلك الفيوم) ، كذلك بالنسبة

للتوسط عدد السكان نجد أن متوسط عدد السكان سابق الذكر قد فاقه عدداً ثمانى نومات بينما قل منه خمس عشر نوماً (بما فيها الفيوم)^(١) أما إقليم مميفه أول نومات مضر السفلى فقد قلت مساحته عن متوسط مساحة نومات جسر العلياء ولكن زاد عدد سكانه عن متوسط عدد السكان سابق الذكر ، لوجود مدينة منف وأهميتها السياسية والدينية ، ولذلك يعتبر إقليم منف من المناطق مرتفعة الكثافة حيث تبلغ الكثافة به (٢٧١ نسمة / كم^٢) ويلاحظ أن المصريين القدماء قد استخدموا مساحة تسمى « الأتور » Atour ، فتدل بعض النقوش التي ترجع إلى عهد سيزوستريس الثالث أن المساحات في كل نوم كانت تقدر بهذه الوحدة « الأتور » وكل أتور واحد مساو لحوالى ١١٠ كم^٢ .^(٢)

وكما سبق الذكر ، فإن توزيع العمران وتوزيع كثافة السكان كانت مرتبطة بكل من النمو في استصلاح الأراضي من ناحية وابتداع أدوات زراعية متقدمة وبدأ ذلك جلياً في أواسط العهد الفرعوني في الدولة الوسطى ، وأيضاً في نهايته في عهد البطالمة حين نجح هؤلاء في خفض منسوب البحيرة في الفيوم وتجفيف مساحة حوالى ١٢٠٠ كم^٢ مما زاد من عدد المحلات العمرانية وبالتالي السكان بدرجة واضحة^(٣) .

(١) جميع المتوسطات والحسابات من عمل الباحث .

(٢) Montet, P., *Eternal Egypt*, translated by Weightman, D., Readers union, London, 1965, p. 78.

(٣) Ball, J., *Contributions to the geography of Egypt*, Survey of Egypt, Cairo, 1952, p. 215.

الفصل الثالث العمران المصرى القديم وعلاقته بالسكان واستخدام الأرض

العمران المصرى القديم وعلاقته بالسكان واستخدام الأرض :

تدل اشارات عديدة على أن حجم العمران وعدد السكان كانا يتزايدان بوضوح أبان فترات الاستقرار والرخاء ، على عكس الفترات التى تسودها الاضطرابات ، أو يثقلها نقص منسوب النيل وما يلحق بالبلاد من جراء ذلك من مجاعات وأمراض .

وهناك العديد من الاشارات أيضا ، على أن مصر عرفت عدد السكان أبان التاريخ الفرعونى حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. بينما عرفت بابل قبل ٣٨٠٠ ق.م. والصين حوالى ٣٠٠٠ ق.م. أى قبل معرفة المصريين له (١) .

ولم تكن الفترة بين كل تعداد وآخر ثابتة ، كما لم يكن غرض التعداد واحدا . ففى زمن أمنتب الأول كان رب الأسرة يبلغ عن اعداد أفراد أسرته بما فيه ذلك العبيد التابعين له . وفى زمن أمنتب الثالث (١٤١١ ق.م. — ١٣٧٥ ق.م.) فى عهد الأسرة ١٨ تم عد الجنود والضباط والصالحين للخدمة العسكرية وغيرهم ، كما تم تبويبهم حسب الاعمار ، وقدرت الضرائب على المساكن ، وعدد سكانها ، وقدر عدد أسرى الحرب ، كذلك كان من المتبع زمن البطالمة ابلاغ أرباب الأسر للمسؤولين بعدد أفراد الأسرة بين الحين والآخر (٢) .

ولا يمكننا فهم تطور اعداد السكان زيادة ونقصانا ، الا بربط ذلك بأحوال البلاد الداخلية والخارجية ، وتطور استخدام الأرض

(١) Spiegelman, M., Introduction to Demography, New York, 6th, ed., 1980, p. 1.

(٢) عبد المجيد فراج — الأسس الإحصائية للدراسات السكانية — القاهرة — ١٩٧٥ ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

والعمران • كذلك تعطى بعض تقاليد وعادات المصريين القدماء استنتاجات مفيدة عن جغرافية السكان آنذاك • ومن ذلك ما عرف عن المصريين القدماء من شدة الحرص على الانجاب ، وتمنى الكثرة منهم ولو على رقة الحال ، وبدافع الرغبة العامة في النسل كان الزواج المبكر ، وتكوين الأسرة من أهم ما ينصح به الناشئ • وربما كانت الرغبة في كثرة الأبناء راجعة — كما هو الحال في مصر الحديثة — الى نشأة المجتمع المصرى زراعيا في جوهه ، وتأثره بوفرة الأيدي العاملة الزراعية ، وفي ذلك يختلف المجتمع المصرى القديم الى حد ما عما كان عليه الحال في المجتمعات الرعوية القديمة مثل المجتمع الاغريقى ، أو المجتمع البدوى (١) •

وتجدر الإشارة الى أنه رغم نقص الاشارات عن السكان في مصر عموما ، الا أن تقديرات السكان في الوادى حظيت ببعض الاهتمامات الأكبر ، بينما كانت تلك الخاصة بالدلتا أقل •

وقد درس بوتزر سكان وادى النيل والفيوم اعتمادا على تركيز المحلات العمرانية في المنطقة وحدد عدد ١١ مليوناً في الوادى والفيوم ، ما بين ٢,٤ — ٣,٦ مليون نسمة لكل مصر ، في عهد الرعامسة •

كذلك درس Bear سنة ١٩٦٢ كثافة السكان الريفيين على أساس خصوبة التربة ، ونتاج المحاصيل ، والسعرات الحرارية الناتجة والضرورية لكل فرد ، وامكن قياسا على ذلك ، وعلى أساس مساحة الوادى ٨٣٣٧ كم^٢ القول ان سكان الوادى والفيوم كانوا ١,٥ مليوناً من الانفس في عهد الأسرات ، علما بأن ذلك الرقم كان يزيد أوقات التوسع الامبراطورى ، وتزايد الانتاجية الزراعية ، ونمو المدن المجمع بنمو الواردات من الخارج (٢) •

وتعطى الاختلافات في نوعية استخدام الأرض Landuse أيضاها مفيدة عن السكان في الوادى والدلتا •

(١) عبد العزيز صالح — التربية والتعليم في مصر القديمة — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١١ — ١٣ •

(٢)

Butzer, K., 1976, op. cit., pp. 76-77.

فمن ذلك ان أول محاولة جادة لاستغلال الفيضوم في الدولة الوسطى (٢١٦٠ — ١٧٨٥ ق.م) في الأسرة ١٢ بالتحديد حيث بُشيد المناحته سدا ببوابات عقد اللاهون ، وربما آخر عند الهوارة للتحكم في دخول الماء وخروجه فكانت تفتح البوابات اثناء الفيضان فترفع المياه الداخلة مستوى البحيرة الى المنسوب المطلوب ، وكان فائض مياه بحر يوسف يحول الى ترعة فرعية تجري من اللاهون الى أسفل وادى النيل . وهكذا تحولت البحيرة الى خزان ومنع تكوين بحيرة موريس بدأ استصلاح المنطقة التي كان يغرقها الفيضان سنويا بلا ضابط ووصلت المساحة التي تم استصلاحها حوالي ٢٧ ألف فدان ، كذلك تعرضت المنطقة لعملية استصلاح ضخمة أخرى تحت حكم البطالمة ، حيث تقدم التعمير وجاء المصريون جنبا الى جنب مع المقدونيين والأغريق تطوعا ومجندين من مختلف قرى الصعيد والدلتا ونقلوا معهم نفس اسماء قراهم القديمة الى قرى المهجر الجديد ، وفي إحدى البرديات أن هذه القرى بلغت ١١٤ قرية ومدينة أيام البطالمة (١) . ولا شك ان مثل هذه التحولات في استخدام الأرض قد زادت من اعداد السكان بزيادة الرقعة المزروعة ، كما أنها لا بد أنها قد اعدت توزيع الاثقال السكانية ، وعدلت من الكثافة بين مكان وآخر . وجدير بالذكر ، ان محاولة تقدير حجم السكان والعمران في مصر القديمة يقف حائلا أمامها أيضا ان حدود مصر لم تكن ثابتة بين الفترات التاريخية ، كما أنه في كثير من الحالات كان في مصر الآلاف من غير المصريين مما يجعل من كل المحاولات في اعداد التقديرات التي تحتل الصحة والخطأ .

وقد تأثر توزيع السكان وكثافتهم بشدة بين الوادي والدلتا باختلاف مورفولوجية كل منهما ، اذ كان ضيق الوادي وقلة اتساعه في الجنوب لزيادة الكثافة كثيرا بالرغم من قلة العدد الاجمالي للسكان نسبيا ، بينما كان الاتساع البادئ للدلتا ، وامكان استصلاح مصاحات

(١) جمال حمدان — شخصية مصر — الجزء الثاني — عالم الكتب — القاهرة ١٩٨١ ص ١١١ ، ١١٢ .

شاسعة منها متاحة عاملا من عوامل قلة الكثافة نسبيا على الرغم من كثرة السكان قياسا بسكان المناطق الضيقة في جنوب الوادى •

ويمكن القول ان مساحة الأرض المزروعة في الوادى في عهد ما قبل الأسرات حتى عهد الدولة الوسطى كان في حدود ٨٠٠٠ كم^٢ ، وكان ظهور الشادوف خلال الأسرة ١٨ عاملا في تسهيل رفع الماء وزيادة مساحة المحاصيل المصيفية في الأراضي المرتفعة عن مستوى الماء بنسبة بين ١٠ — ١٥٪ • خلال عهد الرعامسة وزيادة أخرى مشابهة خلال البطالة نتيجة للأعمال التي تقدم ذكرها وأيضا بسبب ادخال الساقية مؤخرا •

ويقدر « بوتزر » كثافة السكان في عهد حضارة البدارى ٤٠٠٠ ق.م • بثلاثين شخصا لكل كيلو مترا مربعا باعتبار أن ٧٥ ٪ من السهل الفيضى في الوادى كان مستغلا ، وان مجموع السكان آنذاك هو ٢٥٠,٠٠٠ مليون نسمة (٢٥٠,٠٠٠ نسمة) •

وبعدها ، نتيجة التطورات التي تقدم ذكرها زادت الكثافة الى ٩٠ نسمة / كم^٢ والسكان الى ١,١ مليون نسمة في العهود المزدهرة زمن الدولتين القديمة والوسطى ، بينما اعتري هذه القيم الديموجرافية بعض النقص ابان فترات التدهور اذ يقدر الهبوط بحوالى الثلث على الاقل في الفترة الانتقالية الأولى حوالى ٢١٠٠ ق.م • ، وكذا زمن الهكسوس حوالى ١٦٠٠ ق.م • (١) •

ويجب ان نذكر ان الكوارث الطبيعية وأنخفاض منسوب النيل على وجه الخصوص كان له أثره السلبي على حجم السكان ولعل ابلغ ما يصور ذلك ما ورد لدى المقريزى على الرغم مما قد يبدو أحيانا من بعض المبالغات مثل قوله (٢) « ٠٠٠ ثم وقع الغلاء في زمن أتريب ابن مصرم ثالث عشر ملوك مصر بعد الطوفان : وكان سببه أن ماء

Butzer, op. cit., pp. 82-84.

(١)

(٢) تقى الدين أحمد بن على المقريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) — اغانة الأمة بكشف الغمة ، أو تاريخ المجاعات في مصر — تقديم وتعليق بدر الدين السباعى — دار ابن الوليد — حلب ، ١٩٥٦ — ص ٧ — ١١ •

النيل توقف جريه مدة مائة وأربعين سنة !! فبأكل الناس البهائم حتى
فנית كلها ، وصار الملك اثيريب ماشيا ، ثم اضعفه الجوع حتى لم يبق
به حركة سوى أن ييسط كفيه ويقبضهما من الجوع . . . الخ » . ولعل
في هذا الوصف ما يوضح ان مثل هذه العوامل الطبيعية كان لها أثرها
في خفض حجم السكان بشدة . ولا شك ان كثافة السكان كانت نتاجا
طبيعيا لضغط السكان على الأرض الزراعية . أو المنتجة المتاحة ،
ويبدو ان نمط الاستغلال قبل الأسرات كان واسعا وانتشاريا
Extensive وكان الاعتماد أساسا على الأرض مع بعض الرعى
والجمع والإلتقاط والصيد السهل والحياة البرية والثدييات الضخمة^(١) .

ويؤكد بوتزر ان المعاش والحياة الغذائية في عهد ما قبل
الأسرات كانت متنوعة وغنية بالأنواع البيئية ولعبت الزراعة المروية
اثناء ذلك دورا ثانويا ، ويعقد مقارنة بين ما كان سائدا آنذاك في البيئة
وبين ما كان سائدا في سهول البنغال والنيجر الفيضية في أوائل
القرن ١٩ . وقد حدث تقلص تدريجي في الغطاء النباتي الطبيعي ،
وقلت بالتالي حيوانات الرعى والصيد التي تعيش عليه مع تزايد
الاهتمام بالرعى الصناعي تدريجيا . وتشير المصادر والأحداث في الدولة
القديمة وما بعدها الى اقتصاد مختلف عنه في فترة ما قبل الأسرات
يقوم على تنوع لاستخدام الأرض ، وجهود ضخمة تدل على رسوخ
الاقتصاد ، من ذلك بناء ثكنات ضخمة لايواء ٤٠٠٠ عامل في وقت
واحد قرب هرم خوفو حيث كان يجري العمل ، وبلغ مجموع العمال
الموسميين ١٠٠٠٠٠ مما يدل على قاعدة سكانية عريضة^(٢) .

وعلى ذلك كانت هناك علامات واضحة في استخدام الأرض منها
التحول من الرعى الصيفى الى الرعى الصناعي (جزئيا) في نهاية ما قبل

Butzer, K., Environment and Human Ecology in Egypt during (١)
predynastic and Early dynastic times, Bull. Soc. Geograph. Egypte 38,
1959, pp. 78 f.

Edwards, L., The pyramids of Egypt, New York, The Viking (٢)
Press Inc., 1971, pp. 216 ff.

الأسرات ، والتحول للرى بالرفع lift irrigation وخاصة من الآبار في الأسرة ١٨ والتي تدعمت زمن الرعامسة ، كذلك عرفت عملية اضافة المخصبات فيما بعد ، وعرفت عملية أراحة الأرض Fallow — تركها بدون زراعة — لاستعادة خصوبتها على نطاق ضيق ، اذ لم تكن ضرورية في ظل نظام الرى السائد ، وعرفت على نطاق ضيق في مناطق الرى بالرفع ، كذلك كان ادخال الساقية زمن البطلمية عاملا من عوامل زيادة الأرض المزروعة وتنوع استخدامها ، وبالتالي زيادة السكان •

ويرى بوتزر Butzer ، ان قمة السكان وتزايد اعدادهم لم تكن تتفق مع فترات الرخاء الأقصى ، ولكن مع فترات التعمير والتوسع الانسب والاستغلال • وهو يرفض تقدير السكان بواسطة Josephus بحوالى ٧,٥ مليون نسمة اذ انه أكثر مما سجله تعداد ١٨٨٢م • ويرى ان تقدير Russel وهو ٤,٥ مليون أكثر قبولا تأسيسا على تسجيلات معبد ادفو بوجود ٩ مليون أورورا Aroura أراضي مزروعة (٢٤,٦٠٠ كم^٢) مقارنة بحوالى ٢٧,١٥٩ كم^٢ سنة ١٨٨٢م •

ويرى بوتزر ان السكان تدهوروا عددا مرة أخرى في آواخر عهد الرومان والبيزنطيين^(١) وقد نمت وزادت مساحة الأرض المزروعة في الفيوم من حوالى ١٠٠ كم^٢ في بداية الأسرات • ومع الأسرة الثانية عشر زادت المساحة والكثافة فوصلت المساحة المزروعة الى ٤٥٠ كم^٢ في عهد الدولة الجديدة ، مع ارتفاع كثافة السكان بالقطع عنها في وادي النيل ، وفي القرن ٣ ق.م • زاد البطلمية المساحة المزروعة الى ١٣٠٠ كم^٢ جاعلين من المنخفض منطقة كثيفة الاستغلال الزراعى ونمطا فريدا في استخدام الأرض • وقد قدر السكان في اوقات الرخاء القصوى

بحوالى ٣٠٠,٠٠٠ نسمة كانوا يقطنون ١٩٨ محلة عمرانية على الأقل^(١) .

وكما سبق القول كانت الدلتا أكثر تشبهاً في عمرانها وكثافتها أى أقل كثافة من الوادى وأيضا عن اقليم الفيوم ، واستمر التعمير بها على مدى فترة اطول كثيرا من الوادى ومن أوجه اختلاف استخدام الأرض بين الوادى والدلتا ، والذي كان له انعكاسات على عدد السكان وكثافتهم ، ان الرعى ظل نمطا هاما بالدلتا على عكس الوادى ، لفترة طويلة حيث الأراضى الرطبة ، وتؤكد ذلك عديد من الشواهد الأثرية مثل عبادة الحيوانات ، وأسر رمسيس الثالث لخمس قطعان كبيرة من الماشية احضرها الليبيون الى الدلتا . كذلك من أوجه الاختلاف في استخدام الأرض ان فى الدلتا كان عديد من النومات يتميز بزراعات الحدائق والبستنة ، مما يدل على ان اشكال الزراعة كانت أكثر تطورا عنها فى وادى النيل ، وهذا يدحض آراء بعض من يقول بان الدلتا كانت لفترة طويلة مناطق مستنقعات^(٢) .

كذلك كانت الدلتا متميزة بنمط لاستخدام الأرض الزراعى أقرب للزراعة المختلطة بوجود مجموعة مكونة من الزراعة التقليدية والرعى ، والمزارع التجارية^(٣) .

ومن الاحداث التى زادت من سكان شرق الدلتا وعدلت من كثافتهم واثقالهم ، ان الحكام بعد غزو الهكسوس ، عملوا على نمو مراكز العمران فى شرق الدلتا والاهتمام بالمنطقة كمدخل شرقى لمصر ، وكثرت مراكز العبادة الدينية فى حواف الدلتا ، وصاحب ذلك تطور اقتصادى فى شرق الدلتا ، وبالتالي تزايد سكانى ، يدل عليه انشاء ١١ مدينة ظهرت لأول مرة زمن الرعامسة ، وعلى ذلك فسكان الدلتا

Butzer, K., 1976, op. cit., p. 92.

(١)

Breasted, J. H., Ancient records of Egypt : IV, Chicago : University of Chicago, press, 1906, pp. 119 ff.

(٢)

Butzer, K. 1976, op. cit., p. 95.

(٣)

لابد وأن يكونوا قد تضاعفوا خلال فترة الدولة القديمة ، ومرة أخرى خلال فترة الرعامسة ، ويرى Bernard أن حوالى ٣٥ مدينة جديدة انشئت فى الفترة بين ٩٥٠ — ٦٠٠ ق.م. حينما جرى الاستقرار لأول مرة فى المناطق الشمالية للدلتا بعد استصلاح بعضها وكذلك بعد أن جرى الاستقرار فى مريوط^(٤) .

ويرى البعض أن الأساس الزراعى للاقتصاد المصرى القديم لم يسمح بظهور مدن كبيرة الحجم السكانى ، ويرى Jones أن تقدير حجم المدن المصرية سكانيا من الصعوبة بمكان ، ورغم ذلك فإنه يفترض أنها كانت تشابه لفئات الحجم للمدن السومرية ، والمدن فى وادى السند والتي تراوحت كلها بين ٧٠٠٠ — ٢٠٠٠٠ نسمة^(١) .

ويرى بترى أن السكان وصلوا الى أقصى عدد لهم فى عصر الدولة القديمة ، وقدر عددهم فى زمن الرعامسة بحوالى ١٠ — ١٢ مليوناً على أساس أن البلاد امتدت الجيش بحوالى ٦٥٠ ألف جندي ، وبعد اضمحلال نفوذ البطالمة تراوح العدد بين ٧ — ٧/١ مليون ويرى أيضا أن نسبة المواليد فى مصر القديمة كانت حوالى ٦٠ فى الألف^(٢) ، وأن ربع هذا العدد من المواليد يموت قبل أن يبلغ سن الالتحاق بالمدارس ، وهذا التقدير خاص للأسرة ١٩ (القرن ١٤ ، ١٣ ق.م.) ويرى أنه من تقدير عدد التلاميذ ونسب المواليد والوفيات يتحتم أن يكون مجموع عدد السكان هو ١٤ مليوناً من الأنفس^(٣) .

(١) Bernard, André, Le Delta Egyptien d'après les textes grecs : I. les confins Libyques. Mem. Inst. Fr. Archéol. Orientale, 41, 1971. pp. 103 f.

(٢) Jones, Towns and cities, Oxford University Press, 1978, p. 19.

(٣) فلندرز بترى — الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة — ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٥ — ص ٧٧ — ٧٩ .

(٤) المرجع أعلاه ، ص ٢٣٢ .

ولا شك ان اعداد السكان — كما سبق ذكره — كانت عرضة للزيادة والنقصان الشديد كما ان بعض ما وصلنا من بيانات بها كثير من الشطط في التقدير ، ويذكر هيردوت ان مصر في الوقت الذى حكم فيه « امازيس » • كان بها الكثير من المدن نتيجة ما جاد به لنيل على البلاد من خير ، فكان بها ١٠٠٠ مدينة آهلة بالسكان • وان كان ديودور الصقلى قدر جملة البلاد بما فيها المدن في نفس الوقت بـ ١٨٠٠٠ ، وارتفع الرقم زمن البطالة الى ٣٠٠٠٠ • وعلى ذلك قدر عدد السكان بنحو ٧ ملايين نسمة (١) •

ويرى « وهيبه » ان شعب مصر قديم ، تمتد أصوله الساللية الى العصر الحجري الحديث في استمرارية فريدة ، رغم الموجات الجنسية الوافدة في عصر ما قبل الأسرات ، لكنها لم تغير من دماء المصريين وصفاتهم العامة • وكانت العناصر الشائعة في مصر هي الحامى والبحر سطرى الشرقى والأرمنى • كذلك يعارض الشطط الذى صاحب تقدير السكان الزائد (٤٠ مليوناً) كذلك التقدير المتسم بالتفريط (٣ ملايين في القرن ٦ ق م •) ويرى ان أقصى عدد سكانى محتمل في مصر القديمة اعتمادا على طاقة الزراعة الحوضية القصوى ، في استيعاب السكان ، وعلى مساحة مصر الزراعية في العصور القديمة ، وهى ٣٠,٠٠٠ كم^٢ هو ١٠٢/١ مليون نسمة ، يضاف اليهم مليوناً من الأنفس هم سكان المدن فيكون اجمالى العدد بين ١١ — ١٢ مليوناً من الأنفس (٢) ، وعلى ذلك واعتمادا على « وهيبه » و « يونتر » فاننا يمكننا القول أنه في ازهى عصور الأزدهار والرخاء المصاحب للنمو السكانى كانت درجة الحضرية في مصر القديمة بين ٨ — ١٢٪ علما بان المدينة بمقاييسها الشائعة اليوم لم تكن موجودة بالطبع ، فان

(١) هيردوت — مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٩ •

(٢) عبد الفتاح وهيبه — مصر والعالم القديم — منشأة المعارف — الاسكندرية — ١٩٧٥ — ص ٣٥ — ٤٠ •

العديد من المصادر يؤكد ان كثيرا من سكان المدن كانوا يعملون بالزراعة ، وان المدن كانت تحوى نطاقا زراعيا داخلا فى حدودها .

وعلى ذلك فان محاولة تقسيم السكان الى سكان ريف وحضر تبعاً لما هو سائد اليوم يقابله صعب جسيمة ، ففى مقابل ما سبق ذكره عن آلاف المدن فى مصر كما ذكر هردوت ، نجد كاتبين آخرين يقرران ان المدين كانت فى مصر قليلة ، وكانت أساسا مدن وظائف ادارية ، ولم تتمثل فيها تنوع الوظائف الذى ساد مدن ما بين النهرين ، مما يوحى بقلّة السكان بها^(٢) .

تقديرات السكان :

كما سبقت الاشارة ، فان هذه التقديرات كما رأينا تتسم بعدم الدقة والجنوح أما الى الأفراط الزائد أو الى التفريط الشديد ، كما ان حجم السكان فى فترة تالية يصيبه التدهور دون سبب ظاهر فى أغلب الحالات بالقياس بفترة سابقة .

وقد أورد « فراج » التقديرات التالية لاعداد السكان فى مصر القديمة فى فترات مختلفة اعتمادا على ما ذكره الباحثون والمؤرخون للفترات المصرية القديمة المختلفة ، ويوضح ذلك الجدول التالى — جدول (رقم ٢)^(١) .

Broek, J., and Webb, J. W., A geography of Mankind, Mc Graw (١)
Hill, New York, 1973, p. 381.

(٢) الجدول من عبد المجيد فراج — الأسس الإحصائية للدراسات السكانية — القاهرة ١٩٧٥ ص ٤٧ .

جدول رقم (٢)

تقدير أعداد للسكان في مصر القديمة في الفترات المختلفة

المصدر	عدد السكان بالمليون نسمة	الفترة
	٣	١٥٠٠ ق.م.
Cognet وهو مخالف لتقدير عالم فرنسي آخر قدر سكان الدلتا بحوالى ٤٠ مليون نسمة في نفس الفترة .	٢٧	١٤٠٠ ق.م.
حسب تقدير ديدور الصقلى .	٧	١٢٢٥—١٢٩٢
حسب تقدير مصطفى عامر سنة ١٩٢٨ وتوصل اليه باعتبار أن تقدير هيردوت لمدن مصر المسكونة في القرن ٦ ق.م. بلغ حوالى ٢٠ ألف مدينة وباعتبار أن متوسط حجم المحلة كان ١٢٠٠ نسمة فيمكن اعتبار أن عدد سكان مصر آنذاك ٢٤ مليوناً أنقصه بمقدار الرابع من قبيل الاحتياط .	١٨	١٠٠٠ ق.م.
	٣	١٠٠ ق.م.
Breseted على نحو ما ورد في كتاب برستد . عن تاريخ مصر .	٧	٣٠ ق.م.

ويتضح من الجدول الوضع المحير لكل من يتصدى لدراسة
موضوع السكان في مصر القديمة .

(١) الجدول من مبد المجيد فراج — الاسس الاحصائية للدراسات
السكانية — القاهرة — ١٩٧٥ — ص ٤٧ .

ومن أحدث الدراسات التي توفرت على دراسة تطور سكان مصر القديمة ، هي الدراسة التي أوردتها بوتزر Butzer بعد أن درس الظروف البيئية المحيطة ، والأحداث والأشعارات التاريخية التي أمكن له الحصول عليها من بين ثنايا الكتابات التاريخية والجغرافية .

وقد استنتج أن سكان مصر تضاعفوا أربعة مرات خلال ١٥٠٠ سنة حتى قمة الدولة القديمة ، باعتبار أن نسبة النمو التي توصل إليها هي ٨٠ في الألف سنويا والجدول التالي يوضح التطور الافتراضي للسكان في مصر القديمة كما تصوره كارل بوتزر (جدول ٣) .

ومن الجدول يتبين التذبذب الذي كان يعترى التوزيع الاقليمي للسكان بين الوادي والدلتا واقليم الفيوم وسكان الصحراء من البدو ، ويمكن أن نلاحظ دور استصلاح الأراضي في الفيوم والدلتا بوجه خاص في زيادة السكان بهما ، والذي طفر بالسكان في الفيوم بوجه خاص في نهاية الفترة التي يوضحها الجدول الى حوالي ثلث مليون نسمة ، مما يشير الى تضاعف السكان نتيجة استصلاح الأراضي بخاصة زمن الدولة الوسطى ، وزمن البطالمة ، كما سبق توضيحه ، ووصل ذلك التضاعف السكاني الى أكثر من ١٠٠ مرة بين ٤٠٠٠ — ١٥٠٠ ق.م . ، وكان نمو وتوسع المحلات العمرانية مواكبا لنمو السكان فيشير نصحي الى أنه أسس بالفيوم زمن البطالمة ١١٤ بلدة وقرية نتيجة استصلاح أراضي المنطقة مما زاد من سكانها (١) .

وفي نهاية موضوع سكان مصر القديمة ، تجدر الإشارة الى دراسة حديثة أخرى قام بها فكرى حسن ، وأوردها بوتزر في دراسته الأخيرة (١٩٧٦) .

وفي هذه الدراسة حدد « حسن » نسبة ١٦ ٪ من جملة الأراضي المزروعة للمباني والمناطق المزروعة بالخضروات والبساتين والكتان .

(١) ابراهيم نصحي — تاريخ مصر في عصر البطالمة — الجزء الثالث الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة ، ١٩٦٦ ، صفحات متعددة .

جدول (٣)

المتطور الافتراضى للسكان فى مصر القديمة ومساحة الأرض المزروعة وكثافة السكان^(١)

الاقليم	٤٠٠٠ ق.م.			٣٠٠٠ ق.م.			٢٥٠٠ ق.م.		
	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
وادي النيل	٨٠٠٠	٣٠	٢٤٠	٨٠٠٠	٧٥	٦٠٠	٨٠٠٠	١٣٠٠	١٠٤٠
الفيوم	١٠٠	٣٠	٣	١٠٠	٦٠	٦	١٠٠	٩٠	٩
الدلتا	٨٠٠٠	١٠	٨٠	٧٠٠٠	٣٠	٢١٠	٩٠٠٠	٦٠	٥٤٠
الصحراء			٢٥			٥٠			٢٥
مجموع السكان بالمليون	٣٥			٨٧					١٥
الاقليم	١٨٠٠ ق.م.			١٢٥٠ ق.م.			١٥٠٠ ق.م.		
	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
وادي النيل	٨٠٠٠	١٤٠	١١٢٠	٩٠٠٠	١٨٠	١٦٢٠	١٠٠٠	٢٤٠	٢٤٠٠
الفيوم	٤٥٠	١٣٥	٦١	٤٠٠	١٨٠	٧٢	١٣٠٠	٢٤٠	٣١٢
الدلتا	١٠٠٠٠	٧٥	٧٥٠	١٣٠٠	٩٠	١١٧٠	١٦٠٠٠	١٣٥	٢١٦٠
الصحراء			٢٥			٢٥			٥٠
مجموع السكان بالمليون	٢			٢٩					٤٩

ملحوظة :

- ١ — مساحة الأرض المزروعة بالكيلومتر المربع •
- ٢ — كثافة السكان فى الكيلومتر المربع •
- ٣ — عدد السكان الافتراضى بالآلاف •

وحدد انتاج محصول القمح على أساس ١٦٥٠ رطلا لكل فدان ، ١٥٦٠ رطلا لكل فدان من الشعير ، وذلك اعتمادا على بردية ويلبور والدراسات الحديثة . وحدد مجموع انتاج الحبوب بحوالى ٢٧ مليون رطلا تنتج سنويا على مساحة ٨٠٠٠ كم^٢ فى وادى النيل والفيوم ، ويستنتزل من هذه الكمية ٤٥ ٪ منها للضرائب والتجارة ، وعلى ذلك فان حوالى ١٥ مليون رطلا تكون تحت طلب الاستهلاك السكانى وحسابا على استهلاك الفرد وهو ١٠٦ — ١٢٣ رطلا للفرد يوميا (وهو مشابهاه للاستهلاك فى أمريكا اللاتينية اليوم) ، فان الحجم الأقصى للسكان الذى يمكن لهذا الانتاج أن يمدده هو ٣٥ مليون نسمة ، ومع ذلك ، فإذا أخذنا فى الاعتبار تذبذب الفيضان ، والأوبئة ، وما الى ذلك ، فان حجم السكان هو ٦٠ ٪ من هذا الرقم ، أو ما يقرب من ٢ مليون نسمة فى وادى النيل والفيوم ، والرقم قريب الشبه به فى تعداد سنة ١٨٨٢ م (١) .

وهناك بعض الاشارات يمكن منها تقدير اعداد السكان فى مصر بصورة تقريبية ، فقد ورد فيما يختص بنفوذ الكهنة ، وتضخم طبقة رجال الدين وممتلكات المعابد أن تلك الممتلكات وصلت فى زمن رمسيس الثالث فى القرن ١٢ ق م ١٨٠٠٠٠ ١٧٤٠٠٠ فداناً ، ١٦٩ بلدة ، ١٠٣١٧٥ خادما ، فى بعض التقديرات ، وذكر برستيد عن بردية هاريس أن هذه الأرقام بلغت ١٠٧٠٠٠ عبدا بنسبة ٢ ٪ من سكان مصر (٢) ، ومعنى ذلك أن سكان مصر آنذاك بلغوا حوالى خمسة ملايين ونصف نسمة .

وعن الحجم السكانى المقارن فى مصر بغيرها مع بقية العالم يذكر « حمدان » أن البعض يقدر أن سكان العالم زمن الامبراطورية الرومانية بنحو ٢٠٠ مليون نسمة ، وأن طاقة التشبع السكانى فى مصر لم تكن تقل عن ١٢ مليونا وأن مصر البطلمية الرومانية بالفعل حوالى

Butzer, K., 1978, op. cit., pp. 77-80.

(١)

(٢) جمال حمدان — مرجع سابق ذكره — ص ٥٥٨ .

١٠ مليون أى أن مصر كانت تمثل ١ : ٢٠ من وزن سكان العالم ، بينما
هى اليوم ١ : ١٠٠ بالكاد^(١) .

وإن كان هناك تقدير آخر ، ويذكر « ماك افدى » أن سكان مصر
فى القرن ٤ ق.م كانوا حوالى ٤ ملايين نسمة بينما سكان العالم ١٠٠
مليون ، وأفريقية ١٦ مليون ومعنى ذلك أن سكان مصر كانوا ١ : ٢٥
من سكان العالم بينما كانوا ربع سكان قارة أفريقيا^(٢) .

(١) جمال حمدان — المرجع السابق .

(٢) Mc Evedy, C., and sarah, The Atlas of the world History from
the beginning to Alexander the great, London, 1970, pp. 60-61.

الفصل الرابع

موضع وموقع محلات العمران المصرى القديم

الموضع والموقع :

إذا جاز لنا أن نستعير من مكونات جغرافية المدن الحديثة ، محاولين تطبيقها على المحلات المصرية القديمة ، فإننا نجد أن أبرز خصائص الموضع للمحلات الريفية أنها مواضع تلالية ، تحسبا لأخطار الفيضان ، سواء أكان ذلك بالقرب من النهر والمجارى المائية أم بعيدا عنهما ، وقد تمثل ذلك فى « الأرضين » أى الوادى والدلتا وهو الاسم الذى أطلقه المصريون على بلادهم . والملاحظة الهامة فى مواضع المحلات ، أنه بينما احتلت مواضع محلات الأحياء ، الأرض السوداء فى الوادى والدلتا ، احتلت مواضع محلات الدفن المناطق الهامشية عند حافة الوادى قرب الصحراء ، ولذا فليس من المستغرب أن معظم ما خلفته مصر القديمة خرج من هذه المواضع (١) .

كذلك كانت المواضع الريفية للمحلات تختار بحيث يسهل التعاون فى الدفاع عنها وحمايتها من المعتدين عليها ، أو من خطر الفيضان ، وحيث يقل النطاق الزراعى حولها فإنها — كما هو الحال فى مصر الحديثة — تختار المواضع المجربة والجبلية والبور لاقامة المحلة عليها ضنا بالأرض الزراعية أن تستخدم استخداما غير منتج . وقد وصف « هيرودت » مواضع المحلات المصرية وصفا معبرا اذ قال : انها تظهر وقت الفيضان فوق الماء وتكاد تشبه الجزائر الموجودة فى بحر ايجيه

(١) جون ولسون — الحضارة المصرية — ترجمة احمد فخرى —
مجموعة الالف كتاب — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥٥ ،
ص ٤٦٤ .

ولذا ينتقل المصريون بمراكبهم ليس فقط في مجرى النهر ولكن أيضا في وسط السهل^(١).

وفي كثير من الأحيان فإن اسم المحلة العمرانية يشير الى خصائص الموضع ، ومن ذلك مدينة الفيوم (شُدت بالمصرية القديمة) اذ أن معناه « المسترده » أى أن موضع المدينة مسترد من منطقة كان يغمرها الفيضان ، وبعد بناء أمنمحات الثالث سدين أحدهما عند اللاهون والآخر عند باهو ، أقيمت الفيوم على الجزء المسترد الذى كان مغمورا من قبل^(٢).

كذلك تتمثل أهمية الموضع والموقع معا في حالة مدينة « منف » اذ بالإضافة الى خصائص الموضع الطبيعية لمنف قرب قمة الدلتا ، فإن الملك مينا أضاف للموضع جسرا لحماية المدينة من الغرق ، بإنشائه ثنية جنوب « ممفيس » بواسطة بعض السدود ، وجفف المجرى القديم ، واستمر من بعده في تدعيم الثنية لكي ينساب النهر في مجرى محدود لأنه اذ اجتاحت النهر الجسر هدد ممفيس بالغرق ، وأكثر من ذلك فإن الملك ، بعد انشائه المدينة على الجزء المجفف ، أحاطها بلسان مائى يحدها شمالا وغربا ويستمد مياهه من النيل ، وكان النيل يحدها شرقا وذلك امعانا في حماية المدينة لا سيما من خطر الليبيين في انغروب^(٣).

وينتضح تفاعل الموضع مع الموقع في أن موضع منف هو أنسب المواضع توسطا للتحكم في شمال وجنوب البلاد وسهولة الحركة والوصول سواء الى الدلتا ، أم الى الوادى وهو تفاعل لا تزال عاصمة مصر الحالية تبرزه وتؤكدده ، كما أبرزته قبلها أسلافها الثلاثة .

(١) هيردوت — هيرودوت — ترجمة محمد صقر خفاجة — دار القلم — القاهرة ١٩٦٦ صفحات متعددة .

(٢) فلندرز بترى — الحياة الاجتماعية في مصر القديمة — مرجع سابق ، ص ٣٠٤ .

(٣) هيرودوت — مرجع سبق ذكره — ص ١٠ — ١٢ .

على أية حال ، فإن الموضع لم يكن يختار دائما اعتمادا على عوامل جغرافية ، بل ان التاريخ المصرى يبرز لنا — خاصة فى مواضع المدن — أن بعضها كان مواضع غربية وشاذة • وعلى سبيل المثال ، فاختيار اخناتون لموضع « آخت آتون » كان المعيار لاختيار الموضع انها كما عبر اخناتون : « أرض لم تمس من قبل » أى أن موضعها بكر ، ورغم ذلك لم يخل موضعها من السمات الجغرافية ، فقد أراد اخناتون لها الحماية الطبيعية وليس بناء أسوار تتنافى مع ما يعتقد فيه بالنسبة للاله الجديد ، لذا أرادها محمية طبيعيا ، أى كما عبر ، تغلفها الجبال ، وتقوم هى فى مكان سهلى يهبه الى الاله آتون^(١) •

ومن أبرز الخصائص التى كان يبرزها الموضع هو الحماية ، وقد تجلى ذلك خاصة فى مواضع المدن المحصنة لا سيما فى النوبة اذ أختيرت لها مواضع جبلية وعرة تسهل التحكم فى النهر والمنطقة التى حوله والتى تسلكها الجماعات بين مصر والنوبة ، وسيأتى تفصيل ذلك عند الحديث عن المدن المحصنة فى النوبة •

وكانت مواضع المدن الاقليمية وعواصم النومات تختار بحيث يسهل اتصالها باقليمها وعادة ذات مواضع تعد نيلية مباشرة •

وفى الحالات التى كانت تتباعد فيها المحلات بانتظام على مسافات متقاربة ، نجد أن الموضع الذى يشذ عن القاعدة ، كان يعكس بوضوح خصائصه الفريدة • من ذلك أن المنطقة كثيفة السكان الى الشمال من طيبة ، كانت عواصم النومات والمدن تتباعد بها بصورة منتظمة ، وشذ عن ذلك موضع قفط Gebtyu لأن الموضع يتحكم فى مدخل وادى الحمامات مصدر الأحجار ، وأحد الروابط الرئيسية مع البحر الأحمر ومناجم الذهب^(٢) •

Johnson, p., cit., pp. 84-85.

(١)

O'Connor, D., op. cit., p. 689.

(٢)

وعلى طول التاريخ المصرى ، كان التفاعل باديا بين الموقع والموقع ، لذلك ليس غريبا أن أول العواصم المصرية فى بواكير تاريخها وقت الانقسام الى مملكتين كانتا متباعدتين تماما احدهما « بوتو » فى أقصى الشمال ، والأخرى المدينة التوأم نخب ونخن فى أقصى الجنوب ، وربما كان ذلك التباعد مقصورا فى إطار تفاعل الموقع مع الموقع ، اذ رؤى أن تكونا بعيدتين نسبيا عن الحدود بين إطار كل من المملكتين ، تلك الحدود التى كانت قريبة من موقع منف فى عصر ما قبل الأسرات ، وكان بها كثير من الاشتباكات والغارات والتهديدات^(١) .

(١) مصطفى عامر — مرجع سبق ذكره ص ٥٩ — ٧٤ .

الفصل الخامس

التخطيط العمرانى وأبعاده فى مصر القديمة

التخطيط العمرانى فى مصر القديمة :

لا شك أن الحديث عن التخطيط العمرانى فى مصر القديمة بمفهومه الحديث فيه كثير من المبالغة العلمية ، لذلك يجب أن ننظر الى ذلك التخطيط الموعول فى المقدم ، فى ظل معطيات البيئة الطبيعية فى ذلك الوقت من ناحية ، والامكانات البشرية الفنية المتاحة للمصريين آنذاك من ناحية أخرى •

واذا ما أخذنا ذلك فى الاعتبار ، فلا شك أن أول أنواع التخطيط العمرانى قد تمثل فى استجابة المصرى القديم لطابع بيئته الطبيعية ومحاولته انشاء أنماط عمرانية تتناسب تلك البيئة سواء فى مواضع المحلات أو استخدام الأرض عموما •

واذا ما حاولنا تلمس البدايات التخطيطية المصرية القديمة لوجدنا أن بقايا مرمده بنى سلامة ، تعد بتخطيطها الأولى المتمثل فى أكوأخها الموضوعة على طول صفين على جانبى قناة ، وشوارع ضيق جدا يتجه من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى بعرض خمسة أمتار وطول حوالى ٨٠ مترا ، تعد أول محاولة تخطيطية فى التاريخ المصرى القديم^(١) كذلك تعطى مساحة هذه المحلة التى كانت حوالى ٤٠٠ × ٦٠٠ ياردة فكرة تخطيطية أولية ، وقد عثر من عصر ما قبل الأسرات أيضا على آثار مدينة هيراكونبوليس وكانت أبعادها ثلاثة أرباع فى ربع ميل

(١) محمد حماد — تخطيط المدن وتاريخه — الطبعة الأولى — القاهرة — ١٩٦٥ ، ص ٥٧ .

وقد أحيطت بسور من اللبن^(١) ومن المحاولات التخطيطية الباكورة في مصر احاطة معظم المحلات بسياج ، ثم أصبحت تحاط بسور من اللبن — وذلك قبل أن تتحرر منه فيما بعد •

أما التخطيط العمرانى بمعناه الأكثر نضجا ، فربما يتمثل الى حد ما فى آثار الدولة القديمة على قلة آثار المدن بوجه خاص • ويرى « عصفور » أن المدن فى مصر القديمة كانت تتخذ شكلا عاما ، ولكن دوام التطور داخل الاطار العام للمدينة لم يخضع لرقابة دقيقة بل كثيرا ما كان يتم كيفما اتفق مما يجعل المدينة بالتدريج ، تتخلى عن تخطيطها الأول • ولم يشذ عن ذلك سوى المدن المنشأة بواسطة الحكومة مثل قرى العمال ، والقلاع والعواصم الجديدة مثل عاصمة اخناتون ، كذلك يلاحظ أن منازل الدولة القديمة عموما كان يتحكم فى تخطيطها واختلافها فى عدد الحجرات والحجم مكانة أصحابها •

ويشير Gallion ، Eiser الى أن مدن مصر القديمة التى شيدت فى الألف الثالثة ق.م • كانت تشيد بأمر فرعون ، وروعى فى تخطيطها اسكان الحرفيين والصناع والبنائين والعبيد فى محلات مجاورة لمناطق البناء وخاصة عند بناء المقابر الملكية ، أما عن تخطيط المبانى ، فقد كانت المساكن طبقا لرأيهما أيضا ، تبنى باحكام حول أفنية داخلية ، وكانت ارتفاعات المبانى متناسبة مع عرض الشوارع ، وكان أغلب المساكن من طابق أو طابقين • وكان يعنى بالنواحي الصحية للغاية ، كما كان هناك نظام للصرف الصحى التحتى يمتد حول المدينة ، كما أن هناك بعض الدلائل على ربط بعض المساكن بخطوط ومجارى الصرف^(٢) •

(١) محمد أبو المحاسن عصفور — التخطيط العمرانى فى مصر القديمة — مجلة كلية الاداب — جامعة الاسكندرية — المجلد السابع عشر سنة ١٩٦٣ — مطبعة جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٤ ، ص ٨٩ — ٩٠ •

Gallion, A., & Eiser, S., The urban pattern, New Delhi, 1969, (٢) pp. 6-7.

ولكن تخطيط مناطق المعابد بالمدن كان يفوق بكثير تخطيط منازل ومدن الأحياء ، وعلى سبيل المثال نجد ذلك فى معابد طيبة وآثارها ، وخاصة فى الطريق الاسطورى لتماثيل أبى الهول فى طيبة وسياسج المعبد الواسع الذى يزيد عرضه على ثلث ميل وطوله عن نصف ميل • كذلك مما يدل على انحراف تخطيط المدينة عن الخطة الأصلية ، أنه قد تمثل فى تل العمارنة بعض الدلائل على وجود منطقة متدهورة Slum area رغم قصر عمر المدينة أساسا (١) •

ونلاحظ أنه مما كان يدعو الى التخطيط العمرانى وتخطيط المدن خاصة ، أن كثيرا من المدن كان يرتبط بالنواحي الجنائزية كما نعلم • وكانت المدن توقف أحيانا على بعض المعابد وتقوم على خدمتها ، ومن ذلك أن أحد أبناء الملك خع اف - رع (خفرع) باني الهرم الثانى من الأسرة الرابعة ، أوصى باثنتى عشر مدينة على الأقل لتكون وقفًا جنائزيا لهذا الغرض • وتصبح هذه المدن والأراضى ملكا للكهنة وخلفهم من بعدهم (٢) ، والتي كانت تخطط بالطبع طبقا للغرض الذى وقفت من أجله وتجلت الاستخدامات التى تخدم الأغراض الدينية فى استخدام الأرض بها •

وقد سبق ذكر ان بعض الكتاب مثل « ولسون » يشككون فى وجود مدن فى مصر ذات حجم معتبر ، وكبير بالمفهوم الحالى للمدينة ، وربما كان مرجع ذلك لسيادة العمران الريفى فى جزء كبير من منطقة الشرق الأوسط والأدنى القديم ، حين كانت القرية هى اوسع انماط العمران انتشارا بعد سيادة الزراعة ، ولذا كانت بدايات التخطيط العمرانى الأولى المتمثلة فى القرى الأولى بادية فى مصر والشرق الأوسط وذلك حوالى ٢٥٠٠ ق.م واستخدم فى بنائها الطين والنباتات ثم اللبن (٣) •

Ibid., p. 6.

(١)

(٢) محمد حباد - مرجع سبق ذكره - ص ٦٩ •

(٣) Flannery, K. V., The origins of village settlement type in Meso-America and the Near East in ucko, p.; Tringham, R., and Dimbleby, G., op. cit., p. 23.

وعلى ذلك لم يكن التخطيط العمرانى مهتما بالمدن الا بعد توحيد مصر وقيام حكومة مركزية قوية تقوم فى عاصمة كبرى تمثل أكبر محلاتها ، كما رأينا فى طيبة فيما بعد والتي زاد سكانها عن ربع مليون نسمة فى القرن ١٤ ق. م. (١) .

ويمكننا أن نتبين من شرح وتحليل مكونات مورفولوجية المدينة ، فى عواصم مصر الكبرى الكثير من أوجه التخطيط الحضرى .

أما عن تخطيط العمران بمعناه الواسع من تنظيم للأراضى واستخدام الأرض فلا شك أن تنظيم شئون الزراعة وحفر الترعى والقنوات وإقامة جسور الأحواض وتنظيم الرى الحوضى تعد كلها مشاهد على براعة المصريين فى ذلك المجال ، ومن أمثلة وجود دلائل التخطيط العمرانى للمحلات والأساس الاقتصادى القائم عليه ذلك العمران ، ان المحلات العمرانية فى الدلتا كانت أكثر تشتتاً منها فى مصر العليا كاستجابة لطبيعة الايكومين فى كل من القسمين وضيقه فى القسم الأخير . كذلك كانت حركة العمران والتخطيط العمرانى الشامل كانت تختلف باختلاف الظروف الطبيعية بين الدلتا والصعيد (٢) .

ولعل من أكبر مشروعات التخطيط العمرانى فى مصر القديمة ، تلك التى قام بها سنوسرت الثانى فى أمور الرى والزراعة بالفيوم وتشهد قرية العمال هناك على أبعاد تخطيطية واضحة ، وكانت للعمال الذين بنوا هرم ذلك الملك هناك . وكانت جهود أمنمحات الثالث مكتملة لأعمال سلفه التخطيطية فى مجال استصلاح الأراضى ، وبناء الجسور لتحديد البحيرة الطبيعية التى بالفيوم وشيد القناطر عند هواره ، وشيد الترعى وبنى الكثير من المعابد مثل معبد مدينة شدت (الفيوم الحالية) . وكان النشاط الاقتصادى هناك دافعا للتخطيط العمرانى وانشاء المبانى والمعابد ولا سيما « اللابرننت » الذى أسهب اليونانيون فى وصفه .

Everson, J. A. & Fitzgerald, B. P. op. cit., p. 12.

(١)

Butzer, op. cit., 94.

(٢)

وكان لهذه المشروعات آثارها الديموجرافية فزاد السكان ، لأنه نتيجة مشروعات التخطيط العمرانى والزراعى زادت المساحة المستصلحة آنذاك فى عهد الدولة الوسطى بحوالى ٢٧٠٠٠ فدان مما دفع لتخطيط مدن جديدة علاوة على ما كان قائما من قبل .

كذلك يجب أن نلاحظ أن تخطيط العمران بعامته وتخطيط المدن بخاصة كان فى كثير من الأحيان استجابة لآغراض متنوعة ، ومن ذلك أن تخطيط بعض مناطق ومدن شرق الدلتا كان استجابة لغزو الهكسوس ، بل أن نمو العمران فى شرق الدلتا نما نموا كبيرا وكما يذكر Butzer كان دافعا لإنشاء النوم (١٧) فى الأسرة (١٨) والنومات من (١٨ - ٢٠) خلال الأسرة (٢٢) وصاحب ذلك النمو والتخطيط العمرانى تخطيط ١١ مدينة جديدة ظهرت لأول مرة فى زمن الرعامسة ، مما يدعو الى افتراض تضاعف سكان الدلتا مرة خلال فترة الدولة القديمة وأخرى خلال فترة الرعامسة . ومما يدل على اختلاف الظروف ، أنه بينما شهدنا تطورا وتخطيطا عمرانيا فى منطقة الفيوم أبان الدولة الوسطى ، وتطور عمرانيا فى شرق الدلتا أبان الدولة الحديثة ، نجد أن التخطيط العمرانى عاد مرة أخرى الى مصر السفلى والفيوم وأيضا الى شمال الدلتا زمن البطلمة ، وقد أقيمت حوالى ٣٥ مدينة - جديدة فى الفترة بين (٩٥٠ - ٦٠٠ ق.م) حينما جرى الاستقرار لأول مرة فى المناطق الشمالية فى منطقة مريوط وبعض الأجزاء الشمالية^(١) .

وفى نهاية موضوع التخطيط العمرانى يجب أن نشير الى نمط آخر من التخطيط الحضرى والعمرانى هو ما تبين عنه مواضع محلات الحماية والحصون فى أرجاء مصر وهى التى توضح الاستجابة الثامة لابعاد البيئة الضيقة وخاصة فى النوبة فى تخطيط تلك المحلات .

وتبقى حقيقة متفردة ، وهى أنه على عكس الكثير من الحضارات القديمة ، فإنه لم يبق ما يدل على أبعاد التخطيط العمرانى فى مصر القديمة ، والغريب أننا نستقى كل ما يخص محلات الأحياء ونشاطاتهم من محلات الموتى ومقابرهم وهو أمر فريد يزيد الموضوع صعوبة •

ومع ذلك ، ورغم غياب العديد من الشواهد المادية الحية ، فلا شك أن المحلات العمرانية التى أنشأها المصريون كانت موائمة للبيئة التى عاشوا فيها وتعكس فى نفس الوقت مقدرة فنية عالية قادرة ، وهى التى استطاعت أن تقيم الشواهد الحضارية الباقية التى لا تزال حية حتى اليوم •

الباب الثاني

شخصية المدينة المصرية القديمة

الفصل السادس : المدينة المصرية القديمة وتميزها عن مدن الحضارات الأخرى •

الفصل السابع : مورفولوجية المدينة المصرية القديمة •

الفصل الثامن : تركيب المنزل المصرى القديم وتخطيطه •

الفصل التاسع : مجتمع المدينة المصرية القديمة •

الفصل العاشر : التركيب العرقى فى المدينة المصرية القديمة •

الفصل الحادى عشر : تباعد المدن فى مصر القديمة •

الفصل الثالث عشر : اقليم المدينة المصرية القديمة •

الفصل السادس

المدينة المصرية القديمة وتميزها عن مدن الحضارات الأخرى

المدينة المصرية القديمة وأوجه الاختلاف عن مدن الحضارات المجاورة :

يثور جدل كبير بين العلماء فيما يختص ببذور الحضرة ، ودرجتها ، وعلاقتها في منطقة الشرق الأدنى القديمة ، بل أن البعض مثل « ولسون » Wilson يشكك تماما في وجود مدن في مصر بالمفهوم الحديث ، وذلك بمستوى وحجم السكان الذي نعرفه في المدينة الحديثة •

غير أن الثابت أن المدينة المصرية ، من حيث خطتها ومورفولوجيتها كانت تختلف تماما عن غيرها من المدن القديمة •

فعلى سبيل المثال ، نجد أن المدينة في بلاد ما بين النهرين ، كانت عالما قائما بذاته ، ومنفصلة عما حولها • أما في مصر الفرعونية ، فإنها لم تكن كذلك ، ولذا لم تكن المدينة المصرية القديمة كبيرة السكان كالمدينة المراقية القديمة ، لأن الأخيرة كانت شبه دولة City State كذلك كانت المدينة المصرية تقوم بوظيفة السكن ، والاجتماع والاختلاط والوظائف المتنوعة للخدمات ، أما وظيفة الحماية ، التي كانت أظهر الوظائف في المدينة العراقية القديمة ، فإن البيئة الطبيعية المصرية تكفلت بها من صحراء وتلال ، والتي مثلت السور الحقيقي حول مصر كلها وعلى ذلك فلم تكن المدينة المصرية بحاجة الى السور الذي مثل مظهرا مورفولوجيا أساسيا في خطة المدينة العراقية •

ومن الجدير بالذكر ، أن العقيدة المصرية والاعتقاد في الملك — الآله — ، كان لها دورها الطاغى على خطة المدينة ومورفولوجيتها ، فالمعبد دائما يتوسطها ، أما السور فلا أهمية له ، إذ أن اعتقاد المصرى

في الملك الاله بصورة مطلقة ، وانه هو حاميه ومنقذه ، جعل مسألة قيام المسور ليست واردة ، وأكمل هذه الصورة العزلة النسبية التي ميزت المعمور المصرى فترة من الزمن وحماية ذلك المعمور في معظم الجهات بالصحراء • ولذلك نجد أن فرعون — وليس اله المدينة — هو الذى كان المجتمع يتجسد في شخصه ويقوم بحماية المدينة وغيرها من المدن (١) •

وعلى ذلك ، فتميزت المدينة المصرية عموما بمظهرين يختلفان عنها في مدن آسيا القربية ، أولها غياب السور عموما ، والثانى ، أنها لم تكن تبني حول قلاع وحصون ، كما كان الحال في المدن الآسيوية ، وكانت المدن المصرية عموما غير محصنة ، وفي حالة المدن المصرية ذات الأبواب ، فان هذه الأبواب لم تكن تغلق في الليل ، كما أن مساكن المدينة المصرية متناثرة ، ولا تتجمع ذلك التجمع والتعند الذى تفرسه وظائف الحماية بصرامة في المدن الأخرى الأجنبية ، ولذلك وجدت للمدن المصرية عدة ضواحي suburbs مثلما كان عليه الحال في العمارنة ، وهذا أيضا غير مثابه لما كان عليه الحال في مدن آسيا القربية (٢) •

ومن استعراض عديد من الدراسات الأثرية ، نجد أن أكثر الاثريين ، يجعل قيام المدينة وتطورها في سومر سابقا لها في مصر بعدة مئات من السنين (٣) • ولكن وجه الاختلاف كما سبق بين المدينة المصرية الأجنبية ان الأولى كانت ذات ارتباط متعدد بالمناطق الريفية التي حولها لأسباب دينية في المقام الأول واقتصادية وهو ما لم يوجد في حالة المدن الدول في المناطق القربية من مصر والتي كانت معاصرة لها •

ورغم أهمية الدين في قيام المدن المصرية وأهميتها ، فقد كانت التجارة حتى في حالة المدينة النيوليتية الأولى التي انتقلت من دور

(١) لويس مفورد — مرجع سبق ذكره — ص ١٤٦ •

(٢) Jonson, P., The civilization of Ancient Egypt, London, 1979, p. 98.

Ibid, p. 232.

(٣)

— ٦٥ —

القرية الى دور المدينة ، كانت بحكم موقعها مراكز تجارية ، أى أن التجارة هى التى حولت بعض القرى الى مدن ، ومن أمثلة هذه المدن قفط (ثا - بونت - نثرت) التى قامت لاستقبال تجارة البحر الأحمر عن طريق وادى الحمامات ، وأبيدوس (تا - ور) أو العراة المدفونة الحالية ، التى قامت لاستقبال التجارة الليبية وتجارة الواحات (١) .

(١) محمد السيد غلاب - البيئة والمجتمع - الاسكندرية ، سنة ١٩٥٥ ص ٣٣٣ - ٣٤ .

الفصل السابع

..مورفولوجية المدينة المصرية القديمة

على الرغم من ان استعادة احدى مكونات — جغرافية المدن الحديثة لتطبيقه على المدينة المصرية القديمة بعد اجراء جزاها arbitrary الى حد ما ، ولكن لا شك ان المدينة المصرية القديمة — رغم عدم اكتمال الصورة المورفولوجية عنها — تبين عن كثير من المظاهر التي تعالجها مورفولوجية المدينة الحديثة * ويختلف الباحثون في جغرافية المدن في معالجتهم للمورفولوجية الحضرية فمنهم من يهتم بالمدينة من زاويتين ، الأولى علاقتها بغيرها في نطاق ما ، والثانية دراستها هي ذاتها في منطقتها دراسة تفصيلية عادة ما تعنى المورفولوجية^(١) .

ويحدد دافيز Davies نموذجا ثلاثيا للمورفولوجية يتضح في البيئة ممثلة في الموضع والموقع ثم أنشطة الخدمات بالمدينة ، ثم المورفولوجية ممثلة في المبانى ومادة البناء أساسا^(٢) .

بينما يدرس « وهبية » المورفولوجية من خلال الخطة ، وأشكال النمو ، والتركيب الداخلى ، والتجمع المدنى^(٣) .

ولما كانت التعريفات السابقة خاصة بالمدينة بمفهومها الحديث ، فأننا سوف نتبع في دراسة مورفولوجية المدينة المصرية القديمة أسلوبا وسطا بين هذه المناهج ، وذلك في ضوء المادة المتاحة هنا .

فاذا ما حاولنا استقراء الوضع في اقدم المدن المصرية ونعنى بها

(١) Carter, H., The study of urban geography, Arnold, Bnetol, 1974, p. 8.

(٢) Davies, W., Approaches to urban geography: An overview, in Carter, H., & Davies, W., eds. urban essays, London, 1970, several pages.

(٣) عبد الفتاح وهيبه — في جغرافية العمران — بيروت — ١٩٧٣ ، ص ٢٣٩ .

عواصم مملكتى ما قبل التاريخ نجد أن كل مملكة كان لها عاصمتان واحدة منهما تمثل المركز السياسى ، والأخرى الدينى فى المملكة . وكانت مبانى كل واحدة تعكس تلك الوظيفة بلا شك . وكانت هذه العواصم هى « نخب » ، نحن « لمملكة الجنوب » ، « دب » ، « بى » لمملكة الشمال . وفى هذا الوقت الباكر ، فإن الحديث عن التركيب الداخلى يعنونه العديد من الصعاب يكمن جلها فى أن « البقايا » الدالة زالت من الوجود بحكم المادة الرخوة التى كانت تبنى منها مبانى المدن . ولكن بعد ذلك ، نجد أن العواصم المصرية الاحدث تميزت بمبان معينة ، تمثل ادارات الحكومة وكان احدها للوزير الذى يباشر مهامه من العاصمة ، ومن أهم هذه المبانى الادارية ، التى كانت أكبر من هروعها فى البلاد ، مبان معينة مثل بيت المال وهو بمثابة وزارة المالية اليوم .

كذلك كان من المبانى الهامة « المخازن المركزية » وهذه كان لها أهميتها فى خزن الفائض الذى كان سبب حياة المدن ، وكان هناك مخازن تميز التركيب الداخلى للمدن الأصغر . ومن الادارات الحكومية أيضا ادارة تعداد الاملاك ، للأموال والمواشى ، وكان ذلك التعداد يجرى كل عامين ، ثم أصبح يجرى كل سنة . وادارات الهيئات الملكية التى تشرف على الأراضى والهبات التى تمنح لمن يقدم خدمات خاصة للملك . وادارات الأشغال التى كانت تقيم المعابد والاهرامات والأعمال العامة كالسدود والترع والقلاع ومبانى الحكومة (ويمكن أن نشبهها اليوم بوزارة الأشغال أو الاسكان أو التعمين) .

كذلك كان هناك ادارات للبعثات الخارجية ، وللتعدين ، وكان هناك ادارة للتسجيل والتوثيق ، وادارة خاصة للوثائق الملكية^(١) .

(١) عبد المنعم أبو بكر — النظم الاجتماعية فى مصر القديمة — فى تاريخ الحضارة المصرية — وزارة الثقافة — مرجع سبق ذكره — المجلد الاول — العدد الثانى — ص ١١٠ — ١٦ .

هذا عن المباني العامة ، وكانت تتوسط المدينة وتحيط بالقصر الملكي لتسهيل الأمور ، وكان لابد من مباني تكميلية تتمثل في المباني التي تساعد على تسيير الحياة اليومية للناس ، ممثلة في محلات الجزار ، والمخبز ، ومباني التحنيط (والتي كانت في أطراف المسدن وأحيانا كثيرة كانت مباني مؤقتة) .

وفي قليل من الحالات سورت المدينة ، ولكنها كانت عموما غير مسورة بعد أن أثرت عقيدة المصري القديم بالنسبة للملك الاله والذي يحميه من كل الاعداء ولم يعد هناك ما يخيف ساكن المدينة وهو يستظل بحماية الاله ، فاختفى السور وهو أحد المظاهر المورفولوجية الاختلافية مع المدن في المناطق الأخرى كالعراق مثلا^(١) .

والأسوار في المدن المصرية كمظهر مورفولوجي عرفت في فترة ما قبل التاريخ حيث كانت من الطوب وتشير الدلائل الى ان المسدن وقتها كانت مستديرة أو بيضاوية ، ومحاطة بأسوار ومزودة بدعائم . ويرى « ممفورد » ان مدينة « الكاب » كان يحوطها سور مربع يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ١٦٠٠ قدما ، وكان يتقاطع مع سور مدينة أخرى أكثر بدائية ويحيطها أيضا سور .

وطبقا لآراء « ممفورد » فان نجاح الحكم في بداية الأسرات على أساس الاعتقاد الديني والديوي في الملك الاله كان له أثره في تغيير مورفولوجية المدينة ، التي فقدت أحد مظاهرها فيما بعد ونعني به السور ، كذلك كان لهذا الاعتقاد الديني أثر آخر ، تمثل في وجود مدينة أخرى ملحقة بالمدينة الأصلية ونعني بها مدينة الموتى Necropolis ، وهو مظهر مورفولوجي لم يتطور بهذا الشكل سوى في مصر القديمة^(٢) .

وقد تحكم المناخ وعنصر الجفاف في مصر في عمارة المدن ومورفولوجيتها ، فنجد أن الأفنية كانت دائما عنصرا في العمارة

(١) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٤ .

(٢) لويس ممفورد : المرجع أعلاه ، ص ١٤٧ .

المصرية • ولهذا السبب ظهرت أسطح المباني مستوية طوال العصر الفرعوني ، وكان الطراز المعماري المختار أيضا عاكسا للمناخ وخصائصه ، فأدخل « الصفات » في واجهات المباني ، أو حول الأفنية الداخلية ، وكان ذلك عنصرا لتوفير الظل • كما ان النوافذ الضيقة كانت من صفات المباني لذات السبب ، وصممت المباني بحيث تستقبل الرياح الشمالية ، كما زودت المنازل بفتحات علوية في الأسقف وهى « الملاقف » التى تستقبل هواء الشمال المنعش •

وهكذا كان التصميم المعماري ، كعنصر من عناصر المورفولوجية بالمدينة عاكسا لظروف طبيعية لصيقة بمصر ومناخها الجاف •

وإذا ما أنتقلنا الى تحليل عنصر آخر من عناصر مورفولوجية المدينة المصرية القديمة وهو مادة البناء المستخدمة ، نجد أن المصرى القديم قد حرص على وجود اتساق بين مادة البناء والأشكال المعمارية التى يشيدها ، وذلك منذ بداية استقراره ، ففى البداية كانت المواد بسيطة ، تناسب مساحة المباني الضئيلة بالضرورة ، والتى تتمشى عموما مع ضائكة المحلة العمرانية ، وكان الطمى المادة المتاحة من النيل فى كثير مما شادوه ومنه صنعوا اللبن منذ فترة ما قبل الأسرات وخلطوه بالرمل والتبن ليقوى تماسكه ، وحتى لا يتقلص ويتشقق فيتغير شكله حين يجف^(١) ، وقد ساعد اللبن فى اتساع رقعة العمران ، واعطاء مظهر أفضل للمبنى ، وقد تحسن صنعه وشكله فى الدولة الوسطى ، ومنه صنعت عمارة المباني والمعابد فى البداية على السواء ، ولم يكن قاصرا على طبقة معينة فى المدينة ، وظل سائدا فى عمارة المدن ، ولم يستخدم محروقا الا فى عهود متأخرة • واستخدم الطين كملام مع اللبن كما هو الحال اليوم فى الريف ، وعرف المصريون نوعين من الملائم ، كما أن الجدران كانت تطللى اما بالطين ، واما بخليط من الطمى والحجر الجيري^(٢) ، وكان استخدام الخشب قاصرا على

(١) Lucas, Ancient Egyptian materials and Industries, Arnold (١) London, 1948, pp. 62-64.

(٢) محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٧ - ٤٣ •

بعض أجزاء المبنى ، وواضحة عمارة المنازل بين نقص الخشب^(١) ، والتصميم المعماري ، فظهرت أقبية من اللبن في شكل أنصاف دوائر ، ومع توافر الخشب المستورد ساعد على استقامة السطوح •
أما أنواع مواد البناء الأخرى ، فكان من الطبيعي ان تستخدم الأنواع النادرة والقوية منها في عمارة المدن ، والمعابد بخاصة ، ودور الحكومة الهامة •

وفي الدولة القديمة كان الحجر الجيري هو خجر البناء الرئيسي ، وان اختلف به أكثر المعابد والمنشآت الدينية والمقابر ، واستخدموا معه في منشآت المدينة الجبس كملاط وذلك رغم توافر الحجر الجيري في مصر ، وذلك لقلّة الوقود اللازم لحرق الجير في مصر ، بينما يحتاج حرق الجبس لدرجة حرارة أقل •

أما الجرانيت فاستخدم للتكسية ، والأعمدة ، والعتبات ، والأطر وكان مصدره منطقة أسوان وخاصة جزيرة الفنتين^(٢) •

أما الحجر الرملي فاستخدم بعد ذلك في عهد الدولة الحديثة ، الذي اتاح تسقيف مساحات كبيرة بعكس الحجر الجيري ، ووضح ذلك في ضخامة المنشآت الدينية ومعبد الكرنك شاهد على ذلك •

أما الأحجار الأندر ، مثل الكوارتزيت ، والمرمر المصرى (الكلسيت) والبازلت فكانت أقل استعمالا ، واستخدم الأول في العتبات وغرف الدفن ، والثاني في النواحي الجمالية للمبنى ، والثالث ، في رصف طرق المعابد (لأن معظم شوارع المدن كانت غير معبدة)^(٣) •

والملاحظ ، أن مباني مدن الموتى ، حظيت مع المعابد ، بتنوع في مواد البناء لم تتله مباني الأحياء ، مثال ذلك هرم خوفو من الحجر الجيري ، ومعبد الجنائزى ، الكبير في شرقية كانت أرضيته

(١) جون ولسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩٠ .

(٢) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣ — ٥٥ .

(٣) المرجع أملاه ، ص ٥٥ .

من الدولوريت الأسود ، المقطوعة احجاره من محاجر شمال بحيرة قارون بالفيوم ، بينما كانت مباني الاحياء المدنية من اللبن ، كذلك حفظت سفن خشبية ، وكان الخشب يضمن بالبناء به ، كما كانت أرضيات المعابد من المرمر من محاجر « حتنوب » في الجبل الشرقى قرب تل العمارنة^(١) .

ومما تقدم ذكره ، نرى ان صناعة الطوب واللبن الذى كان شائعاً لدى أصحاب الحضارات القديمة في الشرق الأوسط^(٢) ، كانت من أهم الصناعات لاقامة مباني المدن ، وكانت مقاييس اللبنة المصرية هي ٣٨ × ١٨ × ١٢ سنتيمتراً^(٣) .

ويعطينا « جونسون » فكرة عن تركيب المدينة المصرية ، فيلمح أولاً الى الاختلاف الخاص بمورفولوجيتها وخاصة منطقتها الوسطى التى كان يتمركز بها قصر فرعون والمعبد الرئيسى ، بينما في المدن المعاصرة لها كان يحل بدلها القلعة^(٤) ، كذلك يذكر ان معظم المدن كانت غير محصنة ، واعتماداً على « هيرودوت » يذكر ان قطاعاً كبيراً من سكان المدينة كانت مبانيهم ذات شكل قروى ، كذلك كان للمدن ضوايح خاصة بها ، ومثال ذلك العمارة التى اخذت الشكل الطولى ، وكان لها ضوايح متعددة ، وكانت احياء الطبقة العاملة ذات خصائص مورفولوجية معينة منها بساطة المنازل ، وكانت منازل الأغنياء تتميز بدخول عنصر الحجر في عمارتها ، وذات أطر حجرية ، كذلك كان لها دعائم وأعمدة خشبية^(٥) .

ويؤيد نورثام « Northam » ملاحظة « Johnson » الخاصة بأن القلعة التى كانت تتوسط المدينة القديمة كانت غائبة في المدينة

(١) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره .

(٢) Hodges, H.W.M. Domestic Building Materials and Ancient settlements, in Lucko, p., Tringham, R., and Dimbleby, G.W., eds, op. cit., p. 525.

(٣) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٢ — ٢٧٣ .

Johnson, p., op. cit., p. 98.

(٤)

Ibid., p. 98.

(٥)

المصرية القديمة^(١)، ويذكر أيضا ان المنازل التى شيدت بعد سنة ٢٠٠٠ ق م • كان بعضها متعدد الأدوار مما غير فى مورفولوجية المدينة المصرية ، كذلك كانت بعض شوارع المدينة متسعة بما فيه الكفاية لتجعل سير المواكب الدينية ممكنا ، مما يعكس أثر النواحي الدينية على مورفولوجية المدينة •

وأدى تفاوت طبقات المجتمع الى ان بعض المدن أبانت عن اجزاء متدهورة بين مكونات المدينة المادية والاجتماعية ، فيما يعرف اليوم بالمناطق الفقيرة المتدهور Slum areas ، بينما شغلت منطقة قلب المدينة مناطق القصور والمعابد والمخازن الخاصة بالفائض^(٢) •

وهكذا ، ظهر نوع من التخطيط أو التخصيص للمناطق Zoning سواء فى صورته المادية فى صورة استخدام الأرض ، أو فى هيئته الاجتماعية فى صورة الطبقة التى تشغل المنطقة ، ويذكر « برستد » انه حول قصر فرعون ، فى وسط المدينة ، كانت مباني الحكومة ومنازل الموظفين ، بحسب أهميتهم ، وبالمثل كان تخطيط مدن الموتى وتوزيع المقابر حول مقبرة فرعون بحسب لأهميتهم فى الحياة الدنيا^(٣)، وكانت المباني الضخمة للمدينة العاصمة ذات أثر فى اتخاذ العاصمة مظهرا مبهرًا ميزها عن مدن الاقاليم الأصغر حجما يضاف الى عنصر المباني فى مورفولوجية المدينة ، الحداثى وخاصة فى منف^(٤) •

ويجب أن نشير الى ان مورفولوجية المدينة قد أعثورها التغيير حتى انتهى عهد الفراعنة ، فيشير « نصحي » الى أن المدن التى بناها البطالة كانت ذات شوارع منتظمة ومبانى ضخمة من الأحجار على عكس مدن مصر القديمة^(٥) •

Northam, R., op. cit., pp. 31 - 38.

(١)

Ibid., pp. 30 - 33.

(٢)

(٣) برستد : مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ •

(٤) المرجع أعلاه ، ص ٨٦ — ٨٧ •

(٥) ابراهيم نصحي : تاريخ مصر فى عهد البطالة ، الجزء الثانى ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٧٧ ، ص ٤٠٠ •

أمثلة لمورفولوجية مدن مصرية قديمة :

يمكن لنا أن نعيد تكوين صورة عامة عن المساحة ، والشكل ، والتركيب الداخلى ، واستخدام الأرض فى بعض من مدن مصر القديمة ، وليس ذلك كله ممكنا فى كل مدينة على حدة ، ولكن يمكن أن نلاحظ بعض هذه الجوانب العمرانية ، فى بعض المدن المصرية كما يلى :

مدينة هليوبوليس :

قامت هليوبوليس كأول عاصمة لمصر الموحدة ، ولكنها عاشت بعد ان فقدت أهميتها كعاصمة كمدينة دينية ومزارا مقدسا لقرون عديدة ، ويعنى ذلك أن مورفولوجيتها نمت بالتدريج وان المبانى الرسمية والدينية قد غلبت على شكلها العام •

ومن دراسة بقايا أسوارها نجدها كانت تشغل حوالى ٤ اميل مربعة ، كذلك تعطى المسلات ومواقعها فكرة عن المنطقة الوسطى من المدينة ، والمسلة القديمة هى أقدم آثارها ومما يدل على تطور مورفولوجية المدينة ، ان معبد الدولة الوسطى ، أقيم فوق مبان أقدم منه فى عهد سنوسرت الأول ، وآثار المبانى المتناثرة تعطى فكرة عن قلب المدينة فى فترة من فترات حياتها المتطورة ، ومما يدل على تطور المورفولوجية ، انه بعد ٥٠٠ سنة من اقامة مسلة سنوسرت الأول ، أقام تحتمس الثالث مسلة له بهليوبوليس •

وأضاف العديد من المبانى ، من ذلك مبان حكومية ، وأيضا مسلمين آخرين (نقلا بعد ذلك للاسكندرية) وبعدها استقرت واحدة فى لندن والأخرى فى نيويورك^(١) •

مورفولوجية مدينة منف :

كان انشاء منف عند رأس الدلتا ، معبرا عن اتحاد القطرين من جديد ، وأضاف موضع المدينة قرب النيل وعند رأس الدلتا الكثير من

(١) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٤ - ١٥٦ •

الأبعاد الى مورفولوجيتها ، فكما ورد في الدراسة الخاصة بموضعها عدل « مينا » من خصائص الموضع ، وأنشأ ثنية عندها ، وأضاف لسانا مائيا يحميها من الشمال والغرب وسميت في البداية الجدار الأبيض ، وكان معبد بتاج اله الدولة القديمة الأعظم يتوسط منطققتها المركزية الوسطى ، وقام الملوك المتعاقبين بالاضافة الى مباني هذا المعبد ومباني المدينة^(١) .

وأما عن مساحتها وأبعادها ، فقد نقب الكثير من الآثرين بها ، وتدل الدلائل على ان محيطها بلغ ١٥٠ « استادا » وهو ما يقابل ٢٤٥ ميلا ، وأيد ذلك « فلندرز بترى » بالمقارنة بطول جبانته ، أو مدينة موتها ، الممتدة من دهشور الى أبى صير ، وكان يحيط بها عدة ضواح وقرى وحدائق ملاصقة تفصل فيما بينها وبين مدينة الموتى ، عن جهة الغرب والجنوب ، ومما يدل على تزايد نمو عمرانها ، أن جبانته امتدت بطول ٤ اميال ونصف ، وكان عرضها نصف ميل ، وبينما لا نلاحظ الا اليسير من معالم مورفولوجية المدينة القديمة ، نجد ثروة من المعلومات عن مدينة الموتى ، مثل ما يوجد في « السيرابيوم » ، الذى كانت ترقد تحت أقبية أجساد العجل أبيس ، وهرم سقارة المدرج أقدم بناء حجري في العالم ، بالاضافة الى معابده الأخرى^(٢) .

وتدل بعض الشواهد ، على ان طول المدينة كان ١٢٥ كم وعرضها ٦ كيلو مترات أى أن مساحتها حوالى ٧٥ كم^٢ ، وهى مساحة هائلة في ذلك الوقت . اذا علمنا ان مدينة بهذه المساحة اليوم تعد من المدن الكبرى ، ومن المناطق الوظيفية بالمدينة كان الميناء ، وكان يسمى « برونفر » وفيه تبنى سفن الأسطول ، وبها ترابط فرق الجيش الرئيسية مما يدل على أن قسما من المدينة كانت تحتله الثكنات ، وكانت تصل اليها بعض السفن المحملة بالبضائع الأجنبية ، لذا كانت المخازن والمتاجر مكونا هاما في تركيبها الداخلى ، وتميزت منشآتها بالتعدد والصيغة الأكثر « عالمية » من طيبة الجنوبية ، يدل على ذلك

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٩ — ٧٠ .

(٢) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥١ — ٥٥ .

وجود احياء خاصة بالأجانب (وربما يمكن تشبيها في ذلك بالاسكندرية التى كانت فيما بعد أكثر في احياء الأجانب بها من القاهرة) ، وكذلك كان الوضع في منف المميز بكثرة أحياء الأجانب بها قياسا بطيبة العاصمة الأولى . ويدل على كثرة الأجانب بها وكثرة مبانيهم بالمدينة ، أنه وجد بها معابد لآلهة أجانب غير مصريين ، مما يدل على وجود مناطق خاصة بهم بالمدينة وسيادة الأعراق غير الوطنية بها^(١) ، وذلك مثل معبد الآلهة « عشترت » .

ويرى « بيكى » ، أن من عوامل ضياع معالم مورفولوجية منف استخدام أحجار بقاياها العمرانية في انشاء مباني القاهرة فيما بعد على الضفة المقابلة ، ورغم ذلك فكان اتساع المدينة الكبير شاهدا على عظمتها ، كما لاحظ ذلك عبد اللطيف البغدادى في القرن ١٣ الميلادى^(٢) .

مورفولوجية مدينة طيبة :

لا توجد الا أدلة قليلة تمكننا من الحديث عن ذلك الموضوع وأن كانت المصادر تجمع على كبرها واتساعها ، ويكفى أن نشهد اليوم كيف ان المسافة بين معبديها الرئيسيين الأقصر والكرك تزداد على الكيلو مترين وكانت هذه المنشآت الدينية تشغل المنطقة الوسطى من المدينة على شاطئ النيل ليتمكن نقل المواد الضخمة اللازمة لحركة البناء وتشبيد المعابد والمباني ، وربما يوحى باتساع رقعتها المبنية أنها كانت تسمى مدينة المائة باب ، ويلاحظ أن طيبة رغم طول مدة بقائها كعاصمة مصرية كانت تفقد هذه الصفة أحيانا ، مما يقلل من مساحتها ، وأهميتها كمركز جذب سياسى وإدارى ، وبالتالي قلت وأهملت مبانيها ، ومن ذلك الفترات التى نمت فيها مدن شمالية في الدلتا أو قريبا منها ، أو الفترات التى قامت فيها عواصم أخرى بواسطة الغزاه .

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٠ .

(٢) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٣ .

فلنדרز بترى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥ — ٤٦ .

وكانت من أهم المباني بها بالطبع ، المعابد والدور الحكومية ، كما كانت بها المخازن الرئيسية للحفظ وكانت على نوعين :

الأول : مخازن وصوامع مخروطية مبنية بالطوب تستخدم لتخزين السنابل •

الثاني : حجرات ذات أسقف قبابية ، وتستخدم لخرن الحبوب ، وتغطي أرضية هذه الحجرات والمخازن بطبقة من الحجر الجيري السميك ، منعا لتسرب الفئران (١) •

ويرى بترى أيضا ، أنه في كل مدينة كبرى كانت توجد محكمة ، والتي كانت إحدى المعالم الخاصة بتركيب المدينة الوظيفي ، بل ان وجود محكمة أحيانا كان شرطا لاطلاق لفظ المدينة على المحلة العمرانية (٢) •

وكما يشير «O'Connor» فان البقايا التاريخية ، وامتداد هذه البقايا يدلان على ان مدنا مثل ممفيس وطيبة كانتا كبيرتان في المساحة والسكان بحيث يمكن ان نطلق عليها لفظ مدينة أو مدينة كبرى city بالمقارنة بغيرها ، ويكفى ان المصريين كانوا يشيرون الى طيبة باسم المدينة الجنوبية ، في مقابل الشمالية ممفيس ، وفي ذلك غنى عن بقية التعريفات (٣) ، ولا شك ، ان من ضمن اجزاء مورفولوجية طيبة أيضا كانت الثكنات العسكرية ، التي كان وجودها في المدن الكبرى وعواصم النومات ، ضرورة لامكان تعبئة الجنود ، والتحكم في الموارد البشرية ، بسرعة مثل العمالة الاجبارية ، وذلك في رأى «O'Connor» (٤) •

ويرى سميث «Smith» ان شوارع مدينة طيبة لعبت دورا هاما في اعطائها الشخصية المورفولوجية المفردة ، اذ أن الطرق المستقيمة ، الحجرية المعبدة ، والشوارع التي اصطفت على جانبيها تماثيل

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥ — ٤٦ •

(٢) المرجع أعلاه ، ص ١٠٤ •

(٣) D'connor, D., op. cit., pp. 683 - 86.

Ibid., p. 695.

(٣)

(٤)

أبى الهول ، والتي تصل بين الكرنك والاقصر ، أثرت في توجيه الاحياء المركزية من المدينة^(١) .

مورفولوجية المدن المخططة :

تركت لنا الآثار المصرية بعض أمثلة من المدن « الرسمية » أى التى أنشئت لغرض رسمى حكومى ، ومنها قرى العمال حول المقابر الضخمة كالأهرامات والمنشآت الاقتصادية ومشروعات الإصلاح والعواصم الجديدة ، وفيما يلى عرض سريع لاهمها :

مدينة العمال بالجيزة :

وهذه كانت ذات خطة طولية فى صورة سلسلة من التكتلات أقرب الى صورة المعسكر منها بالمدينة ، وقد عثر هناك على ١١١ غرفة طويلة خالية تماما من أى جهاز أو أثاث ، وكل منها تتسع لنحو ٥٠ رجلا^(٢) ، وكانت المباني من الطوب اللبن ، وبينها حارات صيقة كانت تستخدم أيضا كمصارف للمجارى والمرور^(٣) .

مدينة كاهون :

وهى مثال آخر لقرى أو مدن العمال ، والمحلة كانت ذات سور مربع ، وتنقسم الى قسمين غير متساويين أكبرهما لمساكن كبار الموظفين ، والأصغر للعمال ، وفى هذا القسم الأصغر كان يشقه ١١ شارعاً ، وكان ترتيب المنازل يعكس الطبقة الاجتماعية للموظفين والعمال اذ ان مساحة منزل أحد كبار الموظفين كانت تعادل مساحة ٢٥ منزلاً من منازل العمال^(٤) وكانت المدينة بطول ٤٠٠ متراً

Smith, H. S., Society and settlement in Ancient Egypt, in ucko, p.; Tringham, R. and Dumbleby, G.W. op. cit., p. 216-18.

(١)

(٢) محمد أبو المحاسن عصفور : التخطيط العمرانى فى مصر القديمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد السابع عشر ١٩٦٣ ، مطبعة جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٤ ص ١ .

Gallion, A. B., & Eisner, S., op. cit., 1969, 5 - 7.

(٣)

(٤) المرجع أعلاه ، ص ٩٢ .

وعرضها ٣٥٠ مترا ، وسورها من اللبن ، وكانت المباني الهامة تحدد ملامح مورفولوجيتها ، فقصر الملك يحتل شمال القسم الشرقى الكبير المخصص لكبار الموظفين وحوله منازل عليه القوم ، تمتد على طول طريق رئيسى مستقيم طوله ٢٨٠ مترا ويمتد من مدخل المدينة فى الشرق الى ساحة فى الغرب ، بينما كانت أبعاد منطقة العمال ٢٤٠ × ١٥٠ مترا ، وفيها حوالى ٢٥٠ منزلا ، يتخللها شارع رئيسى من الجنوب الى الشمال عرضه ٩ أمتار ، وتصل به على زوايا قائمة شوارع جانبية عديدة عرض كل منها أربعة أمتار^(١) ، ويمكن دراسة أهمية العلاقة بين المعبد والمدينة فى كاهون كمثال لذلك ، اذ كان هناك معبد كبير للدفن يشكل معلما هاما لمورفولوجيتها ، وتحطم جزء كبير منه ، وعموما تبين المدينة العلاقة الوثيقة بين نشأة المدينة وتعدد تركيبها الداخلى والأهمية التى كانت للمعابد ضمن هذه المورفولوجية^(٢) . ويشير « ممفورد » الى ان المدينة كانت تأخذ الشكل الشبكي المتعامد Gridiron plan ، ويرى أن هذه الخطة كانت غير ملائمة لجو مصر^(٣) ، ولا شك أن مورفولوجية كاهون قد تطورت مع الزمن ، اذ الثابت أنها ظلت مسكونة حتى عصر الهكسوس ، وللمدينة كاهون أهمية خاصة ، اذ أن التنقيب هناك أبان عن مرحلة غير متوقعة من التخطيط على حد قول بترى ، وكانت أبواب المنازل المطلة على الشوارع ذات عقود من اللبن ، ويرى « بترى » أن السور حول المدينة كان يحيطها من ثلاث جوانب فقط^(٤) .

وكان الملوك يكملون أعمال أسلافهم كما فعل ذلك أمنمحات الثالث فى الفيوم^(٥) .

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٢) Kemp, B. J., Temple and town in Ancient Egypt, in ucko, p.; Tringham, R. & Dimbleby, G., op. cit., p. 658.

(٣) جاردنر : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٤) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

(٥) محمد أبو المحاسن عصفور : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ - ٩٤ .

مورفولوجية دير المدينة ، مدينة هابو غربى طيبة :

وهذه كانت عند الضفة الغربية لطيبة ، وحدد موضعها بعض أبعاد مورفولوجيتها اذ تقع في واد منعزل جذب محصور بين قرنه مرعى ، والتلال المتطرفة جنوب هضبة طيبة ، وظلت مسكونة بصفة دائمة نحو ٤٠٠ سنة ، وأدى طول المسافة بين دير المدينة وموقع العمل في بناء المقابر الملكية ، الى ظهور نمط عمرانى تابع لدير المدينة Settlement في صورة أكواخ حجرية في الطريق المشرف على الوادى قرب المكان الذى يجرى به العمل يقضى العمال فيها معظم أوقاتهم •

وكان من أهم ملامحها المورفولوجية ، خطتها المستطيلة ، والتي استطلت أكثر مع الزمن ، كذا السور المشيد باللبن الذى احاطها ، والشارع الوحيد الضيق الذى يخترقها ، وكذا كانت المنازل طويلة تفتح على الشارع الرئيسى ، كذلك مع نموها أخذت شكلا جديدا ، اذ بدأت المنازل تظهر خارج السور ، وكان للسور في خطة للمدينة وظيفة تختلف عن وظائفه في المدن الأخرى ، اذ كان للفصل بين الطبقات التى تألف منها السكان ، وكانت الطبقات الأهم داخل السور ، والأقل أهمية في خارجه ، كذلك لا يسمح بوجود الحيوانات الا خارج السور •

ومن الملامح المورفولوجية ، اتصال المنازل ببعضها ، وكانت ضيقة لا يضيئها ، الا ضوء الشارع ، ومنافذ التهوية في السقف • وتميزت بوجود خزان خارجها يجلب اليه الماء اللازم لحياة المدينة • وتوحى الدراسة المتأنية للمدينة وخطتها انها حظيت بنوع من التخطيط ، والتنظيم والرقابة ، اذ رغم شغلها أكثر من ٤٠٠ سنة الا أن مستوى أرضها لم يرتفع مما يدل على أن منازلها وكان يعاد بناؤها على نفس الأساس السابق^(١) وترجع أهمية مدينة هابو ، وكذا أبعاد مورفولوجيتها الى كونها تعكس فكرة الارتباط بين المدينة والمعبود في مصر القديمة ، اذ كانت المعابد تشكل أهمية خاصة في تركيب المدينة الداخلى ، اذ كانت مقر جنائزى لرمسيس الثالث ، وبها أمثلة جيدة

(١) محمد أبو المحاسن عصفور : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ — ٩٤ .

للمبناى الجنائرية ومما يدل على تطور مورفولوجيتها أنها بنيت على مرحلتين ، احتل المعبد الفترة الأولى وهو نسخة مصغرة من « الرمسيوم » . والمعبد هو نقطة البدء فى التعرف على مورفولوجية المدينة ، فمن هذا القلب وحوله تنتشر المبانى وتنتظم مجموعة من المستودعات ، والمخازن والمتاجر والمكاتب وبعض المبانى الثانوية والمبانى الملحقة ، وكلها مخدومة بشبكة من الشوارع المعبدة ، ومحاطة بسور ضخمة من الطوب . وبها بعض التحصينات التى تعلو ٥٠ قدما ، وكانت المدينة تشغل مساحة (٦ أفدنة) ، وكان هناك بها مساكن للموظفين ، والعاملين بالمعبد بخاصة ، ومبان ادارية ، وحديقة ، ومبان ملكية أخرى . ولم يكن هناك قصر واحد ، ولكن ثلاثة قصور على الأقل ، لاستخدام الملك حين زيارته للمعبد . وكانت تصل لهذه المعابد قنوات ، تصل بينها وبين النيل ، وكانت الأرض تدرج لتصل بين مستوى المعبد ومستوى ماء النيل^(١) . ولوضع أقصى عدد من المساكن فى « هابو » فى المساحة المتاحة ، كان على المعمارى المصرى القديم أن يضعها فى خطوط مستقيمة ، مع جعل مداخلها فى الأماكن الأطول . ويوحى تصميم المبانى والمنازل بوجود مستويين ، يعكسان الطبقات الاجتماعية ، فى شكل صفوف منازل داخلية وخارجية . وكانت هذه التى فى الصفوف الداخلية ، يمكن الوصول إليها من الطرق حول السياج الداخلى ، وهذه التى خلفها ، يمكن الوصول إليها فقط من الشوارع الضيقة والحارات المسدودة Blind Allays المنتشرة بين صفوف المنازل ، وكان عرضها ٥ أقدام فقط ، مقارنة بحوالى ٣٠ قدما فى الشوارع الأوسع . ويوحى هذا التخطيط بأن منازل هذه المنطقة كانت شبه منعزلة ومقطوعة عن غيرها ، وكان هناك طريق يصل بين المنطقة المحصنة ، والمنازل الخارجية ، ربما كان يستخدم من قبل حراس المعبد . أما المنازل القريبة من المعبد فكانت لكهنة والحراس ، وخدم المعبد . ويرى Uphz أن مثل هذه الخطة المدنية ، كانت متكررة فى كل الأمثلة

Uphill, U., The concept of Egyptian palace as a (ruling⁽¹⁾) machine), in ucko, p.; Tringham, R., and Dimbley, G., op. cit., pp. 722-26.

الحضرية التى بها معابد جنائزية ، وأيضا مقابر ملكية وقصور ، حيث كانت تعكس عظمة أصحابها ، اذ أن المنازل الحسنة فى « هابو » كانت أبعادها كبيرة ، وجيدة البناء ، أما الداخلية فكانت أبعادها ٥٣×٢١ قدما ومجموعة أخرى أبعادها ٣٣×٢١ قدما (١) .

مورفولوجية مدينة « أفق آتون » :

لا شك أن هذه المدينة قد أضافت الكثير الى النمط الذى كانت عليه المدينة المصرية القديمة ، وكما يقول « Fairman » أنها توضح أكثر الاضافات العمرانية فى الأنماط السكنية فيما بين المراكز الدينية والادارية (٢) ، وأهمية المدينة تكمن فى أنها بنيت على موضع بكر ، غير مسبوق ، بينما غيرها من المدن كان يقام أحيانا على بقايا شغلت أماكنها من قبل ، والنقطة الثانية ، أنها ولدت مخططة ، أى أنها سابقة التخطيط ، كذلك كانت فريدة فى نوعها اذ أقيمت أساسا من أجل اله جديد ، ولعل هذه الخصائص نفسها تجعلها غير صالحة لأن تجعلنا نعمم الأبعاد المكانية والجغرافية فيها على غيرها من مراكز الحضر فى مصر ، ولكن أهميتها بالنسبة للباحثين أنها تمثل إحدى الآثار النادرة جدا للمحلة الحضرية المصرية القديمة ، ولا شك أن موضعها عند طرف الصحراء كان عاملا فى بقاء بعض ملامحها المورفولوجية .

والمدينة ، تتوسط المسافة بين عاصمتين سابقتين لمصر (طيبة فى الجنوب ومنف فى الشمال) وان كانت أقرب للثانية من الأولى . وتضافرت العوامل الطبيعية والبشرية فى تحديد المدينة بصرامة ، فوجود المدينة فى منطقة سهلية تتسع فى الوسط وتضيق شمالا وجنوبا على طول الضفة الشرقية للنيل ومحمية فى الشرق بجافة الهضبة حدد مساحتها بشئ كبير من الدقة ، وتعاليم اخناتون باقامة علامات تحديدية ، وكذا قسمة الا يبرحها والا تزيد حدودها يوضح لنا اختلافها عن غيرها . لذا فان أهميتها كاحدى العواصم الهامة القديمة

Uphill, U., op. cit., 1972, pp. 727 - 84.

(١)

O'Connor, D., op. cit., p. 681 - 82.

(٢)

أهمية فائقة أكثر من أى عاصمة أخرى كما يقول « Fairman »^(١) وذلك نظرا لأن المساحة التى كانت عليها المدينة لم تزد لأنها كما سكنت فجأة ، هجرت فجأة أيضا ودام عمرها أكثر قليلا من ١٥ عاما .

ولا شك ، ان الدين الجديد كان عاملا هاما فى الأبعاد المورفولوجية الحضرية للمدينة الوليدة . ويذكر « ولسون » ان طولها كان ٨ أميال^(٢) ، بينما يقرر « شكرى » أن طولها ٩ كم وعرضها بين ٨٠٠ — ١٥٠٠ مترا^(٣) ، واذا أخذنا بالقياس الثانى ، فمعنى ذلك أن المدينة كانت ذات مساحة تقرب من ١٥ كم^٢ . ومع ملاحظة ان المدينة كانت منطقة حضرية خالصة ، اذ أن ظهيرها الزراعى كان يوجد فى الضفة الغربية المقابلة لها . أما عن عدم وجود سور لها ، فقد علل ذلك بأن التلال الشرقية قامت بتلك الوظيفة ، كما ان التحرر من القيود الذى كان من صفات الديانة الجديدة ، انعكس على مورفولوجية المدينة وجعلها تخلو من الأسوار .

ويرى « جاردنر » أن مورفولوجية العمارة هذه قد اختلفت جذريا عن غيرها ، ويدلل على ذلك بضخامة مباني الاله الجديد ، من ذلك ان طول المعبد الكبير لا يتون كان ٢٠٠ ياردة ، ويرى أن المباني شيدت بسرعة لتستوعب السكان .

ومن معالم اختلاف تركيب هذه المدينة ، الناتجة عن خصائص موضعها أنها كانت على خلاف المدن الكبرى الأخرى ، توجد مدينة موتاهها فى الشرق (حيث الصحراء) وليس فى الغرب كما اعتاد المصريون الدفن هناك . وعلى ذلك وقعت « أخيتاتون » بين مدينة الموتى الخاصة بها والتي تبعد عنها أربعة أميال فى الشرق^(٤) ، وبين ظهيرها الزراعى عند الضفة الغربية فى الغرب .

(١) Fairman, H.W., Town planning in Pharaonic Egypt, the town plan, Rev., 20, 1949, p. 32.

(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

(٣) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ — ٨١ .

(٤) جاردنر : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٨ .

وتتميزت المدينة الجديدة بعدم تأثرها بالطغيان الكبير للكهنة على تخطيط المباني إذ أن كل شيء « موجه لاتون » .
وطبقا لخصائص الموضع سابقة الذكر ، كان لابد أن تكون المدينة ذات خطة طولية شقتها ثلاثة شوارع رئيسية بحذاء المحور النيل من الجنوب للشمال ، تقطعها في زوايا قائمة شوارع أقل أهمية تصل بينها وبين النهر ، فكان الخطة كانت قائمة الزوايا في اجزاء كثيرة grid plan وكان أهم الشوارع هو الشارع القريب من النيل (الشارع الغربى وكان يطلق عليه الطريق الملوكى) وفي هذا الجزء كان معبد أتون العظيم ، وكذا المباني الحكومية ، المركزية ، كدار المحفوظات ، ومكتب الشئون الخارجية ، ومنازل الكهنة والموظفين وتأثر قلب المدينة بالشكل الطولى ، وكانت مساحته حوالى (١ كم^٢) وكانت الشوارع السالفة تخرقه^(١) .

أما ثكنات الشرطة فكانت في الشرق ، عند القنال له مكان مراقبة أى عدو ، وفي نفس الموقع وجدت ساحة للاستعراض ، أما في أقصى شمال وجنوب المدينة فوجد قصران للملك تختلط بهما منازل أفراد الشعب دون تميز ، وكان ذلك ملمحا جديدا على مورفولوجية المدينة المصرية القديمة . ومن أجزاء المدينة الأخرى كانت قرية العمال أوجى العمال ، الذين كانت مهمتهم حفر المقابر الصخرية ، ولذا تأثر موقع هذا القطاع من مورفولوجية المدينة بالوظيفة الخاصة بساكنيه ، فكان في الشرق أيضا حيث الصخور والتلال ، وكان النحى مربع الشكل ، وبه ٧٤ منزلا ويحيط بالحق فقط سور مرتفع له مدخل جنوبي ، وتتخلله ٥ شوارع مستقيمة متوازية بين الجنوب والشمال أيضا ولكنها قليلة الاتساع . إذ لا تزيد عن متر واحد^(٢) .

وروى في تخطيط الشوارع بالذات أن تبرز ابنة الملوك الملوكى ، لا سيما في الطريق الغربى (الطريق الملوكى) . وهنا تبرز أهمية الشوارع في المدينة كمكون رئيسى في مورفولوجيتها . وفي قلب المدينة

(١) محمد أنور شمكى : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ — ٨٢ .

(٢) المرجع أعلاه ، ص ٨٠ — ٨٣ .

نجد أفخم المباني ومنها المعبد العظيم الذى شغل مساحة (٢٥٠٨٠٠ ياردة مربعة) • كذلك روعى فى استخدامات الأرض بالمدينة بصفة خاصة وجود الحدائق وخاصة حول القصور الملكية ، وتشير بعض المباني التى تؤلف مورفولوجية المدينة الى وظيفة هامة ، مثال ذلك ديوان الخارجية ، حيث وجدت خطابات تل العمارة الشهيرة وهى المراسلات الدبلوماسية^(١) •

ولما كانت رقعة المدينة محددة طبيعيا تحديدا ممتازا ، فإنه فى المنطقة الشمالية والجنوبية وحيث تقترب حافة الهضبة من النهر أقيمت نقاط للحدود والحراسة والمباني اللازمة لهما وكانت الشوارع ممهدة فقط وغير مرصوفة أو مبلطة ، كذلك لم يعرف نظام متكامل للصرف الصحى ، وكانت البقايا تجمع فى أكوام •

وقد وجد نوع من الفصل الاجتماعى بحيث ان الأغنياء كانت مساكنهم على امتداد الشوارع الرئيسية ، والأقل ثروة مساكنهم فى الأماكن الخلفية • ويلاحظ من خصائص مورفولوجية المدينة أيضا أن الموقع البكر للعمارة ، اتاح لها الامتداد الافقى السهل ، وانعكس ذلك على كثافة المنازل (اذ كانت منخفضة) وعلى ارتفاع المباني (كان أغلبها من دور واحد) وفى هذا تناقض مع المدن القديمة فى طيبة ومنف التى وجدت فيها — نتيجة عدم وجود المسطحات الكافية — منازل متعددة الأدوار^(٢) • وهناك دلائل على وجود وحدات جيرية منفصلة شبه مكتفية ذاتيا ، كما ان خطة الضواحي كانت عشوائية organic plan

ويرى البعض من الباحثين أنه فى أماكن سكنى العمال فى الشمال من احييتون وجدت بعض مظاهر الفقر والتدهور بالسكن المعروف اليوم فى جغرافية الطمران بالمناطق الفقيرة المتدهورة أو ما يطلق عليه تعبير Slum areas^(٣) ، كذلك يرى Kemp ، ان بعض المنازل والمباني

(١) المرجع أعلاه ، ص ٩٧ •

(٢) المرجع أعلاه ، ص ٩٨ — ١٠١ •

Kemp, B. J., op. cit., pp. 661 - 80.

(٣)

كانت ذات وظيفة زراعية يسكنها قوم يعملون بنواحي الزراعة ، رغم ان الزراعة في الضفة الغربية ، (وجدت بعض مظاهر النشاط الصناعي في ضواحي المدينة) * ويرى كذلك أن قلة ارتفاع المباني ، ووجود بعض المنشآت ذات الوظيفة الريفية ، يعطى العمارة مظهر سلسلة من القرى ، تساعد على ذلك خطة المدينة ، وكونها رحبة متسعة ، منخفضة المباني بصورة لم تكن متاحة في المدن التي بنيت في مناطق زراعية خصبة ، حيث ظهرت في طيبة المباني متعددة الأدوار ، كما أن المنازل نفسها في العمارة كانت كبيرة المساحة قياسا على غيرها في المدن الأخرى ، وأوحى هذا الاتساع بأنه صمم ليستقبل انتاج المزارع ، وهو شذوذ آخر عن الصفات الحضرية في المدن المصرية الأخرى^(١) .

ويرى « سميث » ان كبار رجال الدولة والأغنياء كان لهم ميزة اختيار مواقع منازلهم ، دون النظر كثيرا الى المحاور التي تمتد على طولها المباني في الأحياء الرسمية ، وكان حول منازلهم يتجمع عدد من منازل التابعين والحرفيين ومن هم في خدمتهم ، ومع ذلك ، يشير الى نقطة هامة ، وهي ان العمارة لم تعرف ظاهرة التمنطق أو المنطقة Zoning على أساس حرفي بمفهومها الحديث في جغرافية المدن ، بمعنى ان تخصيص المناطق كان على أساس طبقي واقتصادي ، وليس على أساس حرفي ، وان وجدت بعض دلائل على أن بعض المنازل التي تخص أصحابها ، كانت تتجمع حول مصدر رزق أصحابها^(٢) .

وبناء على ما تقدم ذكره ، فإن « العمارة » ، كانت غريدة في مورفولوجيتها ، ولعل ذلك ما دفع « جونسون » الى القول ، أنها كانت شذوذا لا يقاس عليه ، بحدائقها وأشجارها ومزارعها ذات الخطة المنتظمة ، على النقيض من « ممفيس » التي كانت أقرب الى فكرتنا عن المدينة الشرقية المكتظة ذات الشوارع المتلوية ، والضيقة ،

Kemp, B. J., op. cit., pp. 665 - 80.

(١)

Smith, H., op. cit., pp. 505 - 10.

(٢)

والمساكن متعددة الطوابق ، ورغم ذلك فإن « ممفيس » أيضا كانت شذوذا لا يقاس عليه atypical ، ولكن « العمارنة » أكثر تفردا لأنها طبقا للخلفية والظروف التي أحاطت بها تعتبر غير مؤهلة لتمثيل المدينة المصرية العادية في رأى الباحث . وأهمية المدينة ، أنها توضح صورتها عند فترة زمنية معينة ، يدل على ذلك أنها حين هجرت كانت بعض مبانيها تحت الإنشاء^(١) .

الفصل الثامن

تركيب المنزل المصرى القديم وتخطيطه

تطور المنزل المصرى القديم مع تطور المكونات الحضارية الأخرى ، كأحد معالم مورفولوجية المصلات العمرانية الريفية والمدنية ، وعلى الرغم من عدم وجود بقايا كاملة لهذا المنزل إلا أن العديد من الاشارات والنقوش على جدران المقابر والمعابد تشير الى أبعاد وتخطيط المنزل المصرى فى عصوره المختلفة .

واذا ما تتبعنا المنازل المصرية القديمة منذ عهدها البدائى فى الحضارات التى ترجع للعصر الحجري الحديث ، نجد أن مساكن سكان « دير تناسا » كانت مستقلة عن المقابر وكانت هذه الأخيرة حفرا مستطيلة بها طاقات لوضع أثاث المقبرة ، وهذا ميزهم عن أهل « مرمده » ، رغم حداثة الاخيرين زمنا ، ولم يعرف الكثير عن منازل المتاسيين أما البداريون فتميزوا بمعرفة النحاس ، وأسسوا قرى ثابتة منظمة . أما حضارة « العمرى » أو حلوان الأولى ، فكانت مساكن القوم مبعثرة فوق سطح مهاد خصيصا لها فوق الهضبة الصحراوية ووجدت المواقع مجمعة فوق هذا السطح ، ويعتبر « بوفيية لا بيبير » هذه الحالة تنظيما بدائيا لتخطيط المدن فى هذا العصر المبكر^(١) .

وكانت مساكن « مرمدة بنى سلامة » بيضاوية مبنية من الطين ، وارتفاع الجدران متزا واحدا ، وبعضها لم يكن له سقف وطولها من مترين الى أربعة أمتار ، ووجدت فى مرمدة مساكن مقامة على أعمدة وكانت مستديرة فى هذه الحالة ، وتميزت مرمدة بأن مقابرها كانت داخل مساكنها وهى حالة فريدة فى الحضارات المصرية .

(١) ابراهيم رزقانة : الحضارات المصرية فى مجر التاريخ ، مكتبة الاداب ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٥٢ .

وتشير المقارنات عن المساكن وحجم القرى أن القرى في الدلتا كانت متسعة بينما كانت في الصعيد أصغر حجماً ، كذلك تميزت حضارة الفيوم أن مخازن الغلال المصنوعة من الغاب لم تكن توضع بالقرب من المساكن شأنها شأن الحضارات المعاصرة بل في مكان خاص بعيدة عن القرية ومركزه في مكان واحد .

وفي عهد ما قبل الأسرات ، كانت المساكن بنسيطة أقرب إلى الأكواخ وبعضها مستدير بيضاوى ، وجدرانها من أعواد بعض النباتات بعد ضمها وتثبيتها .

أما السقف فكان أيضا من أعواد النباتات الجافة ومغطى بالقش ، وتمثل المعادى خير مثال لمساكن ذلك العصر ، ويمكن تمييز نوعين من المنازل :

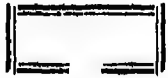
١ - القديم مستدير أو بيضاوى ، وله قوائم مغروسة في الأرض ، ويملاون المسافات التي بينها بأغصان مصفورة ثم يغطونها بعد ذلك بالطين . وفي داخل تلك المنازل التي يرجع أنها كانت غير مسقوفة وضعوا المصطلى الذى يطهون عليه طعامهم ويمدهم بالدفع .

٢ - أما الثانى فهو أحدث وكان مستطيلا ومشيدا بطريقة القوائم المغروسة كالنوع الأقدم ، أما بابه فكان يفتح في منتصف الواجهة التي كانت في إحدى الجهات الطولية ، وقد زادوا على هذا النوع من المنازل جدارا أمام المدخل يحمى من في داخل المنزل من الرياح ونظرات المارة (١) .

وأما في حضارة خلوان الثانية أو حلوان ب ، فكانت المساكن تتألف من خبيث يكون جزء منها تحت مستوى سطح الأرض ، وكان ذلك الجزء بيضاوى الشكل ، تقوم حوله جدران من الجص المغطى بالطين ، كما وجدت بقايا أعمدة من الخشب مغروسة فوق مستوى الأرض ، كانت تؤلف فيما بينها جدران نوع آخر من المساكن تقوم

(١) أحمد فخري : مصر الفرعونية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٤٢ - ٤٨ .

بأكملها فوق سطح الأرض ، وربما كانت المخازن المحفورة تمثل
مخازن للمؤن ، أما الأخرى فـللـسكن .



وفي المعادى وجدت مساكن على شكل
ومطابقة للكلمة الهيروغليفية « بر » ومعناها مسكن^(٢) .

وفي عهد الأسرات اعتمد المنزل في بنائه ، مثلما كان قبلا ، على
الأغصان والطين ، وفروع الشجر والمواد النباتية ، وكان تطور
أسكن أكثر بعد صناعة الطوب اللبن ويسر ذلك البناء وأدى الى
استقامته ، وأدى الى استخدام الأبواب في المباني ، كما كان الباب
يوضع بجانب أحد طرفي البناء ، ولكن لقلة الأخشاب بمصر انتشر
تسقيف القاعات باللبن في شكل قبو^(١) واستمر ذلك حتى الغصور
المتأخرة ، وقد استمر ذلك حتى اليوم في بعض منازل الصعيد ، وكان
المنزل مكونا أولا من قاعة واحدة ، ثم أصبح ذو ردهة وقاعة ، وتطور
السقف نحو الاستقامة حيث كان يصعد اليه صاحبه فيستمتع
بالنسيم^(٢) . وتطور المسكن بتطور الحضارة المصرية ، وكان دائما
بعكس الأحوال الاقتصادية والطبقة الاجتماعية لاصحابه ، وكان من
علامات التطوير وجود بهو وسلم يؤدي للسطح وعلى السطح وجدت
حواجز ، وصوامع للغلل وبنيت شرفات مثلثة الشكل تبرز من البطوابق
العلينا (في حالة تعدد طوابقه) لتزينها ، كذلك فتحت « الملاقف »
في السطح لاستقبال الرياح الشمالية^(٣) .

ومنذ عهد الدولة القديمة وجد من البيوت ما يتألف من قاعتين

- (١) ابراهيم زرقانة : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٣ .
- (٢) لا يزال بناء الأقنية ملحوظا في بعض مناطق المنيا لاسيما في المقابر
التي يعلو كل منها قبو وخاصة في قريتي الدفن الرئيسيتين بمركز المنيا وهما
قرية زاوية سلطان وبها بـدافن المسلمين ، وقرية دير سواده وبها مقابر
المسيحيين ، راجع : محمد مدحت جابر عبد الجليل : مركز المنيا ، « دراسة
في جغرافية العمران » . رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى قسم
الجغرافيا ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ٢٧٦ — ٧٧ .
- (٣) محمد أنور بشكري : العمارة في مصر القديمة ، الهيئة المصرية
للعلم للثقافة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٩١ .
- (٤) فلندوز بتري : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٠ — ٣٠٤ .

متحاذبتين أو غناء يليه قاعة ، وكانت الصوامع الملحقة بالمسكن بعضها أسطوانى والآخر مقوس ، كذلك استحدثت بالمسكن صفات ذات أساطين من الخشب تأخذ أشكال نباتية كالبردى ، وكذلك استخدمت فى السقوف جذوع النخيل ، وكذلك طريقة التقبية القديمة ، ووجدت أعداد قليلة للغاية مبنية من الحجر ، وكان الأغنياء أحياناً يسكنون منازل من الخشب ، يتراوح عرض كل « لوح » منها بين ١٢ - ١٤ بوصة ، وطوله بين ٦ - ٧ أقدام ، وكانت تلك المنازل كثيرة الأبواب وكثيراً ما كانت هذه المساكن تنقل إذا ما كانت فى مستوى الفيضان ، وتقام على حافة الصحراء المطلة على الوادى فى مدة لا تعدو يوماً واحداً ، كما كان أصحابها ينقلونها الى جوار أكواخ الرعاة المصنوعة من الغاب حين يريدون ذلك^(١) ، وكانت جدران المنازل فى القرى القديمة المصرية وأيضاً الحديثة ، لا يوجد بها إلا نوافذ صغيرة (مختلفة فى ذلك من سكان المناطق الباردة) يسميها الفلاحون طاقات ، يدخل الضوء منها الى الحجرات ، علاوة على ما يدخل اليها من الأفقية ، المكشوفة .

وفى الدولة الوسطى ، نجد مظاهر التطور فى خطة المنزل ، وأنه وجد فى بعض المنازل حداثق ملحقة مسورة يتوسطها حوض ماء . تحيطه أشجار الجميز^(٢) ، وقد انسجم تخطيط المنزل مع بقية مكونات مورفولوجية المحلة العمرانية ، فيستقى من منازل وخطة اللاهون (الأسرة ١٢) أن المنازل المحيطة بكل شارع كانت تختلف باختلاف عرض الشارع ، إذ كانت منازل كل شارع ذات حجم موحد واختلفت الشوارع أيضاً طولاً ، ففي اللاهون كان هناك أحد الشوارع طوله ٦٢ قدماً ، يطل عليه منزلان من كل جانب ، وآخر طوله ٣٢٠ قدماً يطل عليه ثمانية منازل من جانب وتسعة من الجانب الآخر^(٣) ، وكانت المنازل تحتوى على غناء صغير ، وقاعة أو اثنتان أو ثلاث ، ووجد أن اسطح بعض القاعات كان مقبباً .

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٠ .

(٢) محمد أنور شكري : مرجع سبق ذكره ، ص ٩١ - ٩٨ .

(٣) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩١ - ١٠٠ .

أما منازل حكام الأقاليم فكانت أفخم وأرهيب بطبيعتها الحال ، وذات طوابق ثلاثة ، مع الفخامة في ترتيب المنزل وزخرفته ، فكان هناك فناء مستطيل والمنزل على شكل برج من ثلاثة طوابق ، ويتوج بابه بالكورنيش المصرى ، وتتخلل نوافذه قضبان ، وبه سلم يؤدي للطابق الأعلى ، الى السطح ، وكان ملحقا به مرافق مستقلة للغلال والصوامع ، وأماكن للغزل والنسيج وصناعة الجعة ، والآلات .

وقد روعى بعض الميل في الجدران نحو الداخل ليعطيها ثباتا أكبر ، وكانت أطر الأبواب وعضاداتها doorposts تصنع من الأخشاب ، ويدحض الرأى القائل بأن صناعة اللبن جاءت من ميزوبوتاميا أن قياس اللبنة وشكلها العام مختلف في مصر عنه في العراق .

وفي الدولة الحديثة زادت الأعمال المعدنية والحجرية بكثرة في تشييد المنازل وخاصة للأشخاص المميزين ، وكانت الأبواب أحيانا مفردة وأحيانا مزدوجة ، وكانت تثبت في أطر حجرية ، وعليها تحفر اسم المالك وبعض الرموز السحرية ، وأما الأغنياء فقد ثبتوا الأبواب في أطر نحاسية وكانت منازل مصر العليا تزود أحيانا بغرف تحتية رطبة وسرايب ، ليلجأ إليها السكان في القيلولة ، ولم تعرف الدلتا مثل هذه السرايب كثيرا وخاصة أيام الفيضان .

ومعظم المعلومات عن مساكن الدولة الحديثة مستقاة من منازل العمارنة ، حيث زادت مساحة المنزل عن ذى قبل ، رغم أن العمارنة تعد مثلا لا يصح تعميمه ، وأن كان البعض يرى أن نموذج بيت العمارنة هو نموذج للبيت المصرى ، لسببين ، الأول ، محافظة المصرى على التقاليد ، والثانى ، أن فترة حياة « أخيت آتون » كانت قصيرة ، لا تتيح تطورا خاصا في المباني ، وكان منزل العمارنة عموما من طابق واحد حيث كان هناك متسع من المساحة ، فاختزل البعد الرأسى نتيجة الاتساع الأفقى ، وكانت معظم المساكن من اللبن مع استثناءات نادرة من الحجر (١) .

(١) محمد انور شكرى : المرجع السابق .

والحق بالمنزل المصرى القديم أحيانا الحظيرة والتي روى أن تكون فى مناطق لا يدركها الغمر والبلل كما كان الحال لدى الكثير من أصحاب الحضارات القديمة^(٢) ، وأن كانت فى منازل الأغنياء منفصلة عن السكن ، وتحوى سكن الخدم وأدوات المزرعة والحظيرة ، كذلك لوحظ بجوار المنزل ، أن هناك منطقة منخفضة ترص فيها مجموعة من الجرار تجلب إليها المياه من النهر وتصف الجرار فى خط مستقيم على الأرض أو على دعامة خشبية .

” وفى أحيان كثيرة بنى المصريون مصاطب عالية بجوار المنازل ودهنت أعاليها بعناية بالطين بعرض ٣ - ٤ قدم ، وهو ما يمكن رؤيته بالريف المصرى حتى اليوم ، وتستخدم للنوم والجلوس .

ورغم أن سكان العمارة (الدولة الحديثة) كانت أراضيهم الزراعية فى البر الغربى ، فأنهم قد احتفظوا بحظائر للماشية التى تمدهم باللحوم والألبان ، وكانت المصوامع تملأ من أعلى ، أما المخزون فيؤخذ من فتحات سفلية ، وتقع المخازن فى صف واحد تتقدمها سقيفة ، أما الحظائر فكانت مربعة الشكل ، وفى مؤخرتها الزاود بما يسمح بملئها من الخارج ، كما هو الحال فى الحظائر الحديثة حاليا . وكانت الحديقة مستقلة عن البيت وتفصل بجدار^(١) ، وعموما تتميز المنزل المصرى فى عصوره المختلفة بمخططة المستطيل ، وامتداده الى الداخل فى أغلب الأحيان ، ووضوح أقسامه ، وانتظامها ، واستقامة قاعاته بما ينم عن روح هندسية تؤثر الترتيب والنظام^(٣) .

وفى نهاية العهد الفرعونى ، وفى العصر البطلمى ، تدل الدلائل على تأثر البطلمة بنظام عمارة المنزل المصرى ، كما تدل الدلائل

^(١) Hodges, H.w.M., Domestic Building Materials and Ancient Settlements, in Lucko, p.; Tringham, R.; Dimbleby, G. W. eds, op. cit., pp. 528 - 30.

(٢) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٣ .

(٣) المرجع أعلاه : ص ١٥٠ - ١٥١ .

— ٩٢ —

على أن المنزل المصرى الفرعونى كان يتحكم فى مساحته وفخامة عمارته مرتبة صاحبه ، ويرى « نصحى » أن المصريين فى عهد البطالمة قنعوا بوجه عام بأنواع المنازل التى ورثوها عن الدولة الحديثة وأورثوها لخلفائهم^(١) .

(١) ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الرابع ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦١ — ٦٢ .

الفصل التاسع

التجهيزات الصحية في المنزل المصري القديم والمنطقة السكنية

لا شك أن معرفة المصري القديم بهذه التجهيزات ، قد واكبت تطور معرفته وحضارته بصفة عامة . ولا تبين أية محطة عمرانية من عهد ما قبل التاريخ عن أى دليل واضح للتخلص من النفايات ، والتي كانت تتترك ببساطة ، لتتراكم على بقعة من الأرض وتوضح الحفائر وجود طبقات متعاقبة من نفايات المحلات ، وهى ذات كثافة متباينة ، وممتدة فوق مساحة المحلة كلها^(١) .

وشملت هذه النفايات المادة العضوية وغيرها من مخلفات غذائية ، ومطاحن ومجارش ، وبقايا غذائية .

ويعمم « ممفرد » Mumford ، حديثه عن المدينة القديمة عموماً دون الإشارة الى بلد بعينه ويشبه الوضع بالنسبة للتخلص من النفايات بها بما هو عليه الحال اليوم فى بعض مناطق أفريقيا من القائما فى الشوارع بلا نظام بحيث يرتفع مستوى الشارع عن مداخل المنازل^(٢) وان كان حديثه « ممفورد » هذا عاماً ويعبر عن فترة طويلة فى الزمن ، الا أن الدلائل توضح أنه بتعاقب المراحل الحضارية المصرية القديمة ، لحق الارتفاع بمستوى المنزل المصري ففى خلال الأسرات الثلاثة الأولى نمت عمارة المقابر ، وأثر ذلك فى نمو عمارة المنزل فتعددت حجراته ، ولذا وجدت تجهيزات صحية فى بعض هذه المقابر ، وكيفية التخلص من النفايات والفصلات . وان كان

(١) Dixon, D.M., The disposal of certain personal, household and town waste in ancient Egypt, in Lucko, p.; & Tringham R., & Dimbleby, G., op. cit., p. 646.

(٢) لويس ممفورد : المدينة على مر العصور ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٤ .

المعنى مقلد Dixon ، وأخسرين يروا ان الحيطان هذه التسهيلات الصحية كان قاصرا على منازل الخاصة من طبقات المجتمع الذين وجدت بعض أنواع الحمامات لديهم مغطاة بطبقة لا تتأثر بالرداذ كما وجدت مغاسله ومراحيض (١) .

أما المراحيض ، فرغم قلة الآثار من الدولتين القديمة والوسطى ، الا أنها متوفرة من آثار الدولة الحديثة ، ومنها أشكال عدة ، منها ما تمثل في « قل العمارنة » بعضها يشبه ما وجد في الدولة القديمة ، والآخر له فتحات دائرية ، وأخرى لها مقاعد ملساء ، ومائلة لتسهيل عملية تنظيفها ، وفي احد المنازل وجد فراغان ، واحد على كل جانب ومملوء بالرمل لتغطية الفضلات (٢) .

وبينما كان هناك مراحيض ثابتة ، وجد بعضها متنقلا كالدولاب الخشبي ، الذي عثر عليه في دير المدينة وأحيانا على هيئة مقعد بدون مسند على شكل حدوة الحصان (٣) .

ويلاحظ أن المصري القديم كان يقضى حاجته ليس في وضع منحني ولكن جالسا ولذا كان المرحاض يتألف من جانبين منخفضين متوازيين وبينهما يوضع اثناء فحاري نصف مملوء بالرمل ، والذي كان يزال ويفرغ عند الضرورة وكان المحتوى يعرض للشمس (٤) وإذا كان هناك دلائل كثيرة تشير الى المراحيض ، فإن الحمامات كانت نادرة في ذلك المجال ، رغم وجود احد القباب الدولة القديمة يحمله صاحبه وهو « المشرف على غرفة استحمام الملك ، كذلك من قصة سنوحى المعاصر لسنوسرت الأول ، يستفاد أنه كان لديه حماما أو غرفة للاستحمام . وفي الدولة الحديثة ، استخدم في الحمامات ألواح من الحجر الجيري ، لتغطية الجدران ، بينما في منازل الأثرياء استخدم نوع من البلاط تشبه « بالقيشاني » وأن كانت كل هذه الآثار يتضح أنها لدى الأثرياء والجدير بالذكر ،

Dixon, D. M., op. cit., pp. 647 - 48.

(٢) بول غليونجي وزينب الدواخلي : الحضارة الطبية في مصر القديمة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤١ .

(٣) بول غليونجي وزينب الدواخلي : المرجع أعلاه ، ص ٤١ .

Dixon, D. M., op. cit., p. 674.

(١)

(٤)

أن أحواض الاستحمام لم تكن مفضلة لدى المصريين القدماء^(١) وكانت الأبنية الدينية مجهزة هي أيضا بالمرافق الصحية كالأبنية الدنيوية ، بل أنها كانت أوسع وأرحب وأفخم ، ومثال ذلك ما يوجد في معبد دندره .

أما عن استخدام المياه بالمنزل والمحلات فقد كشف عن بعض الأنابيب الفخارية في منطقة « تانيس » وهي بدون قاع ، وقد أحكم تثبيت كل منها في - الآخر ، في أرض المدينة ، ويرجح أنها كانت لمياه الشرب ، أو لتصريف المياه القذرة ، وفي كلتي الحالتين فالأمر يدل على تطوير هائل آنذاك ، في سبيل راحة السكان^(٢) .

وهناك من الدلائل في منطقة اللاهون (الدولة الوسطى) على أن مياه المنازل كانت تمر خلال مجرور بوسط الطريق ، وفي أحد منازل « تل العمارنة » (الدولة الحديثة) وجدت المياه تمر خلال اناء فخاري ، مثقوب وتصب في وعاء خارج الحوائط^(٣) أما عن النفايات المتخلقة عن الاستخدام اليومي والغذاء وما الى ذلك ، فنجد أن « ديكسون » يرى تشابها في طريقة التخلص منها عند أصحاب الحضارات القديمة ، فيرى أنها كان يلقي بها الى النهر في مصر كما كان يحدث لدى أهل اليونان القديم وفي روما . ويرى أيضا أن أكوام النفايات كانت تكوم في الشوارع سواء بالقرية أو المدينة القديمة وكانت ممثلة لهما ، بمثل ما هي ممثلة لهما اليوم ، وفي بعض الحالات نجد أن الأبنية المهجورة من المدينة كانت تستخدم في وضع النفايات والقمامة بها وأحيانا تحرق ، وسبب اختيار هذه الأبنية المهجورة أنها كانت تتخلل الرقعة المبنية كثيرا بينما كانت الأكوام الخاصة بالقمامة تقع بعيدا عن المنازل ، وطبقا لبداً الجهد الأقل فإن السكان القرييين منها كانوا يستخدمونها Least effort principle في القضاء نفاياتهم بها .

(١) بول غليونجي وزينب الدواخلي : مرجع سبق ذكره ، ص ٤١ .

(٢) محمد أنور شكري : العمارة في مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، مرجع سبق ذكره ، صفحات متعددة .

(٣) بول غليونجي وزينب الدواخلي : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ .

وتشير الدلائل المكتشف بواسطة « بترى » « Petri » في كاهون (وهى مدينة من الأسرة ١٢ أقيمت للعمال العاملين بالقرب من هرم سيزرستريس الثانى فى اللاهون) الى أن المدينة شغلت لفترة وجيزة ، ثم هجرت وحينما كانت مأهولة ، فإن النفايات كانت تكوم فى تلال خلف السور الشمالى للمدينة أو فى المباني المهجورة داخل المدينة نفسها^(١) .

كذلك أنه فى « العمارنة » ، فى الصحراء نجد أن مساحة حوالى ٣ (فرلونج^٢) Furlong (الفرلونج ١/٢ ميل) من مساحة القصر وحوله كانت مخصصة للأكوام من النفايات ، ويحتمل اختلاطها بأكوام الاجزاء المجاورة للمحلة وبعض الأكوام كانت مساحتها ٦٠٠ × ٤٠٠ قدم وبعمق بين ١ — ٤ مترا .

أما فى « دير المدينة » غربى طيبة بالصفة المقابلة لها ، فإنه انشئ بها فى الأسرة « ١٨ » محلة لاقامة العمال المشتغلين فى بناء المقابر الملكية فى وادى الملوك ، ورغم أن هذه المحلة شغلت ٤٠٠ سنة ، فإن سطحها لم يرتفع بفعل النفايات ، حينما كان يعاد بناء المساكن ، اذ كانت هذه تشيد على نفس الأساس ويعنى هذا أنه كان هناك ، بعض التنظيم فيما يختص بالبناء ، والتخطيط والتخلص من النفايات^(٢) .

وأهتم المصريون بالنواحى الصحية البيئية ، ومن ذلك أن عملية التحنيط كانت لا تتم فى مبان داخل الرقعة المبنية ، ولكن عند أطراف المدن ، وفى الغرب دائما قرب أماكن الدفن ، وكانت أماكن التحنيط مقار مؤقتة تلك بعد انتهاء العملية أو تنقل الى غيرها من الأماكن محافظة على الصحة العامة^(٣) .

(١) Petri, W.M.F., Kahun, Gurab, and Hawara, London, 1890, pp. 31-32.

(٢) Dixon, D. M., op. cit., p. 650.

(٣) بول غليونجى وزينب الدواخلى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ .

وعموما فقد تطورت النواحي الصحية وتجهيزاتها في المباني المصرية مع تطور الحضارة المصرية ذاتها ، يدل على ذلك نجاح اخناتون في تحسين الجهاز الصحى لمنازل مدينته فقد كان في منازلها ؛ أنواع من المراحيض^(١) ويدل ذلك على عناية المصريين بالنواحي الصحية لمنشأتهم المدنية .

(١) بول غليونجى : الطب عند قدماء المصريين ، فى وزارة الثقافة والارشاد القومى ، تاريخ الحضارية المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، ٧ ، ص ٥٣٥ — ٥٣٧ .

الفصل العاشر

مجتمع المدينة المصرية القديمة

إذا كنا نتحدث اليوم عن بعض تقسيمات في المدينة الحديثة اعتماداً على أسس مادية أو اجتماعية ، كالمناطق المتردية وسكانها Slumareas أو الموبوءة Blighted areas ، أو الطبقات الاجتماعية وتصنيف السكان الاجتماعى مما يبرز قطاعاً معيناً من المدينة ذا خصائص معينة سواء من النواحي المكانية Spatial أو الاجتماعية Social ، مما يتضح فيما يعرف بالمناطق الاجتماعية من المدينة Social areas فإنه يمكن أن نصور بغير قليل من التعميم صورة مشابهة لذلك في المدينة المصرية القديمة مع الاختلاف في المعايير والأسس بطبيعة الحال .

وعموماً ، فإن إقامة السكان في مدينة ما ، كانت تأخذ طابعاً مكانياً خاصاً معتمداً على أسس طبقية ، وهذه الطبقية جاءت بصورة خاصة معتمدة على أسس حرفية .

ولفهم تلك الصورة فإنه ينبغي أن ندرك ما ذهب إليه « لويس مافورد » من أنه يتيسر لأول مرة أن يقضى الإنسان حياته بأكملها يقوم بعمل جزئى ، بمعنى أنه يقوم بجزء بسيط مما تحتاجه الإقامة في مدينة وما يحتاج إليه الفرد من متطلبات وحتى في مدن التنقيب والتعدين كان هناك أكثر من ٥٠ صفة ودرجة مختلفة للموظفين والعمال وحين زار هيردوت مصر في القرن الخامس ق.م. كان تقسيم العمل قد بلغ الذروة ، فهو يسجل أن بعض الأطباء يختصون بالعيون ، وبعضهم بالرأس ، والأسنان . الخ . ونشأ عن هذه المهن والطوائف هرم حضري ذروته الحاكم المطلق ، وحوله في القمة الكاهن ، والمحارب ، والكاتب ، ومن بعد ذلك تتسع الطبقات تدريجياً لتشمل التجار وأرباب الحرف والمزارعين والملاحطين وخدم المنازل

والأرقاء ، وكانت الطبقات الدنيا تظل قابضة هكذا ، وعكست الملابس وأسلوب الحياة في المدن الطبقة الاجتماعية التي تمثلها •

كذلك انعكس التركيب الطبقي في طرز المباني التي مثلت غلاف طبقي على حد تعبير مفورد^(١) ويدل على هذه الطبقية ما أورده بترى من أن الحاكم (على رأس القرائب الاجتماعى) كان يفسر القانون ويشرف على ما تحتاجه المدينة ، يعاونه الكاتب ، وقاضى القضاة ، وقائد عسس الليل ، أما الطبقات الأدنى من العمال والصناع فكان ممنوعا عليهم تغيير حرفهم^(٢) ، كذلك كان تزايد عدد أفراد طبقة معينة رهنا بالظروف الداخلية والخارجية ويدل على ذلك زيادة طبقة الموظفين زمن الدولة الحديثة •

وكان النظام الطبقي في المدينة يبدى بعض الأبعاد المتوارثة ، بمعنى أن المهن والحرف كانت في أكثر الأحوال تورث • وبخاصة في الوظائف الدينية التي كانت لطبقة عليا ومحاطة ببعض الأسرار المقدسة ، وتتطلب تدريباً دقيقاً ، كما أنها كانت موضع الاحترام في مجتمع المدينة • كذلك كانت بعض وظائف دواوين الحكومة تستدعى إقامة المدارس في هذه الدواوين لتخريج الموظفين^(٣) •

وكما ذكر في موضوع اختلاف الاعراق والأجناس والجاتيات في المدن المصرية كانت بعض مجتمعات المدن تبدى خليطاً غريباً من السكان متناهرين على أساس حرفي ومهني بمثل ما هم متناهرين على أساس عرقي^(٤) •

وتجدر الإشارة الى ظهور نمط خاص من المدن المصرية القديمة ، ونعنى به المدن المستقلة ، ويبدو أن وجود جاليات أجنبية بين مجتمع

(١) لويس مفورد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٦ — ١٨٧ •

(٢) فلنדרز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠ — ٦١ •

(٣) فلنדרز بترى : المرجع أعلاه ، ص ٢٢٢ •

(٤) راجع الموضوع في الدراسة الخاصة عن اختلاف الاعراق والجاتيات بالمدن المصرية •

- ٢٠١ -

المدينة كان شرطاً لإعلانها مستقلة • وان ظهر هذا النمط في تاريخ متأخر زمن الأغريق ، وكان من المجتمعات المدنية المستقلة في مصر « ارسنوى » في الفيوم ، بطوليماس وهى قرب المنشأة في سوهاج ، « انتينوى » وهى الشيخ عبادة بالمنيا ، وكذا اكرينكوس (البهنسا الحالية) وهيراكليوبوليس (اهناسيا المدينة الحالية ببنى سويف) وكان لمعظمها ديساتير ومجلس أعيان مستقلة عن بقية نظم الدولة لوجود الأجانب بها • ويذكر بترى أنه كان في مدينة الفنتين (أسوان) في المعهد الفارسي جالية يهودية كبيرة وأشار الى عقد زواج بين يهودى ويهودية كما كان لهم عمله خاصة بهم هى « الشاقل »^(١) مما جعل مجتمع المدينة مختلطاً ، وخاصة في بعض عهود انشاء الامبراطورية ، كما كان زمن بحوثمس الثالث بعد كثرة الجاليات والأمراء الذين جاءوا للاقامة في مصر ليكونوا تحت تأثيرها الثقافي •

ويذكر « فخرى » أن الطبقة في المجتمع الحضري المصرى لا تبدو في طبقات المجتمع في مدن الاحياء فقط ، ولكن هناك ما يشير الى تكرارها في مدن الأموات ، اذ أن مقابر الفقراء كانت في مناطق غير مقابر الأغنياء والنبل ، أما في المناطق التى حفرت ونحتت في الصخور في مصر الوسطى والصعيد فاننا نجد أن المقابر العليا كانت للنبل والأغنياء ، أما مقابر الفقراء فعند السفح في منسوب منخفض بالنسبة لمقابر الحكام والنبل ، ويبدو ذلك في مناطق دشاشة وزاوية الأموات (في شرق المنيا) وبنى حسن والبرشا وغيرها^(٢) • وكما يحدث في العصر الحديث ، فان مجتمع المدينة المصرية القديمة قد تأثر بالتيارات والأفكار التى كانت تضطرم فيه ، نتيجة الاحتكاك الحضارى التجارى مع الأجانب القادمين من آسيا وحوض البحر المتوسط والجنوب ، ومن آثار ذلك في مجتمع المدينة أن المصريين بدأوا يخفون من غلاء تقاليدهم الدينية والاجتماعية وتسربت اليهم تقاليد البلاد الأجنبية ، وبدأوا لا يرون

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٥ - ١١٨ •

(٢) المرجع أعلاه ، ص ٢١٦ •

- ١٠٩ -

خرجاً في الزواج من أجنبيات بعد أن تزوج ثحوتمس الرابع من امرأة من ميثنى (شمال العراق) وكان المعتك الذي انصهرت فيه هذه التغيرات الحضرية هي المدن المصرية ، ومدينة طيبة على رأسها (١) .

وكانت حرف المدينة عرضة للتنوع والتطوير بالاحتكاك الخارجي ، وزادت طبقة العمال والصناع والجنود مواكبة بذلك التوسع الامبراطوري واحتياجات هذا التوسع ، وكذلك زاد المطلب على طبقة الكتاب ، مما زاد من عدد المدارس التي تخرجهم في المدن وجعلها بيئة بالنشاط ، ومما يؤكد طبقية مجتمع المدينة ما أورده « ويلسون » من أن اعداد جثة نبيل للدفن استغرق ٧٠ يوما ، بينما دفنت امرأة من عامة الشعب في نفس يوم وفاتها وكما كان هناك طبقية في مدينة الأحياء ، كان هناك طبقية في مدن الأموات (٢) .

ويعقد « ويلسون » مقارنة بين مجتمع المدينة الحديثة ومشكلاته وبين ما يقابل ذلك في المدينة المصرية القديمة ، فيشير الى أنه في سنة ١١٦٠ ق م نجد أنه حدث في طيبة تزايد في الأسعار ونتج عن ذلك ما نعتبر عنه اليوم بالتضخم واستمر ذلك فترة طويلة ، وأثر ذلك في عمارة وتركيب المدينة ، فنهب بعض المعابد وخاصة الذهب ، وصحب ذلك الوضع الاقتصادي المتردى ظهور أمراض اجتماعية بالمدينة متمثلة في الرشوة وكانت الطبقات الفقيرة هي الأكثر تأثراً بالمجاعات والتضخم . وكما نجد اليوم في مدينة القاهرة ، فإن السكان في عهد الأسرة « ٢٠ » من الفقراء والمعوزين ، سكنوا المقابر في المدن ، مما أعطى المدينة طابعا عمرانيا لم تعرفه من قبل ، وتمثل ذلك في البر الغربي من طيبة بصفة أساسية ، ولعل أول اضراب في العالم كرد فعل للتضخم ومشكلات المدينة هو ما حدث في تلك الفترة (٣) وتبع ذلك كما تقدم ذكره انتشار الرشوة والتزوير بين الموظفين الموكل اليهم

(١) أحمد مخري : مرجع سبق ذكره ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) ويلسون : مرجع سبق ذكره . ص ٢٠٤ .

(٣) ويلسون : المرجع أعلاه . ص ٤٣٦ - ٤٤ .

جمع الضرائب ، أكثر من ذلك أن تفاقم الأحوال نتج عنه شيوع الجرائم
كما نجد الجريمة اليوم علامة من علامات المدن يستوى ذلك في
بلدان العالم النامى أو المتطور .

ويلاحظ أن في حالات الأزمات هذه كانت غارات البدو تشتد على
المدن ويصبحوا من سكانها مما يزيد من مشكلاتها بعد أن يصبحوا
قطاعا سكانيا أضافيا بين قاطنيها وتمثلت هذه العناصر المغيرة على
المدن في الربو Rebu أو المشوش الليبيين ، ويذكر ويلسون ، أنه قامت
ثورات في مدينة هبو وفي طيبة وخربت مدينة في مصر الوسطى ،
وكان من أهم جرائم ذلك الوقت نهب المقابر وساعد على ذلك تراخى
الحكام ، وانتقلهم في بعض مهور السنة للاقامة في العاصمة الشمالية
قرب الدلتا لشدة الحرارة وأهمالهم شئون الجنوب^(١) .

والملاحظة الجديرة بالذكر هنا ، أن التراتب الطبقي لم يواكبه
في أغلب الأحيان أبعاد مكانية Spatial بمعنى أن هذا التراتب كان
على الوظائف والحرف ، وليس في المكان وذلك بالنسبة لمدينة واحدة
فقط تمثل حالة خاصة كما نعلم ، وهى مدينة « أختاتون » وذلك
للتحرر من القيود القديمة ولذلك فكما مثلت اختلافا في الأبعاد الحضرية
الأخرى التى ذكرت سلفا فإنها كانت مختلفة أيضا فيما يختص بالطبقة
وخاصة من منظور مكانى ، إذ كان هناك ديمقراطية سكنية ، لم تعرفها
المدينة في بقعة أخرى ، إذ اختلطت بها بيوت الأشراف ، وكبار رجال
الدولة والكهنة ، ورجال الجيش ، والتجار والفنانون والصناع أى
طبقات المجتمع المختلفة ، حتى أنه كان يجاور الكاهن الأعلى صانع
النعال ، ويجاور الوزير صانع الزجاج^(٢) .

هذه بالطبع كانت حالة خاصة ، وإن لم يمنع هذا التراتب
الحضرى والطبقي على نطاقيه الاجتماعى والمكانى ، لم يمنع المصرى

(١) ويلسون : المرجع السابق . ص ٤٤٦ .

(٢) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٨١ .

القديم من صغار الناس من الشعور بأنهم مثل العظماء في أنهم جميعا رعايا فرعون الملك مثلهم مثل النبلاء . وكانت الطبقة مرتبطة بالهنة في الغالب ، بمعنى أن البعض كان ممنوعا من احترام مهن معينة ، ومن ذلك شكوى أبقراط بعض الأفراد من الطبقات العليا ، عند قيام إحدى الثورات ، كما جاءت في مواعظ « أبيو - وير » من أن أبناء الطبقات السفلى اقتحموا معاقبتهم ، ونكلوا بزوجاتهم وأكثر من ذلك انهم وضعوا أيديهم على المعرفة التي كانت محجوبة عنهم^(١) .

ولم تكن الطبقة قائمة فقط على أساس حرفي ، لكنها كانت موجودة أيضا على أساس عرقي ، فكما كانت بعض منازل طيبة تقع في منطقة يطلق عليها بيت البقرة The House of the cow شمال معبد آمون الكبير في الكرنك وغرب معبد مونتو Montu وسكن هذا الحي عمال المقابر وأصحاب الوظائف الثانوية ، فهذا مثال على الطبقة المكانية على أساس حرفي . وفي المقابل نجد أنه في ممفيس كان هناك أيضا حيا لعمال المقابر يتجمعون فيه ، وكان للجنود المرتزقة حيهم الخاص ، وللإيونيون Ionians وغيرهم أحياءهم الخاصة ، وهذه طبقة على أساس عرقي^(٢) كذلك مما يدل على التنظيم المكاني للأحياء السكنية Residential quarters على أساس طبقي حرفي اجتماعي في مدينة هابو أن هناك قائمة ، بها خمسة منازل على رأس القائمة تخصص للرسميين وكبار الموظفين بما فيهم الحاكم ، وكذا هناك بعض المنازل تخص ٣٣ كاهنا ذوي رتب متعددة ، و ٧ منازل تخص رجال الشرطة ، و ٣ تخص الحراس و ٩ للبستانيين ، ٩ للزراة ، ١٢ للصيادين ، ١٦ للرعاة ، ٣ لربى النحل وغير هؤلاء مثل صانعي الصنادل (الأحذية) وصناع الذهب والعمال في تشكيله ، مع مراعاة أن هؤلاء جميعا كانوا قائمين على خدمة المعبد الرئيسي مما يعكس الارتباط بين المعبد والمدينة والمجتمع بها^(٣) . وكانت الطبقات تبدو

(١) لويس مفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٨ — ١٧٩ .

(٢) Smith, H. S., op. cit., p. 708.

(٣) Kemp, B., J., op. cit., p. 658 - 65. & upwitt, op. cit., p. 728.

— ١٠٥ —

في صورتها الصارخة أكثر في مدن المزارات المقدسة والمدن ذات الصبغة الدينية اذ على رأس التراتب الاجتماعي نجد رجال الدين المميزين وفي ذيلة نجد عمال المقابر ومن اليهم ، وبينهما بعض أفراد المجتمع من رتب مختلفة ، وفي مثل هذه المدن كانت مساكنهم ترتب بحسب منزلتهم الاجتماعية^(١) . تمثل ذلك في المدن التي كانت بها معابد طائر الأبيس Apis المقدس ولا سيما في غرب ممفيس عند حافة الصحراء ، وتجدر الإشارة الى أن بعض أصحاب الحرف الدنيا مثل مربى الخنازير لم يكن مسموحا لهم الاختلاط بالسكان وكان لهم أماكن خاصة من المدينة .

Pay, J. D., The house of Osorapis, in ucko P., & Tringham, (١)
R., op. cit. pp. 699 - 704.

الفصل الحادى عشر

التركيب العرقى فى المدينة المصرية القديمة

أبانت المدينة المصرية القديمة منذ عهود باكرة ، عن بعض الاتجاهات الديموجرافية ، كن من أبرزها تميز بعض المدن بزيادة الأعراق الأجنبية الأخرى بالمدن المصرية . وكما نجد اليوم ، تركيزا ضمن نطاق جغرافية المدن على دراسة الاختلافات العرقية واللغوية وتعدد أعراق السكان وما الى ذلك مما يطلق عليه تعبير Ethnicity ، فقد كان الوضع فى بعض المدن المصرية القديمة متميزا بتعدد الأعراق واللغات ، وبدون شك اختلفت نسبة الدماء الأجنبية فى المدن المصرية ، باختلاف الظروف الداخلية والخارجية والعوامل التى مهدت أو أعاققت تواجدهم فى مصر كما سنرى فى السياق التالى :

وكان أحد أسباب تزايد الدماء الأجنبية فى مصر بعمامة ومدنها بخاصة الحروب ، فقد عاد الملك « سنfro » من ملوك الأسرة الرابعة من حملته على النوبة بسبعة آلاف أسير و ٢٠٠٠٠ رأس من الماشية والغنم ، كذا أسر عددا هائلا من بدو الصحراء الشرقية . ومن الثابت أنه فى عهد خوفو من ملوك نفس الأسرة كانت الاتصالات بين مصر والمصارى نشطة وذلك منذ الأسرة الثانية ، ودل على ذلك وجود معبد مصرى وجالية مصرية فى ميناء جبيل مما يدل على تواجد غير المصريين على مصر نظرا لهذا النشاط . كذلك كان يختار من النوبيين حراسا يسهرون على الأمن منذ الأسرة السادسة فى العاصمة (منف) وربما فى غيرها من المدن وكانت نقطة الصلة بين المصريين والنوبيين هى مدينة « الفنتين » وهى جزيرة أسوان^(١) .

وقد لعب الموقع الجغرافى للمدن المصرية دورا هاما فى نوع الدماء

(١) أحمد مخرى : مرجع سبق ذكره . ص ١٠٠ - ١٠١ .

١٠٧

الأجنبية التي استقرت بها ، ويدل على ذلك تزايد الأعراق الآسيوية في مدن شرق الدلتا ، والأعراق الليبية في مدن غربها ، ونجد أن شاشنق الذي كون الأسرة ٢٢ كان مستقرا بعائلته في اهناسيا بالفيوم ، ومثل ذلك يقال عن مدن الجنوب كمدينة « الفنتين » وحتى طيبة وقد لعبت الجاليات الأجنبية في المدن المصرية أحيانا دورا في مجريات الأمور السياسية والحربية ، ومن ذلك أنه في عهد الاستعمار الفارسي ، أراد « دارا » أن يكثر من نسبة الفرس مقابل تغلغل اليونانيين في مدن مصر ليجعل هناك توازنا ، وحفز ذلك رغبته في حفر القناة الموصلة للبحر الأحمر ، وأثناء احتدام الصراع بين الجالية الفارسية واليونانية عملت الجالية اليهودية في الخفاء وكانت في مدينة الفنتين « مؤازرة للمستعمر »^(١) .

ومن الطبيعي أن تزداد نسبة الدماء غير المصرية في المدن التي أسسها المصريون في بعض الأماكن مثل النوبة ، ويصعب أحيانا حساب نسبة الأعراق غير المصرية بالمدن المصرية ، ولكن في بعض الحالات هناك إشارات موحية . وهناك إحدى البرديات من عهد الرعامسة توضح أن فرقة عسكرية في الجيش المصري تتألف من ١٩٠٠ مصرى ، ٥٢٠ من الشردانيين ، ١٦٠٠ من الكهك و ١٠٠ من الشوش ، ٨٨٠ من النوبيين . ويدل ذلك على أن المدن احتوت بين ظهرانيها على الكثير من السكان غير المصريين ، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن التركيب الداخلي للمدن المصرية الكبرى واستخدام الأرض بها كان يحوى في كثير من الأحيان ثكنات كبيرة لاقامة الجنود ، وعمل بعض غير المصريين أحيانا كمرتزقة في الجيش المصري مثل المزوى والنوبيين^(٢) . وكما مثلت هذه الدماء الأجنبية قطاعا من سكان المدن ، كان لهم أيضا مقابر خاصة بهم ضمن مقابر المدينة مثل تلك التي تنتمي الى النوبيين والمزوى والآسيويين وغيرهم^(٣) .

(١) المرجع السابق . ص ٤٣٤ — ٤٣٧ .
 (٢) سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء العاشر ، مطبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٥٥ . ص ٤٣٢ — ٤٤٤ .
 (٣) المرجع أعلاه . ص ١٠٤ — ١٠٥ .

التي وفدوا منها كذلك أنتشر اليهود كصناع وحرفيين وتجار في المدن المختلفة ، وكانت الجالية اليهودية في عهد الرومان أكبر الجاليات في المدن المصرية وأكبر تجمع لها خارج فلسطين في رأي « جونسون » •

مما سلف ذكره ، يبدو أثر الأجانب في تنوع النشاط الاقتصادي وتنوع الأفكار وعظم تأثير المدن نتيجة لتأثرها هي ذاتها بالوفود الأجنبية اليها مما كان له أثره في إثراء الحضارة عن طريق التأثير والتأثير المتبادل ، وأثر ذلك في تطور وظيفة المدينة المصرية القديمة • وفي الفترات التي وقعت فيها البلاد بين نفوذ أكثر من قوة أجنبية ، كما كان الحال حين تكالب الغزو الآثيوبي والآشوري على مصر ، نجد ان التأثيرات الأجنبية والآشورية بدت في مدن شرق الدلتا مثل « سايس » ، « وأتريب » • بينما كان النفوذ الآثيوبي بادية أكبر في طيبة لقربها من بلادهم ، مما يوضح أثر العوامل المكانية في التأثيرات الأجنبية العرقية في المدن المصرية •

وقد ذهب بعض المؤلفين الى القول ، بان معظم التطويرات الحضارية في مصر وكانت وافدة عليها منكرين بذلك الابداع والأصالة المصرية ، وكان تزايد الأجانب في مصر القديمة هو دافعهم على ذلك القول ، ومن ذلك ما ذكره Baines & Malek عن استجلاب المصريين أساليب لتطويرات الري وتجفيف المستنقعات من الخارج^(١) وفي كثير من الحالات ، كان هؤلاء الأجانب يخدمون في قطاع المعابد الدينية كخدم للفرعون وأحيانا كثيرة قويت شوكتهم لكثرة أعدادهم ، وكان الاعتماد عليهم يتم بصورة انتخابية انتقائية بمعنى اختيارهم من ذوي الحرف (في حالة الاسرى) والصناعات والفنون ليتيسر لهم الاضافة في مجالاتهم ، وفي عهد رمسيس الثالث كان عدد الاسرى كبيرا جدا ، لدرجة أنه ذهب لخدمة المعابد وحدها ٣٣٤١٣ أسيرا زمن حكمه ، وكان معظمهم من أهل الغرب والشام ، ويحدد بترى Petri

جملة عددهم بحوالى ربع مليون أسير ، مما طبع المدن المصرية بطابع اندماجي^(١) .

وكان التخلص من نفوذ جماعة أجنبية ، يعنى فى ذلك الوقت تزايد نفوذ جماعة أخرى مناوئة لها فى المدن المصرية ، ظهر ذلك بعد تخلص ابسماتيك من نفوذ الأحباش فى الجنوب ، وكذا الاشوريين وعول أكثر على الاغريق المستقرين فى الدلتا ، واتخذ من مدينة دلتاوية عاصمة له (بسايس) وتبع ذلك تزايد الاغريق كقطاع سكانى أجنبى له أهميته بالمدينة . وبدت العرقية بوضوح زمن ابسماتيك ، وكان الاغريق هم العنصر الغالب وخاصة فى الثغور ومدن الحاميات وكانت أهمها فى عهده ثلاث هى عند « جزيرة هيلة » وجنودها مصريون « ودفنة » ، « وماريا » فى الشمال ، الأولى عند خليج السويس ، والثانية (مريوط) وكان جنودهما من الاغريق .

وفى أحوال معينة كانت إقامة عنصر سكانى بعينه فى احدى المدن يتم قسرا كما حدث زمن امازييس ، حين نقل الاغريق من دفنة الى منف ، وكذا حينما أجبر معظم الاغريق على الإقامة فى نوقراطيس^(٢) .

وحدث فى بعض الحالات ، ان أصبح بعض هؤلاء الأجانب عن هويتهم الأجنبية صراحة حينما كانت تثقلهم واجبات الشعائر الدينية بما لا طاقة لهم به كما حدث بالنسبة لليبيين من سكان « ماريا وأبيس » كذلك حين رغبوا فى أكل لحم البقر . وأحيانا كانت الأعراق الأجنبية تندمج اندماجا كبيرا حين توجد فى مجتمع منعزل ، كما حدث بالنسبة للامونيين وكانوا فى سيوه ، واندمجوا مع الاغريق الذين أقاموا معبد أمون هناك .

ومن الجدير بالذكر ، أنه اذا كنا قد ذكرنا هذه المجموعات الأجنبية كأقليات فى المدن المصرية ، فإنه كانت هناك أقليات مصرية فى داخل مجتمع المدينة ولكنها اعتبرت أقليات على أساس الحرفة التى

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٦٦ — ٦٨ .

(٢) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ٤٣ — ٤٨ .

كانت غير مقبولة لدى المصريين • ومن ذلك ان رعاة ومربي الخنازير كان محروما عليهم دخول أى معبد بالمدينة ، كما كانت العلاقات الاجتماعية معهم شبه منفصلة ، وترتب على ذلك اقامتهم فى أماكن معينة من المدينة^(١) مما يوحى لنا بالمعازل الحديثة التى نعرفها فى المدينة الحديثة •

وعلى ذلك كان هناك ، نوع من التخصيص فى التوزيع الجغرافى للأجانب فكثر النحيو من الزنوج والهاميين ، والمهاجى السودانيين والليبيين (التمحو فى المدن الجنوبية والغربية) ، وأشهر بعضها بأهميتها فى خدمة الشرطة مثل المهاجى السودانيين^(٢) • أما المرتزقة فكانوا من أجناس متعددة ، وقد — كانت احيائهم متسعة فى المدن المصرية ، ابان الدولة الحديثة ، ولم يقتصر العنصر الأجنبى — اذا ما صنفناه بمعيار الوظيفة — على الجنود والشرطة ، اذ كان هناك العديد من الموظفين والتابعين من أصل أجنبى فى المدن المصرية وخاصة الكبرى منها فى مجالات السياسة والادارة وفى الفترات التى تزايد فيها النفوذ الأجنبى نستدل على وجود العناصر الأجنبية فى المدينة من الآثار الحضارية فيها ، فنجد زمن الهكسوس ، ان الحصون والمعسكرات أقيمت فى بعض مناطق شرق الدلتا على نمط غير مصرى^(٣) •

واذا ما قارنا بين الجاليات الأجنبية فى المدن المصرية ، والجاليات المصرية فى المدن الأجنبية فاننا نجد ان العقيدة المصرية كانت لا تشجع المصرى على الإقامة فى الخارج كثيرا اذا ما أخذنا فى الاعتبار ما يختص بالحياة الثانية وطقوسها المعقدة وضرورة دفنه فى مكان معين من مصر ، كل ذلك كان يدفع المصريين الى الخوف من الموت خارجها ، وبالتالي تقليل فترة الإقامة حتى اذا تواجد فى خارج مصر ، ويدل على عدم التوازن بين الجاليات الأجنبية فى مصر ، والمصرية خارجها ، ان المصريين كان لهم جاليات فى الشلال الرابع ، وجبيل فى فينيقيا « وبيسان » فى فلسطين منذ عصر مبكر قبل سنة ١٤٠٠ ق م •

(١) المرجع السابق . ص ٩٤ ، ص ١٤٤ — ١٤٦ .

(٢) ولسون : مرجع سابق . ص ٢٣٤ .

(٣) المرجع أعلاه . ص ٢٣٤ — ٢٣٨ .

وجاءوا بأسرى وجاليات من هذه المناطق مما كان لها تأثيرها في المدن المصرية ، وفي المقابل اشهد الطلب على بعض المهن المصرية كطلب الأطباء المصريين في آسيا الصغرى وفارس مما جعل المدن المصرية معبرا للثقافات (١) .

ويؤكد سميث « Smith » على أنه كان للجنود المرتزقة من الايونيين Ionians وغيرهم أحياءهم الخاصة في ممفيس ، منذ القرن السابع ق.م بينما كان هناك جيب يهودى في « الفاننتين » في القرن الخامس حتى الرابع ق.م . كما تؤكد ذلك بردية آرامية (٢) وفي الفترة البطلمية كانت هناك أحياء وطنية « مصرية » في المدن البطلمية كانت بها ، ويرى أنه في المدن المصرية ، اتجه اليونان الى التجمع بجوار بعضهم البعض . هذا بالطبع بخلاف المدن التي كانت أغريقية خالصة — لدرجة ان — الاسكندر حين قدم لمصر وجد بها مدينة أغريقية قديمة هي « نقراتيس » كانت بمثابة دولة أغريقية خالصة في داخل الدولة المصرية ، وهي قد تأسست ابان الأسرة ٢٦ من عهد الأسرات (٣) .

(١) المرجع السابق . ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٢) Smith, H.S. Society and settlement in Ancient Egypt, in ucko, P.; Tringham, & Dimelby, eds. op. cit., pp. 908-9.

(٣) ابراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الجزء الثانى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ . ص ٢٩٦ .

الفصل الثاني عشر

تباعد المدن في مصر القديمة

تعتبر محاولة إعادة رسم خريطة الشبكة العمرانية في مصر القديمة مهمة على قدر كبير من الصعوبة ، ومع ذلك فإنه من الممكن التثبت من مواضع قدر كبير من المدن الاقليمية وعواصم النومات أو المقاطعات وعلى ذلك ، يمكن دراسة التباعد بصورة أفضل اذا ما اتخذنا المدن الاقليمية وعواصم المقاطعات مثالا لذلك ، وهي أفضل من المدن التي تليها في الحجم مثل العواصم والمدن المقدسة ومدن المعابد والمزارات الدينية لان هذه لم يكن يحكم تباعدها عوامل جغرافية ومكانية بحثة بل أضيف اليها عوامل دينية وشخصية (كما في حالة اخيتاتون) ، كذلك هي أفضل من المستوى الأدنى من الحجم لان هذا المستوى يصعب التعرف عليه ، وغالبا كان أقرب الى المحلات الريفية منه الى المدنية .

وفي دراسة التباعد ، لن نقصر اهتمامنا على المسافة بل سنأخذ في الاعتبار العوامل الجغرافية والاقتصادية والوظيفية التي كانت تؤثر في تباعد المدن الاقليمية في مصر القديمة ، وهنا يجب أن نتذكر أن المدينة المصرية القديمة كانت دائما مسكونة بقطاع سكاني زراعي عريض تبعا لنشاطها في بيئة زراعية فيضية ، بل كانت الزراعة دافعا الى « ثورة حضرية » في رأى البعض مثل « جوردون تشايلد » .

وكانت نشأة عاصمة المقاطعة ونموها مرتبطة بالأحوال الاقتصادية في المقاطعة واستقرار الأمن ، وعموما كانت العاصمة أهم من سواها من محلات المقاطعة ، وروعى في حجم المقاطعة أن يكون حاويا لعدد كبير نوعا من السكان ، وروعى التوازن بين حجم السكان وموضع العاصمة بحيث يكون ممكنا لسكان أقصى الضياع القدوم الى السوق في العاصمة والعودة في مدى نهار واحد^(١) .

(١) ايتين دريوتون ، جاك فانوييه : مصر ، مرجع سبق ذكره ص ٤٤ .

ويرى « ممفورد »^(١) اعتمادا على بترى أن العواصم المبكرة لمديريات الوجه البحرى ، وكذلك المدن المبكرة فى بلاد ما بين النهرين ، كانت تبعد أحداها عن الأخرى فى المتوسط بمقدار ٢٠ ميلا تقريبا (٣٣ كيلو مترا) وأحيانا أقل من ذلك ، ويرى ممفورد أن ذلك الترتيب الحضرى ، والتباعد يرجع أساسا الى الحاجة الى مركز رئيسى لتخزين الحبوب ، بحيث يتسنى الوصول اليه بسهولة . وما دام التجار يدفعون دائما ثمن مشترياتهم حبوبا فلا بد من أن يكون التخزين قد أدى الى مضاعفة عدد مراكز الأسواق التى كانت تظللها رعاية إله رفيع القدر من الآلهة المحلية ، كذلك يرى أن التقارب أى قلة تباعد بعض هذه المدن المبكرة يدل على أنه فى وقت انشائها كانت تسود حالة من الأمن والسلام .

ويؤكد « وهبيبة » على العلاقة بين القرب من النيل ، وخصب التربة وامكانية الحياة والاستقرار على هذه الموارد المتاحة ، وبين تباعد المحلات ، اذ بعيدا عن النيل ، حيث تقل المياه المتاحة وبالتالي التربة الخصبة وامكانية الزراعة ، تزيد المسافة وتبتاعد المحلات^(٢) ، وإذا أخذنا فى الاعتبار وظيفة العاصمة الاقليمية كمكان للسوق ، فإن الزمن الذى يستغرقه الانتقال الى مكان السوق كان يقدر باليوم فى النيل والقنوات ، أو بسير الانسان ، أو بالمدة المقطوعة على ظهور الدواب^(٣) وأحيانا كانت المسافة لا توحى بالزمن المقطوع وتساوية بتساوى المسافة ، من ذلك ، أن المسافة بين حصن ومركز كرمة التجارى فى الجنوب حتى الجندل الثانى شمالا كانت تستغرق ٦ أيام على ظهور الحمير ، ومن كرمة الى الجندل الرابع جنوبا يومين على ظهور الحمير أيضا ، ومع تقارب المسافة فى الحلاتين ، فإن الاختلاف فى الزمن يرجع لعوامل جغرافية تتعلق بمورفولوجية المكان الذى يبين عن عبورة ملحوظة

(١) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٣١ - ٣٤ .

(٢) عبد الفتاح محمد وهبيبة : مصر والعالم القديم ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ . ص ٣٤١ .

(٣) ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٢٣٥ .

— في حالة الزمن الأطول^(١) ، وان كان المثال المتقدم ذكره ينسحب على مدن الحصون وليس على المدن الاقليمية .

ويربط « بترى » بين تباعد المدن المصرية القديمة ، وبين توافر الفائض من الحبوب الذي أدى الى تواجد أسباب القوة ، وظهور « حكومات المدن » كذلك بين توافر الفائض وتباعد المدن في الدلتا ، مقارنة ببلاد ما بين النهرين ويرى أن ذلك التباعد كان متوسطه ٢١ ميلا في بلاد ما بين النهرين ، مما جعل المخازن الرئيسية للمنطقة توجد في دوائر لا تزيد أنصاف أقطارها على ١٠ أميال ، وهي أطول مسافة اقتصادية لنقل المحاصيل مما انعكس على وظيفة مدن وحواضر المقاطعات وأهميتها لمخازن الغلال^(٢) وكان الملك يحول جزءا من فائض الحبوب من أجل بناء المدن ، حيث تبنى فيها الصوامع^(٣) للحفاظ على الحبوب وكانت معظم هذه الصوامع تبنى في عواصم المقاطعات والتي كان لابد أن تتباعد على مسافات مناسبة لحفظ وتخزين هذه الحبوب .

ويشير « O'connor » الى تقارب المسافات بين عواصم النومات في مصر القديمة في عهد الأسرات ، غير أنه يربط بين هذا التباعد وخصب التربة واتساع السهل الفيضي فمثلا يلاحظ أنه في المنطقة الكثيفة السكان جدا في شمال طيبة ، نلاحظ أن تباعد عواصم النومات يقل وتتقارب من بعضها البعض ، ويكون تباعدها عموما بصورة منتظمة عن بعضها البعض^(٤) ، وان شذ عن ذلك موضع مدينة فقط Gebtyu لأسباب سبقت الإشارة اليها وأهمها أسباب خاصة بسهولة الاتصال بمنطقة البحر الأحمر واستغلال الخامات هناك وبسهولة الوصول عن طريق الوديان التي تشق الصحراء الشرقية^(٥) ويربط « Kees » بين تقارب

(١) المرجع أعلاه . ص ٢٣٥ .

(٢) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٢٩ .

(٣) Jones, E. & Zandt, E., op. cit. p. 25.

(٤) O'connor, D. op. cit., pp. 688 - 89.

(٥) راجع موضوع الموضوع والموقع .

المدن وقلة تباعدها في مصر في بعض الأماكن والأهمية الاستراتيجية للمكان^(١) .

ويرى بوتزر «Butzer» أن المراكز العمرانية ذات الصبغة الزراعية لابد أنها كانت متساوية التباعد على طول مجرى النيل ، وكلما زاد عرض السهل الفيضي ، كلما زادت مساحة الظهير المستغل في انشاء محلات عمرانية تابعة ، Satellite settlements مما يقلل بالضرورة التباعد بين المحلات ويجعلها أكثر تقارباً^(٢) .

وتجدر الإشارة في ختام موضوع التباعد الى أن نمط ذلك التباعد في الوادي على وجه الخصوص يأخذ اتجاهاً مناقضاً بعض الشيء له في الدلتا (وهو نفس ما تبديه محلات العمران الحديثة حالياً في الوادي والدلتا) ونتج ذلك التناقض عن الشكل الطولي للوادي على عكس الدلتا الذي من شأنه أن يزيد التباعد ، كذلك فإن امكانية فهم التباعد في ظل بعض أبعاد نظرية المكان المركزي Central place theory وذلك في مصر القديمة فيه صعوبة شديدة ، وذلك لغياب عديد من المراكز العمرانية الدنيا ، كذلك ما ذكرناه عن الشكل الخطي للوادي جعل Butzer يقول ان الشكل السداسي اللصيق بالنظرية ، غير ملائم في حالة العمران المصري^(٣) وأيد الملاحظات السابقة أيضاً Dacey اعتماداً على أن التوزيع المدني والمناطق المخدومة بالمكان المركزي ليس دائماً مؤحداً uniform ولكنه في عديد من الحالات عشوائي random لا سيما في حالة المدن النهرية^(٤) والتي عادة ما يزيد التباعد بينها إذا كانت في منطقة ضيقة محصورة كما هو الحال في وادي النيل .

Kees, H., Ancient Egypt: A cultural Topography, London, (١)
1961, pp. 99 - 100.

Butzer, K., 1976, op. cit., p. 101. (٢)

Ibid., pp. 71 - 82. (٣)

Dacey, M.F., the spacing of river towns, A.A.A., G., Vol. 50, (٤)
1960, in Carter, H. op. cit., p. 115.

الفصل الثالث عشر

اقليم المدينة المصرية القديمة

إذا جاز لنا استعارة هذا المفهوم الحديث وتطبيقه على المدن المصرية القديمة ، فإننا سوف نجد أن المدن المصرية القديمة ، شأنها في ذلك شأن المدن المصرية الحديثة ، وغيرها من المدن في العالم كانت تبدي نظاما هيراركيا « تراتبيا » طبقا للوظائف التي كانت تضطلع بها ، وكون تلك الوظائف مركزية أو غير مركزية .

وبطبيعة الحال ، فإن المدن الكبرى ذات الوظائف السياسية كالعواصم والمدن الدينية المقدسة ، كانت ذات نفوذ طاع وكان مجال نفوذها يطوق البلاد كلها في بعض الأحيان . وإلى جانب تلك ، نشأت مدن اقليمية كان أهمها كما سبق عواصم النومات والتي كان يمكن اعتبارها مدن أسواق Market towns يأتى إليها سكان النوم للتسوق بحيث روعى في مواضعها أن تغطى منطقة أو أقليما يمكن الوصول من أقصى جزء منه الى موضع السوق في مدى نهار واحد ، بإحدى طرق المواصلات المتاحة آنذاك ، وهى اما راجلا ، أو بالدواب ، أو المواصلات النيلية .

ويرى « بترى » أنه كان يستحيل على مدينة بذاتها أن تفرض نفوذها على كل البلاد وتوحد كافة المقاطعات ، وذلك بسبب أن المادة المستخدمة آنذاك في التعامل هى الحنطة ، وعدم استطاعة نقل الحنطة لدفع الأجور في المناطق المتزامية البعيدة^(١) وفى عهد الأسرات الأولى كانت السلع تنقل محليا في دائرة محدودة من قرية الى أخرى دون ترخيص من الملك ، وأكثرها ينقل على صفحة النيل ، مما زاد من منطقة نفوذ المدن النيلية ، ويرجح « ولسون » أن هذه التجارة أو الحركة التجارية ربما كان يدفع عنها ثمن للملك أو الحكومة^(٢) .

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٣٠ .

(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٤ .

وكان من البديهي أن تختلف أشكال ومناطق نفوذ المدن تبعاً للأشكال الحضرية ، والوظائف الخاصة التي تحكم فيها أساساً الصفوة من المجتمع ، ولذا كانت المدينة المصرية منبعاً ليس للسلع والخدمات ولكن أيضاً للأفكار ، مما ساعد على إقامة أول أشكال التنظيم المكانية Spatial organization . في مصر حيث كانت المحلات والقرى أساساً مفتوحة open village مما ساعد على انتشار السلع والخدمات والأفكار على طول النيل على عكس مدن العراق القديم^(١) وذلك أدى إلى وجود بعض صور أقاليم المدن في مصر على خلاف العراق . وبالإضافة إلى اتساع مجال نفوذ المدن الكبرى كالعواصم كان أيضاً مجال نفوذ مدن المعابد كبيراً ، إذ كان يفد إلى مثل تلك المدن سكان المناطق المجاورة ، ليس من الريف فقط بل أيضاً من مدن أخرى مما أوجد نوعاً من التداخل في أقاليم المدن مما نراه اليوم ، وكان لكل مقاطعة إلهها ، ولكن من الملفت للنظر ، أنه في كثير من الحالات ، نجد أن المعبد الرئيسي في عاصمة « النوم » يخصص لإله يختلف عن الإله الرسمي للنوم ، وهياً ذلك الوضع المجال للعلاقات والحركة بين المدن لزيارة معابد الآلهة^(٢) وليس أدل على اتساع نفوذ وأقاليم بعض مدن مصر القديمة من أن « بيكي » قد ذكر أنه في مدينة « بوبأسطة » (تل بسطة) وهي قرب الزقازيق الحالية ، والتي كانت طوال التاريخ المصري القديم مدينة هامة ، كان يفد إليها للزيارة والحج والمناسبات الدينية حوالي ٧٠٠٠٠ شخص^(٣) ، وهو رقم كبير للغاية إن دل على شيء فعلى اتساع إقليم ومجال نفوذ هذه المدينة ، إذا علمنا أن « ممفورد » يقدر عدد سكان مصر كلها بعد الأسرة السادسة بحوالي ٣ (ثلاثة ملايين نسمة)^(٤) وفي مصر ، فإن البعض يرى ، ومنهم على سبيل المثال « ممفورد » أن وجود شعب قانع بحياته وراض بحكم

(١) Hugg, D. S., Spatial foundation of urbanism, dubuque, Iowa, 1979, pp. 29 - 33.

(٢) Mc'Evedy, colin, & Sarah, The Atlas of world history from the beginning to Alexander the great, London, 1970, p. 22.

(٣) جيمس بيكي : مرجع سبق ذكره . ص ٥٣ — ٥٦ .

(٤) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٥١ .

لهمعون^(١)، ووجوده الله بمعلني ، وسوق قريب ، قد جعل من الفلاح المصري (في القرية) وساكن المدينة الصغيرة ، غير راغب في التردد على المراكز الحضرية الكبرى أو العاصمة ، حيث الحكومة المركزية ، وهذا صحيح عموما ، ولكنه في نفس الوقت لابد وأن يؤخذ بحذر اذا ما علمنا أن بعض المدن كانت تجتذب قادمين من كافة أنحاء مصر كما هو الحال في المثال المتقدم الخاص بمدينة تل بسطة * ومثلها كانت مدن أخرى مثل هليوبوليس ، وتانيس ، وبوتو ، وايدوس ، وطيبة *

ولعله من المهم أن نشير الى أن اقليم المدينة المصرية القديمة بـ وكما هو الحال في المدينة المصرية الحديثة - لابد وأنه كان يغلب عليه الشكل الدائري المتسع في حالة مدن الدلتا التي كانت أسبق تقدما وكان يغلب عليه الشكل الشريطي المستطيل في حالة المدن الواقعة في الوادي * وعضد من ذلك الشكل أن معظم المدن كان تتخذ لها مواضع نهريية * ذلك أن المدن في ذلك الوقت كانت تكتسب أهمية كبرى ، ومن ثم اتساعا في اقليمها من اتساع ظهيرها الزراعي ، وعلى ذلك كانت هليوبوليس أثناء الاتحاد الأول مركزا للحياة الزاهرة ذات اقليم متسع ، عضد من ذلك كثرة الحبوب من الحقول المحيطة بها ، ومن غيرها والتي تدفقت على العاصمة ، ولا سيما بعد اختراع المحراث بعد أن كانوا لا يعرفون سوى الفأس الخشبي البطيء ولذا فإن المحراث كأول اختراع « ميكانيكي » ضاعف من مساحة المزارع مما جعل هليوبوليس تجنى ثمار ذلك ثروة أهلة زراعية واتساعا في اقليمها^(١) وكما سبق الذكر كانت الحبوب تحل محل العملة في التبادل والعلاقات ومقياسا للأهمية والحالة الاقتصادية ، بمثل ما هو عليه الحال اليوم في بعض العملات الهامة والمعادن النفيسة كالذهب * وكان الفائض أحد أسباب اتساع اقليم المدينة مما أوجد نظاما اقتصاديا حضريا مختلفا عما كان سائدا من قبل في حالة النظام القروي أو القبلي *

وقد عضد من اتساع أقاليم مدن الدلتا عن مدن الصعيد ، أن الأولى كانت أسبق في التجارة كما دلت على ذلك الآثار والنقوش

(١) برسيه : مرجع سبق ذكره . صفحات متعددة .

١٤٠ -

التمثلة في السفن والقوارب وأيضا عضد من ذلك كثرة المجارى المائية في الدلتا وقد علمنا أهمية الموضع النهري أو المائى في الاتصال في ذلك العهد ، مما جعل مدن الدلتا تحظى بقصب السبق في ذلك المجال ، وليس أدل على التشابه بين أهمية نفوذ بعض المدن القديمة ، كما هو الحال في المدن الحديثة ، ما شاهدناه من أن نفوذ بعض مدن مصر وصل الى خارجها متمثلا في السلع ، والأفكار والمعتقدات مما أوجد نفوذا مصرية في المدن الأجنبية ، سواء في الجانب المبادى أو الروحى .

وكما هو الحال اليوم ، فان المدن الأكثر نفوذا كانت ذات أثر واضح وخاصة في أوقات الازدهار في ابتداع الأساليب والطرق الفنية والأفكار ، ومنها كانت تجد سبيلها الى عواصم الأقاليم ، في سهولة .
وان كان لذلك آثاره السلبية اذ لم تنتج المدن الاقليمية في أن تكون لها خصائص مميزة في الفنون المختلفة^(١) .

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٥٧ ،

الباب الثالث

العاصمة المصرية القديمة وتفتح مواقعها

الفصل الرابع عشر : العواصم الباكورة منذ فجر التاريخ وحتى قيام

طيبة كعاصمة قومية *

الفصل الخامس عشر : العاصمة المصرية منذ اتخاذ طيبة كعاصمة

وحتى نهاية عصر الأسرات *

الفصل الرابع عشر

المواسم الباكرة منذ فجر التاريخ وحتى قيام طيبة كعاصمة قومية لأول مرة

العاصمة المصرية القديمة وتغير مواقعها :

يعتبر هذا الموضوع أحد موضوعات جغرافية العبران المصرى القديم الهامة . فكلما تغيرت العاصمة مكانا spatial تغيرت زمانا chronological وتتبع العاصمة المصرية منذ عهود ما قبل التاريخ ملئ بالاثارات الجغرافية الهامة التى لم تسلط عليه أضواء البحث حتى الآن . كذلك نلاحظ أن غياب الأدلة المادية للعاصمة المصرية القديمة كما هو الحال فى شأن بقية المدن والمحلات العمرانية ، جعل بعض الباحثين يجنح الى التعميم حيث توجد آثار ومعلومات واهرة نسبيا ، كما هو الحال بشأن العمارة عاصمة اخناتون وفى ذلك خطأ كبير .

على أية حال ، فأننا سوف نطاول نتبع رحلة العاصمة المصرية القديمة منذ أقدم العصور ، للوقوف على أهم التضمينات الجغرافية التى لصقت بكل عاصمة والأسباب الجغرافية وغير الجغرافية التى كانت وراء تغير العاصمة زمانا ومكانا .

المواسم الباكرة منذ فجر التاريخ وحتى قيام طيبة كعاصمة فى الأنسة الحادية عشر :

فى فجر التاريخ ، كانت مصر مقسمة الى مقاطعات مستقلة ، وبعدها أصبح للوجه البحرى مقاطعاته ، وللقبلى مقاطعاته ، وكان فى الوجه البحرى مملكتين ، أحدهما عاصمتها فى الغرب (بحدت قرب دمنهور) والأخرى فى الشرق (بوصير قرب سمبود) ثم اندمجت المملكتان فى مملكة واحدة عاصمتها بحدت واللهها حورس .

وفي ذات الوقت ، اتحدت مقاطعات الوجه القبلى ، فى مملكة واحدة عاصمتها (نقادة) الحالية قرب قفط ، والها (ست) •

وغزت مملكة الشمال ، مملكة الجنوب ، وتوحدتا فى مملكة واحدة عاصمتها (بوسير) ثم أعقب ذلك ثورة الجنوب على الشمال ، ولكن هزم الشمال الجنوب ، وتوحدت المملكتان ثانية فى مملكة واحدة عاصمتها قرب هليوبوليس حتى تكون متوسطة بين الشمال والجنوب • وهكذا برز العامل الجغرافى الخاص بمركزية العاصمة وتوسطها منذ هذا الوقت المبكر فى تاريخ مصر • وضعفت الدولة بعد ذلك ، فانفصل الشمال تحت زعامة « بوتو » كعاصمة ، والجنوب تحت زعامة نخن (الكوم الأحمر) كعاصمة^(١) • وهكذا أصبحت مصر بعد ذلك مقسمة بين هاتين المملكتين ، حتى توحدتا فى بداية الأسرات تحت زعامة « هليوبوليس » التى كان لها اشعاعها الثقافى والدينى ، فضلا عن الزعامة السياسية بكونها عاصمة ، فكانت بالإضافة الى كونها مدينة أولى *primate city* ، مركزا لعبادة اله الشمس فى مصر ، وكانت مقر جامعة الكهنة الذين أتوا من جميع أنحاء مصر ، فعبّر ذلك عن مجال نفوذها الثقافى والدينى ، خاصة وأنه كان لها نظام خاص بعبادة آلهة الشمس يعرف بالتاسوع ويشمل ٩ آلهة كلها متفرعة عن الاله « رع » • ومما يدل على أهمية هليوبوليس ، أنها بعد تحول العاصمة منها الى غيرها ، لم تفقد أهميتها بسبب وظائفها الأخرى غير السياسية والإدارية • حتى بعد عديد من السنين ، وحين ظهرت طيبة كمناخس سياسى ودينى (آمون) لهليوبوليس ، لم تفقد الأخيرة أهميتها ، لأن الاله آمون كان عليه أن يستجيب لرغبات اله هليوبوليس ، وأن يقرن اسمه بالاله هليوبوليس « رع » تحت اسم « آمون رع » قبل أن يفرض نفسه على المجتمع المصرى • وهذا يعطينا فكرة عن بقاء أهمية بعض عواصم مصر القديمة بالرغم من زوال أهميتها كعاصمة وأنفول نجمها إداريا • وظلت هليوبوليس طوال الحكم المصرى القديم مدينة عظيمة ، ويعطينا هذا إشارة هامة للعلاقة بين المدينة والمعبد فى مصر القديمة •

(١) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٣١ - ٣٩ .

اذ كان للمعابد أهميتها وممتلكاتها الاقتصادية ، ومواردها التي لم تكن بالضرورة قريبة من المدينة التي بها المعبد الذي يمتلكها ، بل انه في بعض الحالات كانت ممتلكات المعابد تبعد عنها ٢٠٠ ميلا ، بل ان المعابد في المدن كان لها سفنها الخاصة التي تصل ليس الى موان مصرية فقط ولكن لموان أجنبية^(١) وجذب نفوذ هليوبوليس قادمين ليس فقط من مصر ، ولكن من أنحاء العالم في ذلك الوقت ، على الصورة التي نجدها في مجال نفوذ الجامعات الحديثة رفيعة المستوى التي يفد اليها طلاب العلم منجذبين الى مجال نفوذها الثقافي ، وقد قضى أثلاطون ١٣ عاما يتلقى بها العلم كما ذكر هيردوت^(٢) .

واذا ما حاولنا اليوم أن نعيد رسم صورة هذه العاصمة الباكزة بالطريقة التي نعرفها اليوم في مدن العالم الكبرى برسم خط السماء الخاص بها ، فانه لا بد وأن هذا الخط كان يبدو عاكسا لذرى معابدها الضخمة ومسلاتها ومبانيها الثقافية والدينية التي عكست وظائفها ، ولم تكن لهليوبوليس أهميتها الدينية والثقافية التقليدية لمحسب ، بل كانت تستقبل تجارة آسيا عبر برزخ السويس^(٣) .

ويرجع تاريخ العاصمة هليوبوليس الى حوالي ٤٢٤٠ ق.م ، وينظر لها على أنها رمز الوحدة ، ومن أسمائها الأخرى « أون » وقد ظلت عاصمة فترة طويلة رغم اختفاء أهميتها كعاصمة كما سبق ذكره بفضل وظائفها الأخرى يدل على ذلك الاضافات العمرانية التي أضيفت الى رقعته المبنية عبر التاريخ .

وبعد هليوبوليس ، جاءت عاصمة في موقع منف ، أطلق عليها « القلعة البيضاء » ، أو الحائط الأبيض ، وعموما فان منف عرفت

Kemp, J., op. cit , pp. 557 - 59.

(١)

(٢) جيمس بيكي : الآثار المصرية في وادي النيل ، مرجع سبق ذكره . ص ١٥٢ .

(٣) محمد السيد غلاب ، يسرى الجوهري : جغرافية الحضرة ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، بدون تاريخ . ص ٤٠٨ — ١٠ .

بهذا الاسم منذ الأسرة السادسة ، وينسب بناؤها الى «ميناء» عند رأس الدلتا (١) .

وعموما فإنه بعد الأسرة الثانية ، حيث كانت العاصمة هليوبوليس ونازعتهما الأهمية أحيانا « ثنى » في الجنوب قرر الملك « زوسر » (الأسرة ٣) نقل العاصمة بصفة نهائية الى الموضع الذى عرف باسم « منف » بعد ذلك ، حتى يرضى أهل الجنوب ، الذين قيل أنهم كانوا غير راضين عن موضع هليوبوليس (وربما كان ذلك لوجود هليوبوليس في شمال رأس الدلتا على الضفة الشرقية للنيل ، بينما كان الثقل السكانى في الوادى على الضفة الغربية للوادى ولذا كان اختيار موضع منف قريبا من رأس الدلتا ولكن أقرب الى الجنوب من ناحية ، وفي نفس الضفة التى بها المجتمعات السكانية وهى الضفة الغربية) . وعرفت منف بهذا الاسم فى الأسرة ٦ كما سبق الذكر ، حين شيد فيها الملك (بيبى — من نفر) حيا أطلقوا اسمه عليه ، ومع مرور الزمن أصبح اسم الحى ، يطلق على اسم المدينة كلها ، وإن أصبح اسمها اليونانى بعد ذلك ممفيس ، والعربى منف (٢) .

وكانت العاصمة منف التى أختير موضعها بعناية ، وأضاف ميناها الى أهمية الموضع تدعيما لوظيفة المدينة الدفاعية والتجارية ، وكانت لها مركزية طاغية على مصر ، فلم تكن منطقة نفوذها تشمل الدلتا فقط كما كان الحال فى « بونتو » أو معظم الوادى ، كما كان الحال فى « نخن » بل كان اختيار الموضع عند رأس الدلتا دالا على الفهم العميق من قبل فراعنة مصر لمزايا الموضع هنا بالذات لتحقيق ربط الشمال والجنوب ، وذلك الفهم الذى بدأ بعد ذلك حتى أثناء الفتح العربى ولم تتحرر عاصمة مصر من أسر وجاذبية ومزايا الموضع هنا حتى الآن . ويدل عليه ، تتابع عواصم مصر بعد الفتح العربى فى المنطقة المقابلة لمنف أى فقط كان الاختلاف أن تلك العواصم كانت فى شرق النيل بينما كانت منف فى غربه .

(١) هيرودوت : مرجع سبق ذكره . ص ٦٤ .

(٢) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . ص ٩٢ — ٩٣ .

وكما يقرر « حمدان » أن مصر وإن عرفت أحيانا عواصم قامت في مواضع خلاف موضع منف ومنطقتها (سواء في شرق النيل أم غربه) مثل العواصم الجنوبية القصوى كطيبة فيما بعد ، أو شمالية قصوى مثل أفاريس وغيرها ، فانما كان ذلك لأسباب أهمها أن مزايا الموضع للعاصمة كانت غير متضخمة في المرحلة التكوينية للدولة المصرية ، أو لأن عواصم الشمال المتطرفة كانت من اختيار الغزاة يصديق ذلك على أفاريس (الهكسوس) وعلى الاسكندرية (البطلمية الرومانية) (١) .

وقد ظلت منف مدينة هامة ، حتى في الفترات التي تخلت الإصواء فيها عنها ، واختيرت غيرها كعاصمة . وكان من أهم مبادئها معبد « بتاح » الذي ظل محتفظا بأهميته حتى عصر الأسرة ٢٠ ، وكانت أهمية المدينة في الواقع تتبع من أهمية معبودها ، وكما نعرف في ظل جغرافية المدن الحديثة فإن أهمية موضع وموقع المدينة هي نسبية بحكم الظروف المتغيرة التي تمر على المدينة منذ اختيار موضعها لأول مرة ، ويمكن القول ، أن موضع منف كان له علاقة وثيقة بموقعها ، فقد اختاره مينا موضعاً مرتبطاً بالموقع ارتباطاً وثيقاً فأراد أن تكون على اتصال سهل بين الشمال والجنوب ، وأما التضمين الثاني في سياق الموضع والموقع فهو ، أن اختيار موضع منف على الضفة الغربية كان يأخذ في الاعتبار مجرى النهر كفاصل جغرافي له شأنه في رد هجمات بدو الصحراء الشرقية عن العاصمة وأيضاً بدو شرق الدلتا ، أما بدو المناطق الغربية فقد أمن شرهم حين حصن مناطقها الغربية والجنوبية بالفاصل المسائي بعد التعديلات التي قيل أن مينا أجراها في مجرى النيل .

واختار موضعها ، سهل الاتصال بالدلتا للغاية ، والتي كان يتوقع أن تثير المشاكل أمامه أكثر من منطقة الوادي الذي يمثل المنطقة التابعة له شخصياً . وإذا أمعنا النظر في موضع العاصمة نجده ليس عند رأس الدلتا شمالاً ولكن يبعد جنوباً عدة كيلو مترات لتكون سهلة الاتصال مع أنصار الملك في الجنوب ، والملفت للنظر جغرافياً ، أن مينا

(١) جمال حمدان : في نيزموند ستوارت ، القاهرة ، ترجمة يحيى حقى ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، مارس ١٩٦٩ . ص ١٧ - ١٨ .

لم يقنع بمميزات الموضع الطبيعية ، ولكنه كما هو ثابت تاريخيا ، أضاف الى هذه الخصائص ، خصائص جديدة من صنع الانسان كما تقدم ، لتصبح العاصمة أكثر قدرة على الدفاع عن نفسها ضد المغيرين ، فعُدل في الموضع ، وربطها بالقنوات ودعم جسور النيل^(١) .

وظلت منف عاصمة مزدهرة ، ذات سلطة طاغية ، حتى ضعفت في عهد الأسرتين السابعة والثامنة ، التي في أثنائها ادعى الملوك ، حكم البلاد كلها ، رغم أن كثيرا من الحكام الاقليميين في البلاد كانوا لا يعترفون بسلطان العاصمة وجدير بالذكر أن ضعف العاصمة كان يعطى الفرصة لقوة ونفووذ العواصم الاقليمية ، ومن ذلك أنه لما ضعفت مركزية وسلطة منف ظهرت أسر مناوئة في قفط ، وبعدها في اهناسيا (في الفيوم)^(٢) ولذا يعتقد بعض المؤرخين أنه كان هناك بعد الأسرة السابعة أكثر من عاصمة مثل « شتوك » الذي يعتقد في وجود حكام حكموا من كل من قفط واهناسية ، وان كان بعض الاثريين يعارض ذلك^(٣) .

ومهما ثار الجدل حول تعدد العواصم في الفترة المذكورة ، فإنه من الثابت أن العاصمة تحولت مع بداية الأسرة التاسعة الى مدينة اهناسيا (نن - نى - سوت) عند مدخل الفيوم ، والذي كان له أثره بالطبع على مورفولوجية كل من العاصمتين القديمة منف والجديدة اهناسيا ، نتيجة اختيار الأخيرة كمقر ملكي وما ينبع ذلك من اتساع في مجال نفوذ المدينة متعدد المجالات ، وكما حدث في الماضي تكررت الصورة بعد الأسرة التاسعة فدب النزاع بين ملوك وحكام اهناسيا ، وبدأت قوة طيبة في الظهور^(٤) وان كان « ويلسون » يذكر أن انتصار طيبة الذي تم في النهاية ، يعتبر مشكلة تحتاج الى تفسير ، لأن اقليم الجنوب كان أفقر في امكانياته وموارده ، كما أن موقع

(١) جيمس بيكي : مرجع سبق ذكره . ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ١٨٦ .

(٣) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . ص ١٦٣ .

(٤) ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ١٨٧ .

اهناسيا أكثر توسطًا عن طيبة بين أقاليم مصر ، بمثل ما هو ملائم أيضا للاتصال الخارجى^(١) ، كما أن اهناسيا أظهرت نفوذًا ثقافيًا كبيرًا امتد خارجها أحيانًا ، كما نجده اليوم في المدن الثقافية الكبرى في العالم التي يتعدى نفوذها حدود الدول ذاتها، ومن ذلك وجود آلهة مصرية تعبد في خارج مصر مثل ببلوس في فينيقيا ، ولما كان هناك ملوك من طيبة معاصرين لملوك اهناسيا ، جرت الحروب ، وانتصر ملوك طيبة ، بعد أن ظل نفوذ حكام اهناسيا طاغيا على مدى الأسرتين التاسعة والعاشرة ، وان قال البعض بوجود نفوذ إداري للعاصمة القديمة منف •

(١) المرجع أملاه . ص ٢١٦ .

الفصل الخامس عشر

العاصمة المصرية منذ اتخاذ طيبة عاصمة قومية وحتى نهاية عصر الأسرات

أصبحت طيبة عاصمة الأسرة ١١ ، وإن كانت المدينة ذاتها قديمة ، بمعنى أن طيبة لم تكن لتكون عاصمة ، بل كانت مدينة أقدم من الفترة التي أخيرت فيها كعاصمة . وكان تحول العاصمة من اهناسيا الى طيبة مقرونا ببعض الاضطرابات ومظاهر الضعف التي اعتورت الحياة المصرية مما يؤكد على أن حالة الفوضى في الماضي — كما هي في الحاضر — كانت تنعكس على المدن بعامة والعواصم بخاصة ، فنجد أنه في قصة « الفلاح الفصيح » بعض الدلالات الجغرافية والعمرانية اذ أنه كان متوجها الى العاصمة اهناسيا باعتبارها سوقا تجارية ، ومركز خدمات ، وبؤرة مركزية للحياة الاقتصادية في البلاد ، فتعرض في ضواحيها للنصب والاعتداء ، مما يدل على انعدام السلطة ، وغياب الرخاء والتقدم الذي كان يشيع فقط في أوقات الرخاء وتقدم العاصمة وقوة نفوذ السلطة المركزية بالعاصمة . وحينما استقرت الأمور لطيبة كعاصمة بعد اهناسيا ، وسقوط الأخيرة في عصر منتوحثب الثاني ، ورأت العاصمة طيبة عهدا جديدا في تاريخها ، وكبرت مساحتها ، وزادت رقعته المبنية نتيجة الرخاء والأموال التي تدفقت عليها ، من ضرائب البلاد ، ولم يدخر منتوحثب وسعا في تجميل العاصمة وانشاء المعابد المختلفة بها ، وكانت العناية بطيبة ، ليست قاصرة على مدينة الأحياء (في الضفة الشرقية) ولكن أيضا على مدينة الأموات (الضفة الغربية) .

وهكذا ، كان اختيار طيبة لأول مرة كعاصمة قومية في عهد الأسرة ١١ بداية شهرتها كمدينة ذائعة الصيت لا زالت تجذب الاهتمام حتى اليوم رغم أن بعض الكتاب يرجع نشأتها الى الأسرة الأولى ممثلة في نواة المدينة وقلبها القديم الواقع بين معبدى الأقصر والكرنك ، شرقى النيل وبين ذراع أبو النجا ومدينة هابو على الشاطئ الغربى ، ومن

الطريف أن « هومير » شاعر اليونان العظيم ذكر أنه كان بها مائة باب يتسع كل منها لمرور مائتي رجل^(١) .

وفي عهد الأسرة ١٢ ، في عهد أمنمحات الأول ، رأى برأيه الثاقب أنه لا بد أن تنتقل العاصمة المتطرفة نحو الجنوب ، الى موقع أكثر توسطا في الشمال (ويرى بعض المؤرخين أن نقل العاصمة كن في عهد سلفه منتوحتب الرابع) وعلى ذلك جرى اختيار موضع له الكثير من المزايا الجغرافية التي تحدثنا عنها في اختيار مواضع عواصم مصر القريية عند قمة الدلتا ، مثل هليوبوليس (أون) ومنف ، والتي أبرزها توسطها ، ومركزيتها ، وسهولة اشرافها على الشمال والجنوب في آن واحد .

واختير الموضع الجديد في منطقة على مقربة من منف ، وسمى المكان الجديد باسم له أيضا دلالاته الجغرافية ، اذ أطلق عليه اسم « اثت تاوى » أى القابضة على الأرضين ، مشيرا بذلك الى الشمال والجنوب^(٢) وفي اختيار موضع العاصمة الجديدة للأسرة ١٢ ، فكر ثاقب اذ غلب ذلك الملك « أمنمحات الأول » مزايا الموضع الشمالى على النواحي العاطفية بصفته طبيعى المنشأ .

ومع ذلك ظلت العناية بطيبة كذلك قائمة ، وحسن من مظهرها وأنشأ معابد جديدة ، وحسن القديمة ، وكما كان لكل عواصم مصر حتى هذه الفترة جباناتها اللصيقة بموضعها ، فانه كان أيضا للعاصمة الجديدة (اثت تاوى) جبانتها في منطقة « اللثت » وتجدر الاشارة ، الى أن الاهتمام بالاهرامات كشكل معمارى لصيق بمدن الموتى ، عاد الاهتمام اليه في هذه الفترة ، وجدير بالذكر ، ونحن في سياق الحديث عن مدن الموتى ، أنه في الفترات المتدهورة التي كانت تعقب قيام وازدهار العواصم ، كانت تكثر الجرائم ، وكان أهمها نهب مدن الموتى وليس مدن الأحياء باعتبار الأولى أكثر ثروة من التحف والجواهر والأشياء القيمة التي كانت تدفن مع الميت .

(١) هيرودوت : مرجع سبق ذكره . ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . ص ٢١٢ .

ومع الأسف ، فلم يقدر للعاصمة الجديدة في الأسرة ١٣ الازدهار والنمو لفترة طويلة ، اذ قدر لها الضعف قبيل فترة الانتقال الثانية. وقبيل غزو الهكسوس ، وضعفت الحكومة المركزية وتكررت الصورة التقليدية من اتساع نفوذ بعض مدن الأقاليم وحكامها ، كرد فعل لضعف نفوذ العاصمة ، ولذا نجد بعض المدن بدأت تظهر على مسرح التنافس الحضري المرتبط بقوة نفوذ الحكام الاقليميين ، فظهرت أهمية « سخا » وأسرة بها تنافس حكم طيبة واثت تاوى لذلك تعددت مناطق نفوذ المدن المطالبة بالحكم في الأسرتين ١٣ ، ١٤ مثل طيبة وقفط ، وأسيوط ومدن الدلتا كما سبق الذكر .

لذلك نجد أنه في عهد الأسرة ١٤ أصبحت العاصمة في « سخا » والتي كانت عاصمة تسمى بالمصرية « خاست » ويطلق على العاصمة (خاسوت) و (سخوت) وكانت العاصمة عاصمة المقاطعة السادسة في الدلتا^(١) ولكن ، ونظرا لأحوال الضعف القومي في ذلك العهد بقيت للعاصمتين القديمتين منف ، وطيبة أهميتهما الإقليمية الكبيرة وبالذات النواحي الدينية .

وكان لابد لتفاقم الأمور من ضعف وتدهور ، أن تقع البلاد تحت حكم الأجانب من الهكسوس ، ولذا فمع الأسرة الخامسة عشرة ، أصبحت العاصمة لأول مرة في أفارييس أو (أواريس) في شرقي الدلتا ، وهو موضع يختار في هذه المنطقة لأول مرة ، ويبرز بجلاء كيف أن الموضع كان يتدخل في اختياره أحيانا ظروف خارجية تماما ، واختار الهكسوس ذلك الموضع عند أطراف الدلتا الشرقية ليكون قريبا من موطنهم في آسيا ، ولاعتقادهم أن الأشوريين سوف يقومون بغزو مصر حيث كانت قوتهم ظاهرة آنذاك ، ولذا أختير موضعها كمدينة أولى في وادى الطميلات طريق المواصلات الطبيعي مع آسيا^(٢).

(١) سليم حسن : اقسام مصر الجغرافية ، مرجع سبق ذكره .
ص ٧٤ .

(٢) El-Gouhary, Y., The Ancient Capitals of Egypt, Bull. Fact. of Arts, Alex. Univ. (19), 1966. p. 7.

- ١٣٣ -

ويرى « ويلسون » أن غزو الهكسوس ، وتأسيسهم عاصمتهم في الشمال في الدلتا ، لم يضعف العاصمة الجنوبية طيبة فقط لأن قطب الحياة السياسية والإدارية والتجارية اتجه شمالا ، ولكن نجد أن ممتلكات مصر الجنوبية أيضا أصابها التصدع مثل طيبة ، ومثال ذلك تهدم حصن كرمة في المنوبة ، ومثل ذلك يقال عن غيرها من المدن والمواقع .

ولا شك أن أفاريس (أو صان الحجر) التي ظلت عاصمة لمصر من الأسرة ١٥ الى الأسرة ١٨ والتي عرفت باسم تانيس بعد ذلك قد تغير تركيبها عرقيا بين ثلاثة عهود : الأول في عهد الهكسوس حين تأسست ، والثاني في عهد الدولة الحديثة ، والثالث في العهد اليوناني الروماني ، وذلك بحسب العناصر العرقية الغالبة في كل عهد من هذه العهود .

وقد غلب على مورفولوجية أفاريس الطابع العسكري واحتلت ثكنات الجيوش والجنود مساحة واسعة ، كما كانت بها عدة أوجه اختلاف جوهرية مع ما بناه المصريون ، من ذلك تحصين المدينة بشدة لوجودها كبقوة دخيلة وسط وجود مصري صميم ولذلك كانت أفاريس نشازا حضريا ضمن الشبكة المدنية المصرية^(١) يدل على ذلك أنه حتى المباني الدينية المصرية تأثرت بالهكسوس ، فظهر الاله « سوتخ » في مظهر آسيوي . وبرغم أن أفاريس أصبحت عاصمة مصر زمن الهكسوس ، فإن أول ملولهم أقام في منف وإن ظلت أفاريس العاصمة الرسمية من الأسرتين ١٥ - ١٨ .

وبعد حروب التحرير أصبحت طيبة مرة أخرى في عهد الأسرة ١٨ العاصمة للدولة المصرية الناهضة التي وصلت حدودها حتى الشلال الرابع .

وكان لعودة الاهتمام الى طيبة مرة ثانية ، أثره الكبير في تقدمها من جديد ، لا سيما وأنه حكم مصر إبان عهد الامبراطورية ملوك عظام ،

(١) راجع ما ورد عن مورفولوجية المدن من هذا البحث .

١٣٤ هـ

عمل كل منهم على زيادة عمرانها من المعابد والمباني ، والاضافات التي جرت خاصة لمعبد الكرنك والذي حرص تحوتمس الأول أن يكون خليقا بأن يمثل المعبد الأول لعاصمة الامبراطورية فأزال المعبد المتواضع الذي كان قائما من عهد الأسرة ١٢ وبنى مكانه معبدا عظيما ، أمامه مسلتان جرانيتيتان ، وكذا أضاف من تلى ذلك من ملوك لمباني طيبة ومورفولوجيتها ، وكان ذلك سواء في جهتها الشرقية أو الغربية ، اذا نظرنا الى طيبة كمدينة ثوأمية Twin city أو كمدينة أحياء في الشرق ، ومدينة أموات في الغرب ، وكان من أعظم الاضافات معبد الدير البحري الذي أقيم في غرب طيبة زمن الملكة حتشبسوت .

ولم تكن طيبة في عهد الامبراطورية عاصمة لمصر فقط ، بل للعالم المعروف آنذاك ، اشارة الى نفوذها السياسى والحربى والتجارى ، والثقافى العالمى ، ولم يكن ذلك التقدم فى العاصمة ، الا انعكاسا للقوة والسلطة المركزية التى افتقدتها العاصمة زمنا من الدهر والتى كانت طيبة فى أثنائها تنحدر الى مجرد مدينة اقليمية^(١) .

وفى عهد تحوتمس الثالث بالذات اهتم بالمنشآت التعليمية التى يتعلم فيها النبلاء وأولادهم من مصريين وأجانب الفنون العسكرية والعلوم ، بينما فى عهد ملك آخر طبعت المباني والمنشآت بالطابع الملاحربى ، وهو الملك أمنحوتب الثالث الذى كان ميالا للسلم ، ويهوى إقامة مبان ضخمة جميلة ويرعى الفنون ، فزاد عمران طيبة فى عهده معبدا ضخما لآمون فى جهتها الغربية . وعرفت المدينة فى ذات العهد أشياء جديدة ، وان كانت موجودة من قبل بنسب أقل من ذلك أنه كانت بها أحياء خاصة بمشارب الجعة ، وما فيها من المغنيات

(١) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . ص ٢٨٥ ، ويلاحظ ان حروب التحرير المصرية ضد الهكسوس لم تخل من اشارات جغرافية اذ ان ملك الهكسوس حاول اغراء ملك كوش (النوبة) أن يناوش « كامش » الملك المصرى من الجنوب ، ثم يقتسمان معا مدن مصر فيما بينهما بعد ذلك ، ولكن أدراك الملك المصرى لاستراتيجيات المكان جعله يحكم الحصار على بعض الواحات باعتبارها على رأس الدروب الموصلة الى مصر ، راجع فخري . ص ٢٥٦ .

والراقصات ، يرثاها العمال وغيرهم من طبقات الشعب ثحاكى حياة
الطرب والدعة التى كانت فى القصر الملكى وبيوت النبلاء (١) .

وقد قدر للأسرة ١٨ أن تشهد تتابع ٣ عواصم هى أفاريس ،
عاصمة الهكسوس ثم طيبة رمز التحرير والعاصمة المصرية القومية ،
وبعدها « اخيتاتون » أو « تل العمارنة » التى كانت أقصر العواصم
المصرية عمرا . اذ أن الملك اخناتون اختار موضع العمارنة لبناء عاصمته
به كما سنعرف تفصيلا . ولكن من بين هذه العواصم تبرز طيبة ، فى
الأسرة ١١ ، ١٨ كعاصمة ترمز للتحرير واستعادة السلطة ، فى المرة
الأولى من الملوك المحليين وحكام الأقاليم ، فى الثانية من الغزاة
الآسيويين ، والملفت للنظر أنها اضطلعت بهذه المهمة رغم بعدها ٧٠٠ كم
عن منف ، لذلك لم يكن عجيبيا أن تحدث المؤرخون عن عظمتها وأبهرتها
بين المدن المصرية ، فهى أحيانا واست (أى الصولجان) باسم الاقليم
التى كانت تحكمه ، وآنا هى مدينة آمون ، الاله القومى ، وثالثة هى
المدينة فقط دليل تفردا بين مدن مصر .

واذا عقدنا بعض المقارنات بين طيبة وبين ما سبقها من عواصم
مصرية ، وخاصة هليوبوليس ومنف ، نجد أن طيبة كانت أقل أهمية
كميناء نهري على النيل ، اذ تفوقت عليها منف بعد أن عدل موضعها
ليسمح بإنشاء ميناء هام يجعل حتى السفن القادمة من الخارج تصل
إليها . وان تساوت أهمية طيبة وهليوبوليس فى المجال الدينى كمقر
للاله « آمون » . كذلك نجد أن طيبة لم تقع على موقع حصين طبيعى ،
الا أن نشاط ملوكها هو الذى جعل لها أهمية عسكرية ، وكان من عوامل
نموها واستمرارها قربها من النوبة ، الذى أفادها اقتصاديا اذ كانت
مناجر النوبة تصب فيها باعتبارها العاصمة وأهم المدن فى المسافة من
النوبة وحتى موضع طيبة .

(١) المرجع السابق . من ٢٨٥ - ٣٠٤ .

ولقد قُدمت الطبيعة مقومات العمران في طيبة سواء في مدينة الأحياء أو في مدينة الأموات . ففي الأولى نجد سهلاً متسعاً مسيحياً خصيباً حيث ترتد حافة الهضبة كثيراً نحو الشرق ، ويسير المجرى العريض يفصل بين شرق وغرب طيبة حيث على عكس الحال في شرقه تقترب الهضبة من النهر ، ولا تترك إلا شريطاً ضيقاً ، فأتاح ذلك بناء المقابر والمعابد الشهيرة المضمخة في الهضبة الغربية ، ووديانها للملوك العظام وإن لم تحرم الضفة الشرقية من هذه العابد ، ولعل في مباني الأقصر والكرنك أعظم شاهد على ذلك .

ويرى الكثير من العلماء ، أن صفة مدينة طيبة ذات اسائة باب ، لا يقصد بها أبواب المدينة ذاتها ، ولكن أبواب المعابد ، دليل وفرتها وتعدددها^(١) وكانت شوارعها بعرض حوالى ٦ أمتار ، وربما كان بعضها مرصوفاً على نحو ما كانت الطرق الصاعدة الى معابد الاهرامات في الدولة القديمة ، أما بقية ملامح مورفولوجية المدينة ، فتدل على أنها كانت متسعة حقاً ، وكانت النواة كما سبق القول حول معبد الكرنك ، ومن بيوتها ما كان ذا ثلاثة طوابق ، وهو أمر لم يكن كثير الحدوث في المدن الاقليمية الصغيرة .

كذلك كثرت بها الحدائق ، وتخللت شوارعها الأشجار ، ورغم أن مدينة منف هافت طيبة في نسبة الأجانب (نظراً لموقعها الشمالي الأقصى) إلا أنه في عهود التوسع ، جلب الفراعنة أبناء الجاليات الأجنبية للمدينة ليتعلموا بها ، وخاصة الصغار ، حتى يكتفوا أقرب الى مصر بعد أن يتعلموا فيها ، ويتطبعوا بعبادات أهلها ، وكانت مكاتب ودواوين الحكومة تقع الى جانب القصور الملكية .

وبالرغم من بعد طيبة ، إلا أنه ازدهر بها في زمن الرخاء والتقدم أكثر من ميناء نيلى ، يزدحم بالسفن من ميثانى وبابل وآشور وسورية وفلسطين وجزر شرقى البحر المتوسط والنوبة ، ولذا فقد عاصر ذلك ازدهار وزيادة نسبة الأجانب بها ، وأن تحول ذلك الوضع الممتاز الى عكس ذلك تماماً ، بعد تحول العاصمة الى اخيتاتون ، وبعدها تعاونت

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٧٣ .

- ١٣٧ -

هوى الطبيعة وقوى البشر على المدينة فقلت أهميتها ، ومن ذلك ، أقول نجمها حين تعرضت لغزو الآشوريين والفرس ، وفي بعض سنى البطلمة ، عانت من الحصار لقيام سكانها بالثورة ضد البطلمة ، فسلبوا معابدها وخربوها في عهد بطليموس التاسع سنة ٨٥ ق م • وأما عن عوامل الطبيعة فمن ذلك الزلازل التى دهرتها وخربت بعض معابدها وآثارها سنة ٣٧ ق م^(١) •

وهكذا نرى أن عاصمة مصر ، مهما كان موضعها كانت تستقبل فترات رخاء وتقدم وأخرى لفترات التدهور والتأخر ، ويمكن لنا من الأمثلة العديدة السابقة عن تغير موضع العاصمة وأهمية موقعها أن نلاحظ أن « نبض العاصمة » وتأثيرها ، كان يصيبه نوع من الانحدار gradient الذى تعرفه الجغرافيا جيدا ، وأن هذه الأهمية كانت تقل رويدا رويدا بالبعد عن العاصمة حتى فى فترات ازدهارها ، فهنا يدخل عامل البعد المكانى وطول المسافة ليؤثر على نبض العاصمة •

من ذلك أنه حين كانت اناسيا العاصمة قرب الفيوم فى الشمال نتضاء تأثيرها على المناطق الجنوبية ، ولاحظنا هذا الانحدار gradient أثناء الأسرة ٩ ، ١٠ ، فى المناطق الجنوبية بتأثير المسافة ، يدل على ذلك ظهور وازدهار مدن أخرى فى الجنوب مستغلة هذا الضعف والانحدار فى الأهمية ، فقامت طيبة ، وغيرها من مدن الجنوب مثل قفط تنسد هذا الفراغ ، بينما كان نفوذ العواصم الشمالية على الأجزاء القريبة منها أقوى وأشد وقعا ، ويمكن القول أنه فى الفترات التى كان فيها الحكم يمارس من أكثر من عاصمة ، فان نفوذ كل عاصمة كان يصيبه هذا الانحدار بالبعد عن مركز احدى العواصم ، مع وجود نوع من التداخل فى مناطق النفوذ هذه ، ويتضح ذلك من وجود جاليات أجنبية ومتاجر يغلب عليها الأصل النوبى الجنوبى فى عاصمة مثل طيبة ، بينما كانت الجاليات التى ترجع فى أصولها لمناطق البحر المتوسط والجهات الآسيوية متمثلة فى مدينة مثل منف التى نشطت بها صناعة السفن التى وصلتها بكافة أنحاء البلاد ، وبالدول الأجنبية •

(١) المرجع السابق . ص ٧٠ — ٧٧ •

وفي أثناء الأسرة ١٨ أيضا زمن الملك امينوفيس الرابع (اخناتون) ، (١٣٥٣ - ١٣٣٥ ق م) قام ذلك الملك بتغيير موقع العاصمة التقليدية (طيبة) الى موضع جديد لم يختار من قبل ، ويرى « جون ولسون » أن موضع العمارنة عاصمة اخناتون الجديدة ربما لم يكن بكر لم يقطن فيه أحد من قبل وفي ذلك يعارض ولسون جمهرة المؤرخين ويستند ولسون في ذلك أن جد اخناتون الملك تحتمس الرابع كان يعنى بهذا المكان ، وان كان المكان في حد ذاته قد أصبح لأول مرة عاصمة مصر بعد أن شيدت فيه مدينة مترامية الأطراف طولها أكثر من ثمانية أميال وشيدها لتكون واسعة خالدة^(١) . وقد اتبع اخناتون في تعمير « أخيت آتون » مدينته الجديدة أو « أفق آتون » أسلوبا انتقائيا أو انتخابيا ، بمعنى أنه أخذ معه من شايعه فقط من الأنصار ، لذلك فالمجتمع المصرى بها كان جد مختلف عنه في غيرها من المدن المصرية ، وهنا تكمن خطورة التعميم الذى يتبعه البعض في تطبيق ما وجد في العمارنة على غيرها من احلات والمدن الهامة المصرية ، ويكفى أن نقول أن عمران المعابد ، وهو أهمها في أية مدينة مصرية كان غاية في الاختلاف عنه في غيرها ، اذ اقتضى الدين الجديد تغييرا في نظام المعابد ، وأصبحت معابده « آتون » في العمارنة رحبة مفتوحة الأبنية ليتخللها الهواء وضوء الشمس متوافقة مع العبادة الرسمية الجديدة^(٢) ورغم « الديمقراطية » التى بدت في ترتيب أحياء السكان وعدم الفصل التام بين طبقات المجتمع في العمارنة ، فانه بدا فيها التناقض بين المعابد الفخمة والقصور العظيمة ، ومباني الحكومة الكبيرة ، وبين مساكن العمال والكادحين ، كذلك كان لكبار موظفى الدولة حرية اختيار مواضع مساكنهم^(٣) .

ومن معالم اختلاف العمارنة كعاصمة لمصر عن غيرها من العواصم أيضا ، والناجمة عن التغير الذى لحق بالعبادة الرسمية ، أن بعض مباني المعابد أقيمت خارج الأسوار الخاصة بها لأول مرة ، وليس في

(١) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٣٤٨ .

(٢) Jones, E., & Zandt, E. op. cit., 1974, p. 33.

(٣) Smith, H. S. op. cit., 1972, pp. 708 - 10.

داخله ، مما يشير الى أن هذه الأسوار كانت ليس للحماية أى لحماية ثروة المعبد ، كذلك أتيح لها درجة من الاتساع والرحابة لم تتح لغيرها من العواصم مثل طيبة^(١) ومع أن العمارنة لم تكن محصنة ، فانها كانت تخضع لحراسة دائمة ، خوفاً من أعداء اخناتون كهنة آمون في طيبة ، ويقال أن اخناتون نفسه تعرض للاغتيال^(٢) ، وأظهرت العاصمة الجديدة اختلافات أخرى فاختفى تصوير الاله الجديد من على جدران المعابد والمباني ، وقصر ذلك على تصويره بقرص الشمس ، وكانت لهذه الدلالات أسسها ومصادرها الدينية فأمون معناه (المختبئ) ولا يصل الانسان لمقدسه بسهولة وبعد سلسلة من الطقوس المعقدة ، فيصل الى أكثر أجزاء المعبد اظلاماً . بينما كان معنى آتون (الظاهر أو الواضح) بمعنى أنه يتمثل في قرص الشمس الواضح للعيان لذا كانت مباني معابد الاله آتون في تصميمها تعكس تلك الأفكار المتميزة والخاصة به مما أثر في فورمولوجية المدينة الوليدة^(٣) . ولعله من المفيد هنا ، أن نذكر أن أفكار اخناتون المثالية التي حاول تجسيدها في عاصمته الجديدة كانت الارهاصات الأولى لأفكار مشابهة استجدت بعده بمئات السنين ، كذلك كانت مشابهة لأفكار مفكرين سبقوه ولتفسير ذلك نقول أن مثالياته كانت شبيهة بمثاليات أفلاطون في جمهوريته ، كذلك فيما بعد نجد « توماس مور » وأفكاره المثالية في « المدينة الفاضلة » مع الاختلافات بينها جميعاً والتي ترجع لاختلاف ظروف العصر الذي نشأ فيه كل من هؤلاء المفكرين .

وكانت العمارنة لذلك لا تعكس في استخدام الأرض بها مساحات كبيرة مخصصة للثكنات العسكرية ، مثلما كان في مدينة طيبة ، أو أفاريس مثلاً التي قيل أن سالييتس Selitis أول ملوك الهكسوس ، ترك حامية من ٢٤٠ ألف جندي مزودين بسلاتهم ، وكانت لهم ثكناتهم

Kemp, B. J., op. cit., 1972, pp. 657 - 80.

(١)

(٢) أحمد نخري : مرجع سبق ذكره . ص ٣٠٥ .

(٣) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٣٥ .

بالمدينة^(١) ومرجع ذلك الاختلاف أن اخناتون كان رجل فكر وتأمل وليس رجل حرب مثل ملوك الامبراطورية الحديثة المحاربين مثل رمسيس الثانى أو تحتمس الثالث ولذلك عكست المدينة ومورفولوجيتها الفن والشاعرية التى تميز بها اخناتون ولم تكن العمارة كبيرة السكان كطيبة ، اذ طبقا لتقدير تشيلد بلغت ٤٠٠٠ نسمة فى القرن ١٤ ق م^(٢) .

وترجع أهمية العمارة كعاصمة لمصر ، التى كانت أقصر عواصم مصر عمرا (حوالى ١٦ سنة) أنها حين اكتشافها تمثل وضع مدينة مصرية وعاصمة لحظة تركها والتخلى عن وظيفتها كعاصمة للبلاد ، يؤكد ذلك أنه حين هجرت المدينة كانت بعض منشآتها لم تكتمل بعد ويجرى البناء فيها ، وبعدها تحولت العاصمة الى طيبة من جديد ، وعلى ذلك فالأسرة ١٨ تعتبر من الأسر التى شهدت أكثر من عاصمة وتغير موقع العاصمة أثناءها حوالى ٣ مرات ، كانت فيها طيبة عاصمة لمصر مرتين . ولكن تبقى العمارة كأحدى عواصم هذه الأسرة لتمثل أهمية خاصة عن غيرها اذ بنيت دفعة واحدة وفق تخطيط موضح مدروس^(٣) اذ كانت فى رأى « حمدان » تقوم كلها على الخطة الهندسية المنتظمة ، التى تسود أيضا كل مدن الموتى المصرية ، بل ان هناك نظرية حديثة يقول بها « لافيدان » ترى أن مورفولوجية المدينة الفرعونية ، ومثالها العمارة ، لم تكن على ذات الخطة الخاصة بمدينة العصور الوسطى العشوائية المعقدة الضيقة ، بل كانت فسيحة مترامية واسعة الشوارع تلتزم الخطة المربعة أو المستطيلة الهندسية ، بصراحة كأنها نسخة مبكرة جدا من المدينة الأمريكية المعاصرة ، وذلك استجابة لأغراض الوظيفة الدينية من احتفالات ومواكب ومعابد ... الخ^(٤) .

(١) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٢٤١ .

(٢) Everson, J. A., & Fitz Gerald, B. op. cit., 1973, p. 12.

(٣) محمد أبو المحاسن عصفور : التخطيط العمرانى فى مصر القديمة ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد السابع عشر سنة ١٩٦٣ ، مطبعة جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٤ . ص ٩٤ .

(٤) جمال حمدان : شخصية مصر ، الجزء الثانى ، مرجع سبق ذكره . ص ٤١٧ .

وهذا الوصف السابق أكثر انطباقا على العمارنة المرحبة الفسيحة منه على عواصم أقدم مثل منف وطيبة •

وقد ظلت طيبة عاصمة لمصر في بداية الأسرة التاسعة عشرة ، ولكن ظهرت عاصمة منافسة لها ابان حكم رمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) ونعنى بها مدينة « بر - رمسيس » ويرى البعض أنها ذاتها « صان الحجر » أو « تانيس » ، ويرى البعض أنها بلدة « قنيتير » في مركز فاقوس ، وقد نمت المدينة الجديدة كعاصمة لأن أصول الرعامسة ترجع أصلا الى الدلتا ، كذلك كان للعلاقات الدولية ابان حكم الأسرة التاسعة عشرة ، أثره في ضرورة نقل العاصمة شمالا ، متأثرة هذه المرة بعوامل خارجية ، اذ كانت مصر قد فقدت معظم امبراطوريتها الآسيوية ، وكان لابد أن يكون موقع العاصمة أقرب الى هذه الممتلكات والطرق المؤدية اليها ، لذلك اتخذت صان الحجر « تانيس » عاصمة ، واضطلعت بوظائف لم تكن لتضطلع بها لولا أن اتخذت عاصمة ، وساعدها على ذلك موضعها وموقعها الجغرافيين فكان موضعها في شمال شرق الدلتا كمصب نيلى والقيام بوظيفة الميناء ، وساعدها قربها من آسيا ، وبلاد البحر المتوسط على أن تكون مركزا تجاريا فريدا وبؤرة اشعاع ثقافى بالمثل ، حيث تعددت معابدها وتكدس ميناؤها بالسفن ، ومع اضطلاع تانيس بوظيفة العاصمة السياسية والادارية للبلاد ، فقد بقيت طيبة تمارس وظيفتها كعاصمة دينية اذ قويت سلطتها الدينية بعد حركة التحول المطارئة زمن اخناتون •

ومع ذلك فان انتقال العاصمة شمالا ، زاد من الأهمية الدينية لمدن الشمال ، وبعبارة أخرى ، وبلغت جغرافية المدن الحديثة ، فقد تعددت مناطق نفوذ المدن الشمالية سياسيا واداريا وثقافيا وتدخلت مناطق النفوذ بدرجة كبيرة ، وهنا يجب ألا ننسى ما سبق أن أشرنا اليه مرارا ، وهو أن المدينة ، ولا سيما المدينة العاصمة كانت تستمد أهميتها أصلا من المعبد الرئيسى للاله المقام في وسطها ، وكانت تانيس مقر

الاله ست ، وكان له معابد بها ، تلك العلاقة البادية على طول التاريخ
المصرى القديم بين المعبد والمدينة^(١) .

وظل التنافس زمن الرعامسة بين « تانيس » العاصمة الرسمية
في الشمال ، وطيبة العاصمة الدينية في الجنوب زمن الأسرة العشرين
والواحدة والعشرين ، وتبدت أحوال في آخر عهود الرعامسة تدل على
الفوضى والاضطراب اللذان سبق أن لاحظناهما من قبل في تاريخ مصر ،
فانعكس ذلك مباشرة على العاصمة ، بل ان « ولسون » يقرر أن الملك
« حريحور » من ملوك الأسرة ٢١ لم يحاول أن يحكم مصر كلها ،
وفقدت مصر حكومتها المركزية القائمة في العاصمة « تانيس » ، في
الشمال ، وطيبة العاصمة الدينية في الجنوب ، وأصبح الحكم في زمنه
يتم من كلتا العاصمتين وليس من عاصمة واحدة ، مركزية ، وفصل
الأمر من التجار العاصمة الشمالية (تانيس) بينما زاد نفوذ حكام
الأقاليم في الجنوب ، وأدى ذلك الى تزعزع العاصمة بتزعزع الحكم
المركزي ، وكان حريحور يحكم من طيبة وليس من تانيس ، بينما
ظل ملك آخر يحكم من تانيس « صان الحجر »^(٢) وكان مجال نفوذ
العاصمة الدلتاوية يمتد جنوبا حتى أسيوط ، بينما نفوذ العاصمة
الجنوبية طيبة يمتد من أسيوط شمالا وما يليها جنوبا ، واستمر الوضع
تنافسيا بين تانيس وطيبة مع ملاحظة أن السلطة في العاصمة الجنوبية
— طبقا لوظيفتها الدينية — لم تكن للملك وإنما لرئيس الكهنة^(٣) .

وهنا لابد من الإشارة الى نقطة هامة ، وهي أن ثروة العاصمة
والملك البادية في حياته في القصور والمعابد كانت تنتقل بموته الى مدينة
الموتى ، ولذلك فليس من العجيب أن تستخرج كنوز الفراعنة ليس من
طيبة (مدينة الأحياء في مصر) ولكن من برها الغربى (مدينة الموتى)
وتعد العاصمة « تانيس » استثناء من ذلك أى أن ثرواتها استخرجت

Kemp, B. J., op. cit., 1972, pp. 657 - 80.

(١)

(٢) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٥٦ ، أحمد فخري :

مرجع سبق ذكره . ص ٤٠٠ — ٤٠٤ .

(٣) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . ص ٣٨٨ .

منها لأن بعض الثروات وزعت عليها بعد وفاة ملوكها بينها وبين غربى طيبة (حيث كان يدفن معظم الملوك) .

وفى الأسرة الثانية والعشرين ، كان هناك فى البداية عاصمة فى طيبة وأخرى فى « تانيس » مما جعل مجال النفوذ موزعا بينهما ، وفى نفس الوقت بدأ نفوذ كهنة الاله آمون يقوى بصورة كبيرة ، وخاصة نفوذ الكاهن الأعظم وفى ظل حكم الأسرة الثالثة والعشرون ، ظلت طيبة العاصمة ، ولكن كثرت المطالبات بالحكم من بيوتات عدة ، كل منها اتخذ له عاصمته ، فتعددت العواصم وعمت الفوضى ، والاضطراب ، وحد ذلك من الدور المركزى للعاصمة المصرية ، وقد وجدت بالإضافة الى طيبة ، بيوت مالكة فى (تل بسطة) الزقازيق وفى صان الحجر . . . الخ^(١) فى الوقت الذى كانت فيه أسرة أجنبية بدأت تسيطر على الحكم وتبدأ الأسرة ٢٥ ، اذ فى ظل هذه الفوضى قوى نفوذ أسرة من أصل ليبي كانت تقسيم فى هيراكليوبوليس (اهناسيا) فى الفيوم (مما يؤكد العلاقة بين موضع وموقع المدينة عند أطراف الوادى فى الغرب والأصول الليبية للأسرة فى الغرب) وامتد نفوذ الأسرة من الشمال حتى الجنوب عند أبيدوس^(٢) . وعلى ذلك استطاع شيشنق Sheshonk أن يؤسس الأسرة الثانية والعشرين فى القرن الثامن ق.م. (٩٤٥ — ٩٢٤ ق.م.) وبرغم بقاء نفوذ دينى فى طيبة ممثلا فى الكاهن الأعظم ، فإن المدينة تدهورت من النواحي السياسية .

وظل الاضطراب الناجم عن عدم وجود عاصمة واحدة مركزية قوية باديا فى البلاد وممثلا فى مشاركة عدة عواصم للعاصمة الرسمية وهى (اهناسيا) فظهرت منافسة كتل بسطة كما تقدم الذكر ، فى الأسرة ٢٣ ، وفى الأسرة ٢٤ ظهرت أهمية عواصم أخرى مثل طيبة ، وتانيس ، صا الحجر ، الاشمونيين ، بالإضافة الى اهناسيا . وكما كان يحدث فى نهاية كل فترة تدهور فإن بعض النوبيين استطاعوا غزو

(١) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . ص ٤٠٤ .

(٢) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٤٥٦ .

مصر ابان الأسرة ٢٥ وجعل « بعنقى النوبى » عاصمته فى « نباتا » عند الشلال الرابع^(١) وأحس بعنقى بالمشكلات الناجمة عن بعد المسافة بين العاصمة ، وأقرب عواصم مصر آنذاك وهى طيبة • فقام بتعيين نائبا عنه فى طيبة ، وهكذا كان لمصر عدة عواصم فعلية فى الأسرة ٢٥ فكانت مدن الدلتا الهامة ككتانيس تمثل عاصمة شمالية ، وطيبة عاصمة متوسطة فى الجنوب والعاصمة الرسمية نباتا فى أقصى الجنوب فى النوبة^(٢) .

وفى هذه الأثناء بدأ دور غزو وطمع استعارى جديد ، تمثل فى الآشوريين والفرس ، وكما رأينا فى فترات سابقة ، حين أحرق الخطر بمصر من الشمال الشرقى ، فان العاصمة استقرت فى الدلتا ، وهذا ما حدث ابان حكم الأسرة السادسة والعشرين حين اتخذت سايس (صا الحجر) عاصمة للبلاد اذ كانت موطننا للملك « ايسماتيك » •

وهكذا اختيرت ثلاث مدن دلتاوية منذ الأسرة ٩ وحتى الأسرة ٢٦ ، وهى تانيس (صان الحجر) وتل بسطة (الزقازيق) ، صا الحجر (سايس) يضاف اليها واحدة فى مركز متوسط بين الدلتا والوادي هى اهناسيا مقر الأسرة الليبية الأصل • وكان تركيز موضع العاصمة فى بقعة دلتاوية عاكسا لزيادة الخطر الداخلى من الشرق •

وكانت بداية عواصم الدلتا فى هذه الفترة باختيار بر — رمسيس (تانيس) من قبل الرعامسة كما سبق لمراقبة الحدود الشمالية ، وحيث المناخ أفضل من مناخ الصعيد ، وقد اعتمدت المدينة على ظهير زراعى خصب • وأضاف موضعها النيلى بعدا هاما لأهميتها الحربية والتجارية ، وكان بها مالا يقل عن ١٠ مسلات ، ويحدد « شكرى » خمسة عوامل كان لها دورها فى أهمية بر — رمسيس وهى عوامل

(١) حاول أحد الأمراء ويدعى (تف — نخت) وكانت عاصمته صا الحجر فى غرب الدلتا ، انقاذ البلاد من حالة الفوضى هذه ، فأخضع الدلتا ومصر الوسطى واتجه جنوبا من عاصمته الشمالية صا الحجر نحو الجنوب فى الوقت الذى كان فيه بعنقى يتجه من عاصمته الجنوبية نباتا نحو الشمال وانتصر الأخير كما تقدم ذكره ، راجع أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . ص ٣٩٠ — ٤١٧ .

(٢) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٤٥٦ .

تجارية ومناخية وسياسية وطبيعية وحربية ، وفضلا عن كونها عاصمة كانت مستودعا تجاريا هاما entrepot وانعكس ذلك عليها وميزها عن العواصم الجنوبية فكثرت بها أحياء الأجانب وأصبحت بؤرة لانتقال الأفكار والاحتكاك الحضارى وأصبحت مركزا ثقافيا وأصبحت أخيرا أعظم مدن الدلتا آنذاك^(١) وأصبحت منافسا لطيبة ورغم غياب السور من مورفولوجية المدينة المصرية كما سبق ، فإن الظروف المحيطة والأخطار المحدقة ، حثمت أن يكون للمدينة سورا سميكاً من اللبن تتخلله من الداخل والخارج دخلات وخوارج ، وكان باب المدينة يشبه باب رمسيس الثالث في معبد الجنائزى في مدينة هابو وكان يعلوه برجان عاليان مشيدان بالجرانيت الأسود ، والحجر الجيري الأبيض ، والحجر الرملى الأحمر ، كما كان هناك ٣ أبواب أخرى .

وللأسف ، فإن معظم آثار تانيس قد غاصت تحت طمي الدلتا الكثيف فكانت مجسات « سير فلنדרز بترى » تصل الى عمق ٩ أمتار في طبقات يونانية رومانية دون أن تصل الى مستويات عصر الرعامسة والهكسوس^(٢) ومع ذلك فإن هناك من الدلائل على أن تانيس — طبقا لحفائر بترى — كانت هائلة العظمة ، وكان طول معبدها ٣٠٠ مترا ، وكان من أكبر المعابد المصرية وكما علمنا من قبل ، فإن ضخامة المعابد كانت تشير الى ضخامة المدينة ، وأهمية الاله المقام له المعبد ، وكان طول السور الذى يحيط بالمعبد حوالى ١٠٥٠ مترا وسمكه ٢٥ مترا وارتفاعه الأصلى قرابة ١٣٥ مترا واستخدم فى بنائه ٢٠ مليون قالب من اللبن^(٣) .

وهكذا فكما ازدهرت بر — رمسيس (تانيس أو صان الحجر) كعاصمة فى عهد الأسرة التاسعة عشرة فى شرق الدلتا ، ازدهرت صا الحجر (سايس) كعاصمة فى الأسرة السادسة والعشرين فى غرب الدلتا ، وذلك فى عهد إسماتيك الأول ، وكما تكررت الصورة قبلا ،

(١) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٧٥ — ٧٧ .

(٢) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره . ص ٣٥ — ٤٣ .

(٣) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره . ص ٦٦ .

ازدهرت كعاصمة ، وزاد عمرانها ، وخاصة معابدها ، ويذكر « بيكي » أن اختيار « سايس » كعاصمة في عهد الفراعنة المتأخر جعل منها مدينة عظيمة الشأن في العهد الصاوي (الأسرة الصاوية) وكان لها الهة هامة هي « نيت » وتدل أكوام سايس على اتساع مساحة العاصمة القديمة ، كما تشير الى أنها أقيمت على تل صناعي (حيث الدلتا سهلة منبسطة لا تموج فيها) وذلك مخالف للمواضع التي كانت تختار الأجزاء المرتفعة على جسور النيل وجسور الحياض في الوادي • وكان سور سايس يرتفع ٣٠ مترا و ٢٠ مترا في السمك (١) •

وفي أواخر الأسرة السادسة والعشرين استطاع قمبيز احرار نصر في البداية في تل الفرما « بلوزيوم » وواصل سيره للقضاء على عاصمة النوبيين في الجنوب « نباتا » وبعد تعرضه للهزيمة ، ترك البلاد وتولى دارا بدلا منه وجعل العاصمة في منف مرة أخرى بعد أن اضطلعت المدينة بهذا الدور في بواكير التاريخ المصري كما رأينا ، وبعد اتخاذها كعاصمة إبان الأسرة السابعة والعشرين وبعد دحر الاستعمار الفارسي وحرب التحرير أسس قائد ثورة مصر ضد الفرس (أمون حر) الأسرة الثامنة والعشرين وهو الملك الوحيد بها ، وجعل عاصمته في سايس (صا الحجر) مرة أخرى ، وتلى ذلك الأسرة التاسعة والعشرين والتي كانت تحكم من مدينة « مندس » (وهي تل الربع أو ثمي الامديد) وانتقل اليها البيت المال ، وكانت في منطقة مركز السنبلالوين الحالية (٢) •

وظل الحال كذلك ، في الأسرة الثلاثين التي تخللها الغزو الفارسي الثاني ، والذي أعقبه لاحكم اليوناني الروماني ، والذي في أثنائه أسست الاسكندرية كعاصمة لمصر (٣٣٢ ق م •) •

وهكذا ، تبرز عبدة حقائق من السياق السالف الخاص بتغير موضع وموقع العاصمة المصرية القديمة ، ويثار سؤال هام يختص

(١) المرجع أعلاه . ص ٣٥ .

(٢) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . ص ٤١٠ — ٤٢٠ .

بالفترة الأخيرة من التاريخ الفرعوني وهو لماذا كان تعدد العواصم دائما في الشمال ، وكثرة المطالبين بالحكم في الدلتا ؟ ونجد اجابة ذلك في أبعاد جغرافية مصر القديمة اذ كان شكل الوادى الضيق ، الشريطى ، الطويل ، في الجنوب وسهولة السيطرة عليه يجعله على خلاف الدلتا المروحية السهلية المنبسطة ، والمعرضة للتأثيرات والغزوات من الشمال والشرق والغرب . كذلك كان للعامل الدينى أثره في هذه الظاهرة ، وهو أن طيبة كانت المسكن الأبدى لآمون^(١) مما جعل ظهور مدن تنافسها في الجنوب أمرا مشكوكا فيه . ومن هنا كانت خطورة العواصم المنافسة في الشمال بادية بينما أمكن تجاوز المحاولات القليلة التى جرت في الجنوب بسرعة .

كذلك تجدر الاشارة ، الى أن الفترات التى اصطلح المؤرخون على اعتبارها فترات حكم أجنبى كالأسرة الليبية وأسرة نباتا النوبية ، يرى البعض أنها لم تكن أجنبية بعد أن عاش أسلاف هذه الأسرة في مصر واثمصروا كما كان العامل الدينى المصرى واضحا في الجماعات النوبية وكانت ملوك وآلهة مصر تعبد هناك ، ويدينون بالولاء لآمون^(٢) .

وكما رأينا فالنوبيون اتخذوا من طيبة عاصمة بعد أن رأوا أن نباتا نائية بعيدة . وهكذا كان للعامل المكانى والمسافة دوره في تأكيد أهمية طيبة ، كذلك لم يخل ملوك أسرة نباتا من الحس الجغرافى ، اذ أنهم غيروا أحيانا من العاصمة التقليدية (نباتا أو طيبة) وجعلوها في الشمال لبعض الوقت لتكون قرب مناطق الخطر في الشمال الشرقى ، وذلك ما فعله « طهرقا » حين اختار صان الحجر (تانيس) ليكون قريبا من الحدود الشرقية ، لتطلع آشور لغزو مصر آنذاك . ومع ذلك استطاع الآشوريون التقدم والاستيلاء على « منف » العاصمة القديمة ، وهنا نلاحظ أنه لم يعد هناك عاصمة واحدة لأن الآشوريين

(١) المرجع أعلاه . ص ٤٠٥ .

(٢) أحمد مخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٤٠٦ وما بعدها .

لم يسيطروا فعليا على كل مصر ، بل فقط على الدلتا ، وكان بها أمراء أقوياء لهم عواصمهم الخاصة ، مثل أمير صا الحجر بالاضافة الى أمير طيبة في الجنوب ، ولا تعيننا بالطبع مسيرة ونتائج الحروب ولكن يمكننا القول بأن عواصم هذه الفترة من الأسرة ٢٥ كانت تتحدد على أساس نتائج الحروب وأدوار الانتصار والهزيمة ، وكانت منف عاصمة مصر القديمة العظيمة تعاني من ذلك أشد المعاناة لأنها في الطريق بين الشمال والجنوب حيث رحى الحرب الدائرة بين غزة آشور وبقايا ملوك بناتا ، مما جعل نفوذ العاصمة في تلك الفترة ضئيلا متداعيا وموزعا بين عدة عواصم تعددت بتعدد المطالبين بالحكم .

وهكذا يبدو من العرض السالف كيف تعددت مواضع العاصمة المصرية لأسباب عدة أيضا ، وكيف اختلفت أقدار هذه العواصم ، وكيف تدخلت عوامل جغرافية داخلية وخارجية في اتخاذ العاصمة موضعا معينا ، أو موضعا جديدا ، ولكن في كل الحالات لا نجد عاصمة بزت طيبة في أهميتها ، تلك المدينة التي لم تكن عاصمة لمصر فقط بل عاصمة للعالم القديم ، وقد قدر K. Davis أنها بلغت حجما سكانيا ٢٥٥٠٠٠ نسمة في القرن ١٤ ق.م. (١) .

الباب الرابع

أنماط ووظائف المحلات العمرانية المصرية القديمة

الفصل السادس عشر : أنماط ووظائف المحلات العمرانية المصرية القديمة ♦

- مقدمة ♦
- مدن الادارة والحكم ♦
- مدن الحماية والحصون العسكرية ♦
- محلات المستودعات التجارية ومراقبة التجارة النيلية ♦
- مدن التعدين والمناجم والتعجير ♦
- مدن الثقافة والاشعاع الحضارى ♦
- مدن الحج والزيارة والنبوءات والعراقة ♦
- مدن الموتى ♦
- مدن النفى والعقاب ♦

الفصل السادس عشر

أنماط ووظائف المحلات العمرانية المصرية القديمة

مقدمة :

في ظل الظروف المصرية القديمة التي أهتمت أكثر بمصالح الموتى ، وإضفاء علامات العظمة والفخامة عليها ، نجد أن المحلة العمرانية الخاصة بالأحياء لم تتل الا قسما قليلا من الأهمية ، ورغم أن المصريين برعوا في تخطيط مناطق سكنهم ومنازلهم ، إلا أن العقبة الهامة للتحقق من ذلك ومن غيره من الموضوعات المندرجة في نطاق جغرافية العمران ، ان مادة بناء الحالات الريفية والمدنية كانت الطين واللبن والمواد الرخوة التي سرعان ما ذوت ، أو غطيت بطبقات الرواسب النيلية .

ولما كان البحث عن الآثار المادية للمحلات صعبا ، فلا شك أن البحث في أنماطها ووظائفها سيكون أشد صعوبة . على أن الآثار التي تركها المصريون في محلاتهم الخاصة بالحياة الثانية وهي المقابر ، وأيضا نقوش المعابد وآثارها ، كانت كافية لتعطينا بعض الإشارات الهامة عن أنماط ذلك العمران ووظائف المحلات العمرانية .

وسنستعرض في السطور التالية هذه الأنماط وتلك الوظائف ، التي وإن تشابهت لفظا مع ما ندرسه اليوم من أنماط ووظائف المعمران الحديث ، إلا أنها بالقطع ستختلف مضمونا في ظل الفترة التاريخية التي تمثلها .

وقد علمنا فيما سبق ، أن الاطار العمراني المصري القديم ، كان منذ القدم هو المحلات النووية التي كانت انعكاسا لجغرافية قصر الطبيعية ونشاط سكانها البشري آنذاك ، الذي تتطلب التعاون

والتجمع ، دفعا للاخطار الطبيعية الناجمة عن الفيضان في المقام الأول ، وتعاوننا وتآزرا في رفع المحلة ذاتها على تلة أو كومة صناعية ، وكذا التعاون في عمليات الزراعة وما إليها • وفيما بعد انتظمت هذه المحلات في صورة اطار ادارى هو المقاطعات التى عرفت بالنومات فيما بعد وكان ذلك النمط ثابتا مستمرا على طول التاريخ المصرى القديم ، وحتى فيما بعد زمن البطالمة اليونان والرومان والعرب • وظلت مواضع العمران تشغل على طول التاريخ ، ولا تتغير كثيرا للاستفادة الطبيعية من ميزة البناء على بقايا السكن السابق ورفع المحلة عن مستوى السهل الفيضى^(١) وعلى ذلك كان نمط المحلات التى تنتظم فى داخل المقاطعات هو النمط الشائع وكانت معظم المحلات فى صورة قرى ترتبط بروابط اقتصادية وادارية ودينية بالمدينة عاصمة المقاطعة ، وقد روعى فى المقاطعة أن تكون عبارة عن اقليم محدود المساحة بحيث يسمح لسكان أقصى الضياع بالقدوم الى السوق فى المحلة الرئيسية والعودة ثانية فى مدى نهار واحد^(٢) •

وعلى ذلك فلما كان العمران المصرى القديم ، وكلما كان تركز السكان قديما ، مثلما هو اليوم ، يوجد فى قلب السهل الفيضى ، الا أن البحث عن ذلك العمران لم يجز فى السهل الفيضى للأسباب التى تقدمت ، وأن جرت محاولات البحث عند حوافه وقرب الصحراء ، أما عمليات الحفر فى السهل الفيضى فقد انصبحت على مناطق المعابد ، وليس على محلات العمران^(٣) •

ولم يكن نمط العمران المصرى القديم — اذا ما نظرنا له بمنطق اقليمى — واحدا اذ وجدنا أنه كان يتفاوت فى كثافة العمران وكثافة السكان من جهة لأخرى لظروف طبيعية أساسيا ، ولكن بصفة عامة كانت

Baines, J., & Malek, op. cit., 1980, p. 14.

(١)

(٢) أتئين دريوتون ، جاك ناندييه : مصر ، تعريب عباس بيومى ، مرجع سبق ذكره ، القاهرة ، سنة ١٩٥٧ ، ص ٤٤ •

(٣) Smith, H., S., Society and Settlement in Ancient Egypt, op. cit., 1972, p. 75.

المحلات الريفية المجمعة هي النمط السائد ، وأن نسبة سكان المدن لم تتجاوز خمس للسكان^(١) .

وفي وسط ذلك النمط العام برزت أشكال عمرانية مدنية وشبه مدنية كان من أهمها مدينة السوق أو المدينة عاصمة المقاطعات ، وهذه كانت مجالا لتبادل المحاصيل والمنتجات والسلع والتي أدت الى قيام سلطة محلية وخاصة في الفترة الأولى من تاريخ مصر في عهد ما قبل الأسرات ، حيث كانت القرية أساسا مكتفية ذاتيا رغم وجود مدن الأسواق هذه^(٢) .

وقد استعرضنا فيما سبق بعض أنماط العمران اصرى القديم ، وتحدثنا بخاصة عن نمط ووظائف مدن المقاطعات ، وتباعدها ، وأهميتها ، وكذلك عن نمط وأهمية ، ووظائف المدينة العاصمة بالتفصيل ، وبقي أن نحاول التعرف على بقية المحلات العمرانية وأهم الوظائف التي كانت تضطلع بها في مصر القديمة ، وخاصة المحلات الحضرية على الرغم من أننا نجد أن بعض الباحثين مثل (ولسون) يشكك في أن مصر في تاريخها الباكر كان بها أية بلدة تستحق أن يطلق عليها مدينة ، ولكنه يقول أنها كانت قرى زراعية سواء صغرت أم كبرت . وفي رأيه أننا يمكن أن نصل الى العهد التاريخي ، بل ربما الى الأسرة ١٨ قبل أن توجد في مصر « مدينة » تستحق هذا الاسم كما نعرفه الآن . ويعارض بشدة نظرية « جوردون تشييد » عن الثورة الحضرية ، ويقول أن ذلك كان في مصر يتم من خلال عملية تدريجية بطيئة وليست ثورة^(٣) بمعنى أن بزوغ الحضرة كان تدريجيا ويبدو أن في آراء ولسون الكثير من التجنى ، فلا شك أن الوظيفة الدينية بالذات أتاح نمو مدن كبيرة جدا منذ بواكير التاريخ المصري ، وليس فقط في عهد الامبراطورية،

(١) راجع موضوع السكان والعمران .

(٢) محمد السيد غلاب ، يسرى الجوهري : الجغرافيا التاريخية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥١٤ .

(٣) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٧٧ — ٧٩ .

وأشارة سريعة الى « أون » ومنف تنبؤنا أننا أمام مدن حقيقية منذ بداية التاريخ المصرى .

أولا : مدن الادارة والحكم :

وهذه اضطلعت بوظائف الادارة الاقليمية ، وقد ذكرنا منها سلفا المدن الخاصة بعواصم المقاطعات ، ولكن ما يعنينا هنا هو التركيز على أن الادارة المركزية لبعض القطاعات أو الخدمات والكائنة في العاصمة كان لها فروع في بعض المدن بالأقاليم ، وبالطبع من أهمها عواصم أو حواضر المقاطعات ونجد إشارة من أحد حكام الأقاليم من الأسرة الرابعة ، أنه نجح في أن يكون حاكما على اقليم يشمل ١٢ مدينة كبيرة ويدير الاقليم من أهمها (١) .

ويمكن أن نتبين نمطين مميزين من مدن الادارة هذه :

١ — مدن العواصم الادارية والمقاطعات التى تعتبر مخلفات ^{للمنطقة} لاصور الاقطاعية التى صاحبت تفتت السلطة المركزية حوالى سنة ٢٦٢٥ ق م .

٢ — مدن جديدة تماما أنشئت لغرض الادارة والحكم .
وفى النوعين تميزت المدينة بالوظيفة الاقليمية بمعنى هيمنتها على اقليم معين خاضع لها ، يستمد من وظائفها وخدماتها المركزية على نطاق اقليمى ، عن طريق وجود ممثلى هذه الوظائف والخدمات مثل الحاكم الاقليمى ، القاضى ، وجامع الضرائب . ويرى « ممفورد » — على عكس ويلسون — أن كل أو جميع عناصر التجمع الحضرى كانت متوافرة فى المدينة المصرية ، وان بدت مع ذلك وحتى فى القرن ١٤ ق م . زمن الأسرة ١٩ شبيهة بالمراكز الريفية (٢) وتجدر الاشارة ،

(١) عبد المنعم أبو بكر : التنظيم الاجتماعى فى مصر القديمة ، فى تاريخ الحضارة المصرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، العدد الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة بدون تاريخ . ص ١٢٧ .

(٢) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٦ .

الى أنه في بعض الحالات كانت بعض المدن الكبرى — خلاف العاصمة — تقوم بوظائف الادارة والحكم لمساعدة العاصمة ، وبعض هذه المدن استخدم كعاصمة قبل ذلك أو بعد ذلك ، مثلما وجدنا في بعض فترات التاريخ المصرى القديم حين كان هناك وزيران أحدهما مقيم في طيبة ، ومجال نفوذ مدينته من أقصى الجنوب حتى أسيوط شمالا ، والثانى وهو المقيم في هليوبوليس ، مجال نفوذه على الوجه البحرى والصعيد حتى أسيوط^(٢) ولا غرابة في ذلك وقد علمنا أن كلتا المدينتين استخدمتا كمواصم وكان موضعهما وموقعهما الجغرافيين ميسرا لهما في الاضطلاع بتلك الوظيفة فالأولى غير بعيدة عن منطقة التركيز السكانى والنشاط في جنوب الوادى والنوبة والثانية غير بعيدة عن قلب الدلتا منطقة الانتاج الهامة والأراضى الزراعية المنبسطة والمتاحة ، وحلقة الصلة مع جيران مصر في الشمال والشرق *

١٠٢

مدن الحماية والحصون العسكرية :

تطرقنا من قبل ، الى تميز المدن المصرية عن غيرها من مدن الحضارات المعاصرة بغياب السور من مورفولوجية المدينة باستثناء بعض الفترات — ويذكر مفوردد أن كل شئ في مصر ، ما عدا المدينة ، شيد ليقاوم الزمن^(٢) *

ومع ذلك نفى بعض الفترات ، كان لا مفر من تحصين المدينة ، واقامة الأسوار من حولها ، وقد فطن منذ البداية الى ضرورة قيام حصون في نقاط مختارة تنبئ عن حس جغرافى فريد ، وقد ارتبطت مواضع هذه الحصون ومواقعها بالمناطق التى كان يفد عن طريقها الاعداء التقليديين لمصر في عصر الفراعنة من الشمال الشرقى ومن الجنوب ومن الغرب *

(١) لويس مفوردد : المرجع اعلام . ص ١٤٢ .

(٢) عبد المنعم أبو بكر : مرجع سبق ذكره . ص ١٢٥ .

وعلى ذلك سنتحدث عن ذلك النمط العمرانى فى هذه الجهات (١) :

أولاً : المدن والحصون الشرقية :

نشط انشاء الحصون فى هذه الجهة من مصر بعد تزايد خطر البدو والأسويين ، وقد أملت « بترى » اللثام عن موقع فى شرق الدلتا على شكل « كوم » تبين أنه بقايا قلعة حصينة ، تحمى حدود مصر الشرقية ، وبنى على شكل خلية من الصوامع القبابية التى تشبه المخازن التى عثر عليها فى « بيثوم » وكانت هذه تحتل الطابق العلوى الذى تقيم فيه الحامية على ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف فوق مستوى السهل ، مما يتيح للحراس الرؤية لمسافة أميال بوضوح ، وأحاط بالمكان سور ضخم سمكه ١٢ مترا وبارتفاع فى مثل ذلك السمك ، وفى الوسط يرتفع حصن القلعة وهو بناء مستطيل الشكل من اللبن يكتنفه برج ، ووجد اسم ابسماتيك مما يدل على أنه أقام به رجاله « البرونزيين » الذين قدموا من البحر ليراقبوا أى تسلل من الحدود الشرقية للدلتا . وكان حصن « دفنه » هذا أقدم من زمن ابسماتيك (٢) .

ويذكر « بيكى » أن « نخاو » الفارسى ، و « دارا » و « بطليموس » أسهموا فى حفر وتنظيف القناة التى كانت تأخذ من النيل وتممر ببوباسطس مختربة وادى طميلات حتى البحيرات المرة ، ومنها الى البحر الأحمر حيث « تل القلزم » وتكشف الحفائر بهذه الأخيرة ، والتى تنتمى للفترة الفرعونية ، عن أن الموقع أستغل كحامية عسكرية فى عهد الرعامسة .

(١) تجدر الإشارة الى أن المصريين القدماء أقاموا حصونهم هذه على حدود البلاد وحيث كان الاحتكاك بينهم وبين جيرانهم أو الطامعين فى غزو مصر ولا تعرف أية حصون اقيمت داخل البلاد لغرض الدفاع الا القليل وبعضها مشكوك فى كونه حصونا بمعنى الكلمة . راجع :

محمد أبو المحاسن عصفور : بين الفنون والبيئة فى كل من العراق ومصر فى عصورها القديمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية المجلد (٢١) سنة ١٩٦٧ . ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٢) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره . ص ٥٨ — ٧٨ .

ولعله مما يشير الى الحس الجغرافى للفراعنة فى اختيار مواقع الحصون ، أن الملك « اختوى » أوصى ابنه « مرى كارع » من أواخر الأسرة الالهناسية العاشرة ، الى أهمية منطقة البحيرات المرة وضرورة انشاء الحصون بها ، وخاصة لردع البدو ، وأشار الملك المذكور الى ضرورة تحصين جزء منها وغمر جزء آخر بالماء^(١) .

وتميزت حصون الدلتا ، بأنها تقام فى مناطق انتقالية Transitional مثلما هو الحال بين (المنطقة الدلتاوية الغنية والصحراء التى تليها شرقا وغربا . وكانت حركة انشاء هذه الحصون تزيد حين يلمح الفراعنة خطرا محدقا من جهة الشرق مثلما فطن رمسيس الثانى لخطر الحيثيين وغيرهم .

وقد أشار « سنوحى » للأسوار التى أقيمت لصدد غارات الساتى ، وهم جماعات البدو فى الصحراء الشرقية ، اذ فطن المصريون لأهمية أقامة الحصون هناك منذ بواكير عهد الأسرات . ويدل على ذلك أن الكثيرين من ملوك مصر كانوا ينعتون أنفسهم بأن كل منهم « سور مصر العظيم » وفى عهد الدولة الوسطى أقيمت العديد من الحصون منها حصن أمنمحات الأول فى شمال شرق مصر لحماية مصر من غارات البدو وكان يدعى جدار الأمير . وفى الدولة الحديثة أنشأ رمسيس حصونا فى « تل الرطابة » ، « تل المسخوطة » وغيرهما وكان حصن « ثارو » يشرف على مدخل مصر من الشرق وأنه كان مركزا لخطوط الدفاع عنها من هذه الجهة ، وتتجلى أهمية الاستراتيجية فى أن البحيرات التى كانت واقعة جنوبى شرقى بحيرة المنزلة تترك لسانا ضيقا من الأرض بينها وبين البحيرات المرة ومنه كان طريق حورس الى غزة عن طريق العريش ، ويدل على أهمية هذا الحصن أن كلا من رمسيس الأول ، وسيتى الأول عملا كقادة لهذا الحصن قبل توليها العرش^(١) .

(١) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . ص ١٧٤ .

(٢) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٣١٣ - ١٥ .

(١) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٨٥ - ٩١ .

ولعل مما يشير الى أهمية حصون الشرق حرب التحرير بعد غزو الهكسوس وقيام العاصمة المصرية « المحصنة » في شرق البلاد وفي الأوقات التي نمت فيها امبراطورية مصر في آسيا ، أو التي تحسب فيها الحكام خطرا موشكا على البلاد من الشرق .

ثانيا : مدن الحصون والحماية الجنوبية :

وهذه كان لها شأن كبير ليس فقط في حماية وتدعيم حدود مصر الجنوبية ، ولكن أيضا في التجارة والاتصال التجارى بين مصر وما يليها جنوبا . وكانت هذه الحصون تكمل حصون مصر في الجنوب مع الحصون الكائنة في جهاتها الأخرى . وكان « هيردوت » من الذين لاحظوا توزيع هذه الحصون جغرافيا ، زمن « ايسماتيك » وارتباطها بمصادر الخطر الخارجى ، فذكر « اليفانتينا » في الجنوب (تجاه الأثيوبيين — يقصد النوبيين) ، ودافناى أو (دفنة) تجاه آسيا ، ومارية تجاه ليبيا^(١) وقد وردت اشارات كثيرة الى حصون الجنوب في النوبة ، وتجدر الاشارة الى أن الدماء المصرية اختلطت كثيرا في مدن مصر الجنوبية ، وكانت طيبة كأكبر مدن الجنوب — حتى في الفترات التي لم تختل فيها كعاصمة — ذات صلات واسعة مع الجنوب وسبقت الاشارة الى زيادة أعداد النوبيين في طيبة وامتزاجهم ثقافيا وتأثرهم بالعبادات المصرية .

ويعد أقدم الحصون المصرية الباقية في الجنوب هو حصن « ابيدوس » ويرجع الى الأسرة الثانية ، ويعرف الآن « بالشونة » أو « شونة الزبيب »^(٢) وسمك جدار هذا الحصن ١٧ قدما وارتفاعه ٣٤ قدما وطوله ٤٠٧ قدما وعرضه ٢١٠ قدما ، لاويحيط به ممر عرضه ١٠.٥ قدما ، يليه حائط مرتفع سمكه ٩٥ قدما وبه أبواب أشبه بالحجرات ويوجد بجواره قلعتان من طرازه .

وزادت الحصون في الجنوب ، وفي عهد الأسرة (١٢) اتبع

(١) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ١٠٨ .

(٢) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٣١٣ .

المصريون في بناء الحصون طرازاً جديداً كما هو الحال في حصن سمنا .

ومما يدل على زيادة الحصون في عهد الدولة الوسطى ، أنه كان هناك في النوبة ٧ قلاع تمتد على مدى ٤٠ ميلاً من الجندل الثاني ، معظمها فوق روابي ، وعدد منها فوق الجزر ، وقد صممت بغير شك لتكون مواضع دفاعية كما يتضح من أسمائها مثل « التي تطرد القبائل » أو التي تكبح الصحراوات وهي منشآت ضخمة لها جدران سمكية من اللبن ، وتدور حول مساحة لايواء العديد من الموظفين والكتاب والحاميات اللازمة وأشهرها ما بناه سنوسرت الثالث^(٢) . وكان نشاط انشاء هذه الحصون ، مرتبط بنشاط واتساع مصر حتى الجندل الثاني بدلاً من الأول ، ومحاولة الملوك صد غارات الجنوبيين^(٣) .

وتجدر الإشارة الى أن هذه الحصون كنمط عمراني ، كانت وظيفتها الرئيسية صد الغارات الأجنبية أساساً ، ولكن بعضها كان مزدوج الوظيفة بمعنى صد غارات الأعداء من ناحية وتنظيم مرور التجارة أيضاً ، كذلك كان مزدوج الوظيفة من زاوية أخرى ، هي أنه بينما كان الحصن أساساً لصد غارات الأجانب ، بنى بعضها مزدوج الوظيفة ، كما نرى ذلك في الحصون التي أقامها أمراء الجنوب في طيبة لصد النوبيين أو الليبيين ، وكذا لوظيفة داخلية ، كما هو الحال عندما احتدم الخلاف والحروب بين ملوك أهناسيا ، وأمراء طيبة في عهد الأسرتين ٩ ، ١٠^(٤) .

ولفهم دور هذه الحصون في جنوب مصر ، نشير الى أن النوبة العليا آنذاك كانت تسمى « كوش » وكانت « نباتا » عاصمتها ، بينما كانت مروي القديمة مركزها الإداري^(٥) .

-
- (١) المرجع أعلاه . ص ٣١٣ — ٣١٥ .
 - (٢) جاردنر : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٦ .
 - (٣) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٢٣٣ .
 - (٤) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . جزء ١٠ ، ص ٤٥٢ .
 - (٥) سليم حسن : مرجع سبق ذكره . ص ١٧٨ .

وإذا تطرقنا لمراحل انشاء هذه الحصون ، نجد مثلا أن حملات « سنوسرت الثالث » على النوبة قد تطلبت انتفاذه مدينة « الفنتين » قاعدة لجيوشه ومؤنه أى مثلت رأس حربة يتقدم منها للجنوب . ومن أجل الوصول لهذه القاعدة بسهولة ، أمر بحفر قناة في منطقة الشلال للوصول لها بالسفن وتشير الدلائل الى أن المصرى القديم ، كان يهاجر الى النوبة وذلك لبعض أعماله وكان ذلك في نهاية الدولة الوسطى ، وأن لم يكن ذلك على نطاق واسع ، وكان لا يسكن هناك الا في الاماكن احصنة^(١) .

وإذا ما تحدثنا عن تخطيط هذه الحصون والمدن الدفاعية ، نجد أنها تطورت مع الزمن شأنها في ذلك شأن المدن ذاتها . فكان من أوائل حصون مصر كما سبق حصن هيراكونبوليس (الكوم الأحمر) ، الذى شيد عند حافة الصحراء للدفاع عن المدينة ، وكان ذلك الحصن الباكر يتألف من سورين ، أحدهما من داخل الآخر ، وكان السور الخارجى أقل ارتفاعا من السور الداخلى ، وأقل من نصف سمكه . وتميز السور الداخلى بأنه تتخلل سطحه الخارجى دعامات ، ويكتنف مدخله برجان متقاربان ، مما يمكن من حسن الدفاع عنه^(٢) ، وأما حصون الفترات التالية فتميزت بالتطور بما يحقق مزيدا من الحماية والدفاع .

وعلى أية حال ، فمحاولة التعرف على الملامح العمرانية لهذا النمط من محلات العمران ، تقابل بالعديد من المشكلات الناجمة عن نقص المعلومات شأنها في ذلك شأن بقية المحلات . وان كانت الأمثلة الراجعة للدولة الحديثة تقدم فرصا أفضل لذلك ، حين وصل المصريون القدماء الى الجندل الرابع ، وأول ما يلفت النظر في النمط العمرانى هناك أنه متماثل لكل فئة ، بمعنى أن حصون المناطق السهلية كان معظمها متشابهة ، وحصون المناطق الجبلية أو الجزر أيضا كانت متماثلة . ويستنتج من ذلك ، أن مخططى هذه المحلات تأثروا بمعطيات البيئة الجغرافية .

(١) المرجع أعلاه ، ص ١٤٠ ، ص ١٧٨ .

(٢) محمد أنور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٨٠ - ٨٦ .

وعلى وجه العموم ، كان الجزء الرئيسى من هذه المحلات والحصون مربعا أو مستطيلا ، ومطوقا بسور من الطوب اللبن ، وأضيفت أبراج مربعة للسور الخارجى وذلك على أبعاد معينة على طول جوانبه ، كذلك فى الأركان وألحق بالسور بوابات حجرية وكانت المدينة الكائنة داخل ذلك السياج مخططة حول مجموعة من الشوارع الضيقة ، التى تملأ مساحة مستطيلة نسبيا ، وذات شبكة متعامدة ، وان لحق التغيير بهذه الخطة أحيانا كما فى منطقة Amara west والى حد ما فى منطقة serebi حيث تحولت الخطة شيئا فشيئا الى خطة عشوائية organic layout وكان السور يحيط بثلاثة أنواع من المباني ، أكثرها شيوعا هى معبد حجرى البناء ، ذا طابع وتصميم مصرى ، مثل ذلك الذى وجد فى منطقة soleb وكان يضارع بعض المعابد الرائعة فى مصر ذاتها ، وكان يتصل به مجموعة من « البلوكات » ومجموعة من المخازن الضيقة ، ربما من أجل الانتاج الزراعى ، وفى بعض الأحيان للمواد الخام التى يحصل عليها من الاستغلال المحلى أو من التجارة فيما وراء الحدود^(١) . وكانت بقية المساحة مخصصة للمباني المنزلية والادارية وكانت من الطوب اللبن . ويشمل ذلك المقر الحكومى المدنى ، وقد دلت الحفائر خارج أسوار المدينة فى منطقة Amarawest على وجود بعض المباني المتطورة من الطوب ، ذات جدران بنيت بطوب أصغر حجما وتمثل ذلك فى بعض المنازل التى بنى أحدها فى مقابل أسوار المدينة مباشرة . ووجود المعبد فى التركيب الداخلى للمدينة كان يوحى بأنه قلب الدفاع المصرى ، ضد الفوضى والعدوان من الأراضى الخارجية ، بما أن الاله هو الذى يقطن داخله .

وأما عن تأثير المصريين بطوبغرافية المناطق التى بنيت فوقها هذه الأنماط من المحلات فنجد أمثلة عديدة له .

ففى المناطق المتسعة المسيجة السهلية ، بنيت المحلة متسعة ، تشغل الجزء الأوسط منه قلعة مستطيلة محاطة بسياج ضخم فى شكل

Kemp., B. J., Fortified towns in Nubia, in ucko. P.; Tringham, (١)
R., & Dimbleby, G., op. cit., 1972, p. 651.

سور من اللبن يطوقها. وله أبراج مربعة على طول الجوانب ، وكذا عند الأركان • وتحوى خنادق ، في بعض الحالات •

وقد حظيت البوابات بتحصينات خاصة ، كذلك شيدت بعض الخنادق باستخدام الحجر ، من الداخل واتصلت بالنهر اتصالا سفليا وذلك لتأمين الامداد بالمياه • ووجهت أهمية خاصة لخط الدفاع الخاص بحماية السور الرئيسى المطوق للمحلة ، ومنع نقبة ، أو الهجوم عليه ، أو قصفه ، ولذا أنشئت بعض فتحات الرماية Loophole وشيدت المتاريس وذلك على طول الحافة الداخلية للخندق ، وذلك على مسافات معينة •

وفي داخل تلك القلعة فإن المباني كانت عديدة ، وغالبها ذات طوابق متعددة ، متمشية مع الخطة ذات الزوايا القائمة ، والتي يحددها طريق بجانب السور الرئيسى^(١) •

وكانت حصون المناطق السهلية مرتبطة بالنوبة السفلى ، بينما حصون المناطق الجبلية مرتبطة بالنوبة العليا • ومن أمثلة الحصون سابقة الذكر في المناطق السهلية ، حصن « فرس » (ويلاحظ أن النهر غير مجراه في المنطقة وأصبح الحصن بعيدا عنه) وكان يجاور الحصن ميناء النهرى ، وكانت أقوى التحصينات التى سبق لنا ذكرها تقام على ضلع الحصن المواجه أو المطل على اليابسة ، لما كان معروفا عن صعوبة الهجوم من جهة الماء ، لذا كان التحصين فى الضلع المطل على اليابس عظيما ، وكان ذلك الجانب نفسه هائلا ومنحدرا لتصعيب الهجوم على العدو^(٢) •

ويشير « بترى » الى أن الخشب استخدم فى بناء الحصون لزيادة تدعيمها ولا سيما وقد بنيت من اللبن ، حتى اذا أحدث العدو « ثغرة » فى البناء ظل متماسكا ولا ينهار ويرجع استخدامه فى الحصون الى عهد الملك « سنفرو »^(٣) •

Kemp. B. J., op. cit., 1972, pp. 652 - 56.

(١)

(٢) سليم حسن : مرجع سبق ذكره ص ١٦٩ — ١٧٢ •

(٣) فلندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ٣١٣ — ١٥ •

ويشير أيضا الى أن أول تطوير في بناء مثل هذه المحلات من الطوب (الآجر) كان في عهد الرومان *

ومن الحصون التي بنيت في المناطق ذات الطبيعة الوعرة ، استفاد المصريون من خصائص الموضع في بناء حصون مختلفة في نمطها عن حصون المناطق السهلية نوعا التي سبقت الإشارة إليها * وهذه الحصون في المناطق الوعرة كانت في النوبة العليا ، ومثالها حصون سمنة الغرب وسمنة الشرق (قمة) حيث يضيق مجرى النهر وتعرضه صخور تمتد الى شاطئيه *

أما حصن سمنة الغرب فكان أول الأمر مستطيلا ثم زيد فيه من أحد جانبيه ، ويحيط به خندق عرضه ٣٦ مترا في المتوسط * وتبرز من سطوح جدرانه الخارجية في الجنوب والغرب والشمال دعائم أو أبراج على مسافات غير منتظمة * ويختلف سمك الجدران من ٦ - ٨ أمتار ، ويرجح أن مدخله كان الى الشمال منه *

أما حصن سمنة الشرق (قمة) فيعلو ربوة عالية تشرف على النيل ، ويخلو جداره من الأبراج ، أو الدعائم الا عند مدخله لحمايته ، وبالقرب من الجهة الشمالية الغربية درج يؤدي الى النيل ، ويحميه جدران سميكة ، وكان بالقرب من جداره الشمالى معبد يرجع لعهد حتشبسوت وتحتمس الثالث *

وكان يجتاز كل من الحصنين طرق رئيسية ، تتفرع منها طرق فرعية تقع عليها مكاتب الموظفين والاداريين ، والحامية ومساكنهم ، وخارج كل حصن كانت بيوت غير المصريين وقبور الموتى *

ومن الحصون الهامة الأخرى حصن « بوهين » جنوب الجندل الثانى مباشرة ، وبالقرب من « وادى حلفا » ، وكان من حوله خندق عميق ، وعلى جانبه الخارجى جدار من اللبن يعلوه طريق مسقوف يحمى خط الدفاع الأول ، وعلى الجانب الداخلى جدار آخر من اللبن ، وتتنحله أبراج مستديرة ، تشرف على الخندق وبه بعض « الكوات » بحيث يمكن أن تصوب منها السهام الى أى مكان

بالخندق وبحيث كان لكل مدافع ثلاثة كوات في المكان الواحد^(١) ، وكان من أهم منشآت الحصون انشاءات خاصة بتأمين الحصول على المساء وخاصة الحصون الصحراوية والتي كانت ترتبط بالنيل « بممر سري » كما كان عليه الحال في حصن « سمنة » ، وحصن « ورنرتي »^(٢) . ويمكن أن نضيف الى النمطين العمرانيين السابقين نمطا ثالثا هو محلات وحصون الجزر النيلية .

وقد دلت الآثار على وجود العديد منها لما يقدمه الموقع الجزري من حماية ، ومن ذلك ما كان قائما في جزيرة أسوان والفنتين ، التي مثلت نقطة الانطلاق المصرية نحو الجنوب وقلعة مصر الجنوبية ، كذلك تشير الدلائل الى بناء حصن في جزيرة « ساسي » زمن تحوتمس الثالث^(٣) وتجدر الإشارة الى أنه كان هناك حصون توأمية (على جانبي النهر) منها حصن معام وهي عنيبة الحديثة ، بالإضافة الى جزيرة وسط النيل^(٤) اتخذت أيضا كحصن .

ثالثا : مدن الحصون والحماية الغربية :

وكانت هذه تكمل احكام الحصار على المناهض التي يأتي منها المغيرين على حدود مصر ، وخاصة المعمور الزراعى من قبل بدو المغرب . وقد فطن الفراعنة للخطر الداهم الذى يقدم بين فترة وأخرى من الجهة الغربية ، ومن هؤلاء « رمسيس الثانى » ، الذى بنى حصونا عديدة في الجهة الغربية وغيرها في الشرق ، ومن ذلك ما أقامه في غرب الدلتا والساحل الشمالى لسلسلة من الحصون مثل حصن « الغربانيات » قرب برج العرب ، والذى لم يبق منه الا القليل . وكان في وسطه معبدا باسم رمسيس الثانى . وكان هناك حصن آخر في العلمين ، أما آخر هذه السلسلة من الحصون الغربية فكان عند زاوية « أم الرخم » غربى مرسى مطروح ، مما يدل على نظرية ذلك

(١) محمد انور شكرى : مرجع سبق ذكره . ص ٨٥ — ٩٠ .

(٢) سليم حسن : مرجع سبق ذكره . ص ١٦٩ — ٧٢ .

(٣) المرجع أعلاه ، ص ١٤٧ .

(٤) المرجع أعلاه — ص ١٥٦ .

الفرعون الثاقبة لنافذ الخطر ، وكذا نظرت الجغرافية الخاصة بتباعد هذه المحلات الدفاعية على مسافات معينة تمكنه من تدارك الخطر حين وجود هجوم قادم من الغرب ، مثلما تحسب للهجوم المحتمل من الجنوب والشرق^(١) .

ولأهمية مواضع حصون الجهات الغربية ، فطن الفراعنة لأهمية النقاط الانتقالية *Transitional points* بين المعمور والصحراء ، فأقاموا الحصون بها ، سواء في غرب أو في شرق الدلتا ، وفي عهد رمسيس الثالث حدثت مواجهة بين المصريين والليبيين ، هزم فيها الأخيرين شر هزيمة عند حدود مصر الغربية ، حين كانوا في طريقهم إلى منف وذلك عند مدينة هامة في غرب الدلتا هي اليوم « مكان كوم ابوللو » لموقعها الهام أمام الدرب الموصل من الصحراء إلى الدلتا عن طريق وادي النطرون^(٢) ، ويبري « محمد رمزي » أنها اليوم هي الطرانة في مركز كوم حمادة ، وأسمها المصري ببر رانوت *Per Ranmout*^(٣) بل أكثر من ذلك فإن التواجد المصري العمراني والإداري في الواحات الغربية مثل البحيرية والفراهرة والخارجة والداخلية منذ الأسرة السادسة لم يقصد منه حماية طرق التجارة فحسب ، بل أيضا أحباط اعتداءات البدو .

محلات المستودعات التجارية ومراقبة التجارة النيلية :

نمت بعض المحلات النيلية في مصر لتؤدي وظيفة خاصة ، وهي خدمة التجارة والملاحة ، ومن هنا كانت أهمية المواضع النهرية التي كفلت لهذه المحلات الاضطلاع بوظيفتها . وكان من أهم المناطق التي ظهرت فيها هذه الوظيفة هي منطقة النوبة في الجنوب ، وكذا الدلتا بفروعها النيلية العديدة والتي ظهر بها موانئ ومدن نهرية هامة لا سيما في الفترة الفرعونية المتأخرة وعصر البطالمة .

(١) أحمد فخري : مرجع سبق ذكره . صفحات متعددة .

(٢) المرجع أسلاه ، ص ٣٧٢ .

(٣) محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ . الجزء الثالث ، القسم الثالث . ص ٣٣٣ .

وقد سبق الحديث عن الحصون والحماية ، وجدير بالذكر أن العديد من هذه المدن الدفاعية قد اضطلع في الوقت نفسه بوظيفة مدن المستودعات ومراقبة التجارة وتحصيل المكوس ، وما الى ذلك .

أما اذا تحدثنا عن مدن المستودعات التجارية الجنوبية في النوبة وفي شمالها ، فاننا نجد أن هذه المدن قد أثر في موقعها تأثيرا شديدا ، طبيعة « الايكومين » الذي تخدمه ، وليس أدل على ذلك من موقع مدينة وحصن « كرمة » التي مثلت الحد الشمالى للمنطقة الزراعية الغنية نسبيا بالمقارنة بالمنطقة الواقعة بين الجندل الثانى والثالث ، والتي لا تغرى بالزراعة بالإضافة الى صعوباتها الملاحية ، لذلك نشطت كرمة كمحطة تجارية ، وان كانت المنطقة الواقعة الى شمالها كومت منطقة انقطاع بين مصر والمنطقة الغنية نسبيا الى جنوب كرمة ، التي علاوة على أهميتها كحصن وميناء كانت هامة كملتقى للقوافل ، وكان في كرمة جالية مصرية ، وكان المركز التجارى المصرى بها محصنا كما تقدم ذكره بالنظر الى موقعها الجنوبى المتقدم .

وجدير بالذكر أيضا ، أن نشاط تلك الوظيفة التجارية والملاحية لهذه المحلات قد ارتبط بفترات توسع مصر فى الخارج وزيادة ثروتها وخاصة زمن الدولة الحديثة . حيث توسعت الموانى الدلتاوية ، وزادت الحركة والرحلات الملاحية بينها وبين موانى البحر المتوسط ومنطقة بحر آيجة بالذات مما جعل موانى الدلتا تنتعش بالمقارنة بفترات غزو الهكسوس وفي مقابل زيادة الجاليات الأجنبية بهذه الموانى المصرية ، زاد عدد الجالية المصرية فى الموانى الأجنبية . وعلى ذلك لعبت هذه الموانى بالإضافة لكونها مراكز تجارية ووظيفة ودورا ثقافيا حضاريا ، لا يقل أهمية عن دورها الرئيسى ، وظهر التمثيل السياسى بين مصر والخارج وأيضا التمثيل الاقتصادى ، وتركز ذلك التمثيل فى المدن الكبرى والموانى .

كذلك زادت حركة الهجرة من مصر واليهما زيادة غير عادية ، وهنا يمكن تمييز نوعين من الهجرة فى الموانى المصرية ، الأولى اختيارية ، أما الثانية فهي هجرة أسرى الحرب .

ومن دلائل التأثير الثقافى للجانب فى المدن المصرية والناجم عن زيادة حركة التجارة والوظيفة التجارية لمدن المستودعات ، ظهور تغيرات فى عمارة المنازل ، وغرس الحدائق ، خلافا لما كان متبعاً فى مصر من قبل^(١) ، وان كانت تلك الملاحظة عن « ولسون » غير صادقة تماماً اذ عرف المصريون الحدائق الملحقة بالمنازل منذ فترة أقدم من فترة اتصالهم المكثف بالخارج ، وظهرت الحدائق كمعلم هام من معالم خطة المدينة واستخدام الأرض بها كما تشير لذلك آثار عديدة من الآثار التى ترجع الى ما قبل عهد الامبراطورية ، وكانت بعض هذه التأثيرات الأجنبية مستقاة من منطقة بحرايجة وميناء كريت ورودس •

أما التأثيرات الأجنبية فى المدن النهرية الجنوبية فكان أغلبها بالطبع يستقى من النوبة وما يليها جنوباً ، يدل على ذلك ما ذكره « هيردوت » عن دور المصريين فى منطقة كوش والنوبة العليا وواوات « النوبة السفلى » اذ ذكر أن هناك مدينة « تاخمو » عند حدود مصر الجنوبية^(٢) وأشار الى سكنى كل من المصريين والأثيوبيين (يقصد النوبيين) ، مما يدل على أن الموقع الجنوبى للمدينة قد أثر على التركيب العرقى للسكان بها وغلبة العناصر الافريقية فيها على عكس مدن-المستودعات التجارية الدلتاوية فى الشمال من مصر • ومثل تلك الملاحظة التى لاحظها هيردوت لاحظها « استرابو » عن مدينة فيلة فى الجنوب أيضاً •

ويلاحظ - كما سبق الذكر - أن الوظيفة الحربية والتجارية قد تلازمتا ، لا سيما فى المدن والموانئ المصرية الجنوبية ، من ذلك أن أمنمحات الأول بعد تشييده للحصن « سمنة » الحربى فى جنوب الجندل الثانى ، قام بتأسيس المركز التجارى فى كرمة •

وفى مقابل المدن ذات الصلات بالخارج سواء فى مدن الدلتا القريبة من البحر المتوسط شمالاً أو مدن النوبة عند الحدود

(١) جون ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٣١٠ .

(٢) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ٧٦ - ١٠٦ .

المصرية الجنوبية ، كان هناك حركة تجارية وملاحة نيلية داخلية ، بدأت في عصر الاتحاد الأول ، وأبدت نشاطا كبيرا نتيجة التقدم في صناعة الأدوات والآلات ، مما ساعد على تشجيع التبادل التجارى بين المدن المختلفة . وكثيرا ما نرى تلك المراكب مرسومة على جدران المقابر ، وكانت صفحة النيل زاخرة بها ، وكانت البضائع اما ضرائب مرسله الى الخزانه العامة الملكية في العاصمة ، أو سلعا من سلع التبادل التجارى في طريقها الى أسواق المدن التى يتم فيها التبادل مع أرباب الحرف المختلفة ، اذ أن تبادل النقد لم يكن معروفا ، وكان تبادل السلع هو الشائع فقط ، وان تطور ذلك التبادل فيما بعد اعتمادا على بعض الحلقات النحاسية^(٢) . وقد ذكر « هيردوت » أن مدن الملاحة النيلية هذه تجل عن الحصر ، ويجب ملاحظة أن الكثير من هذه المدن كان له أهمية أثناء انحسار الفيضان حيث الحركة النهرية للنقل محصورة في النيل وفروعه ومن ذلك مثلا « الطريق المائى المار بالمدن النهرية التى أشار اليها هيردوت » مثلا «نقراطيس» و «ممفيس» مرورا بمدينة « كوركاسوروس »^(٣) .

وكانت نقراطيس على الشاطئ الشرقى للفرع الكانوبى قرب الاسكندرية وكان بها حركة تجارية أغريقية كبيرة استمرت حتى سلبتها الاسكندرية أهميتها التجارية بعد انشائها . أما « كوركاسوروس » فكانت قرب رأس الدلتا حيث يتفرع النيل الى فروعه الدلتاوية وتقع اليوم محلها « الوراق » بالجيزة غربى النيل .

ومما يدل على التوجيه الجغرافى لمدن المستودعات والملاحة التجارية ، أنه بينما اضطلعت هذه المحلات بوظائفها الخاصة بمشتجات النوبة فى الجنوب وكان أهمها الذهب والمعادن والمنتجات الافريقية ، كما فى كرمة التى عندها كان يجب أن تؤدى الضرائب ، نجد أنه فيما بعد وفى عهد البطالمة ومن بعدهم، اضطلعت مدن بغور الدلتا

(١) أحمد مخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٢١٢ .

(٢) جيمس هنرى برستد : انتصار الحضارة ، ترجمة أحمد مخرى : مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ . ص ٩٨ - ٩٤ .

(٣) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ٣١٠ .

بتلك الوظيفة ولكن مع منتجات الأقاليم الدلتاوية وكذا مع الواردات الأجنبية من الخارج من منطقة حوض البحر المتوسط . وفي زمن الرومان كان هناك بعض الثغور تؤدي بها الضرائب على الملاحة للسفن المتجهة جنوبا ومن ذلك ثغر شديا Schedia أو سخديا ، وهو ثغر نوى قديم مكانه اليوم « النشو البحري » شمال كفر الدوار ، وكانت تقع عند ملتقى ترعة شديا القديمة - التي حفرها البطالمة لأمداد الاسكندرية بالماء العذب - من فرع النيل الكانوبى .

أما السفن الآتية من الجنوب فكانت تدفع الضرائب عند مدينة هيرموبوليس Hermopolis كذلك كانت الضرائب تفرض على البضائع الواردة عن طريق البحر الأحمر وتحصل في مدينة « قفط » بنظام الالتزام^(١) (حيث مثلت ثنية قنا وموضع قفط عليها اقترابا لمنطقة البحر الأحمر يضاف الى ذلك أن قفط كانت عند نهاية الوادى الذى ييسر الاتصال بين النيل ومنطقة البحر الأحمر) .

وفي الفترات التى كانت مصر يتهدها الغزو والأطماع الأجنبية كانت هذه المراكز التجارية تدعمها الحصون التى تحرسها ، تقوم بمراقبة حركة الهجرة الى مصر والتسلل الأجنبى كما كان الحال في محطات ومستودعات التجارة النيلية المصرية في النوبة ، والتى كان من أهمها ميناء التفريغ في « بهين » تجاه « وادى حلفا » مباشرة ، لأن هذه المنطقة هي النقطة النهائية للتجارة النهرية ، بينما لم تساعد طبيعة الأرض الوعرة في الجنوب عند « سمنه » في إقامة موانئ تفريغ ، فأنشئ هناك حصن للحماية .

وكانت مدن التجارة والمستودعات علاوة على وظائفها الهامة في النوبة تعكس تأثيرات مصرية خالصة في النواحي المادية والبشرية هناك ، فعلاوة على تأثيراتها البشرية مثل زيادة الدماء المصرية في

(١) بترى : مرجع سبق ذكره : ص ١٣٧ - ١٣٩ .

(٢) سليم حسن : مرجع سبق ذكره . ص ١٦٨ .

١٧٠ - ج

السكان والتأثير الحضارى ، نجد أن المؤسسات المادية كالمساكن والمباني قد تأثرت أيضا بالصبغة اصرية ، ومن ذلك أنه في المستودعات التجارية في كرمه ، نجدها عكست الأثر المصرى في البناء ، فقد بنيت بحسب المقاييس والأبعاد المصرية فكان أحد المباني الهامة ذا أبعاد ١٠٠ ذراع (٥٤٥ مترا) × ٥٠ ذراع (٢٦٧ مترا) ولكن مع ذلك فإن اللبانات التى بنى بها تختلف عن اللبانات المصرية العادية ، كما أن البناء جرى استخدام الخشب فيه داخل صلب المباني لتقويتها ، وكان ارتفاع المبنى ١٩٣ مترا عند الكشف عنه وكان دوره العلوى مخصص للسكن والمؤن ، كذلك الحق به مبنى اضافيا في الجهة الشرقية^(١) .

هناك نقطة أخيرة تتعلق بموضوع مدن الموانى النيلية ، هى أن طبيعة العمران شمال المركز التجارى « كرمه » وصعوبة الملاحة النهرية قد أثر في نمو ونشاط طرق القوافل التجارية منها حتى الجندل الثانى ، حيث تتحول التجارة من الطرق البرية الى النقل المائى^(٢) ، ومع ذلك ، فإن المنطقة بين الجندلين الثانى والثالث تعد منطقة انقطاع بالنسبة للنقل المائى مما أثر على نمو وتوزيع محلات الموانى والمستودعات التجارية في المنطقة .

وكم سبق القول فإن مدن التجارة واكبت في نموها نمو الحضرية المصرية القديمة ذاتها ، من ذلك أن « الفنتين » كانت أقصى محطة تجارية في الجنوب في عهد ما قبل الأسرات^(٣) بينما نجد أن المحطات التجارية نمت وامتدت جنوبا الى مسافات أبعد لا سيما في عهد الامبراطورية .

كذلك لاحظنا أنه في بعض فترات التاريخ المصرى ، وحين سيطرت الوظيفة التجارية ، والعقلية التجارية ، كما كان الحال ابان الأسرة ٢٦ وجدنا أن مدن الدلتا صيغت بهذه الوظيفة عموما ، بينما كان الصعيد منتجا للغلال أساسا مما انعكس على مدنه وجعل هناك فرقا بين مدن الدلتا ومدن الصعيد مرجعة الاختلاف في درجة تأثير الوظيفة التجارية .

(١) المرجع أعلاه ، ص ١٩٢ .

(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٥ .

Johnson, P., op. cit., 1978, p. 40.

(٣)

مدن التعدين والمناجم والتعجير :

وهذه كان بعضها محلات عمرانية مؤقتة ، وبعضها اكتسب صفة الإقامة والسكن الدائم فيما بعد ، وأدى الاهتمام بهذه المحلات الى عناية ملوك مصر القديمة منذ أقدم العصور بتهيئة سبل الاتصال السهل اليها ، وتأمينها بحفر الآبار على طول الطريق اليها لمساعدة المسافرين وتأمين السفر ، مثال ذلك بئر وادى عباد الذى أقيم الى جانبها معبد صغير ، وهو المعبد المعروف باسم معبد الرديسية^(١) وكانت حركة الاهتمام بمدن ومعسكرات المناجم والتعدين مزدهرة بخاصة زمن سبتي الأول من الأسرة ١٩ ، والذي ترجع الى عهده أول خريطة توضح الطرق الى بعض المناجم ومثل ذلك يقال عن عهد رمسيس الثانى .

غير أن نشاط انشاء مدن ومعسكرات التعدين لم يقتصر على فترة بعينها ، اذ كانت نشطة إبان الدولتين القديمة والوسطى أيضا ، وتحدثنا الآثار أنه فى عهد سنوسرت الأول ، وسلفه أمنمحات الأول نشطت بعثات التعدين والتعجير وقامت فى مواقع التعدين والمناجم بعض المحلات شبة الدائمة يدل على ذلك وجود معابد بها خاصة فى منطقة سيناء .

أما أسباب قيام هذه المحلات التعدينية فكانت متعددة اذ ارتبطت بتوزيع المواد المعدنية والاحجار فى مصر القديمة مثل الفيروز فى سيناء ، والجمشت من وادى العهودى ، والجرانيت من أسوان ، ووادى الحمامات والديوريت من النوبة جنوبى غربى أبى سنبل ، والمرمر فى جنوب شرقى النيل فى الصحراء فى موقع يوجد على بعد ٢٥ كم شرقى تل العمارنة الحالية^(٢) . يضاف الى ذلك الذهب من مناطق جبال البحر الأحمر والذي عمل المصريون القدماء على تأمين تعدينه واستغلاله لارتباطه بأبهة الحكم وضرورته لعظمة الملوك.

(١) أحمد مخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٣٤٤ .

(٢) أحمد مخرى : المرجع اعلاه . ص ٢١٧ - ٢١٨ .

والكهنة من رجال الدين في المعابد ، أما المنطقة الثانية الهامة للتعدين الذهب فكانت منطقة النوبة السفلى (واوات) التي كانت لمصر بها معسكرات تعدينية ومدن صغيرة ، ترتبط في وجودها بوجود المعدن (الذهب) ، واهتم الفراعنة بتأمين الطرق والمسالك المؤدية الى حيث هذا المعدن ومناجمه وبخاصة المناطق المتحركة في مداخل الوديان ، كوادى العلاقى قرب « كوبان » ويدل الجدول التالى على أن استقلال المذهب كان ذو أهمية في سنوات حكم الفراعنة^(١) .

انتاج الذهب من منطقة واوات في أربعة سنين مختلفة

السنة	المحصول ما يقابله بالدين بالكيلو جرام	
الرابعة والثلاثون بعد حكم تحتمس الثالث	٢٥٥٤	٢٣٢ر٤
الثامنة والثلاثون بعد حكم تحتمس الثالث	٣٨٤٤	٢٥٨ر٨
الواحد والأربعون بعد حكم تحتمس الثالث	٣١٤٤ر٣	٢٨٦ر١
الثانية والأربعون بعد حكم تحتمس الثالث	٢٣٧٤ر١	٢١٦ر٠

وكان التعدين في كوش (النوبة العليا) أقل منه في واوات (النوبة السفلى) لصعوبة الوصول الى المناجم في المنطقة الأولى . وهناك ملاحظة هامة خاصة بالمدين التعدينية هذه ، أنها كمدن تعدين كثيرا ما كان يجرى هجرها وبخاصة في حالة معسكرات العمل التعدينية شبه الدائمة والمتنقلة أيضا ووجدت دلائل على أن تركيب السكان بها كان متناغرا نتيجة وفود العديد من سكان وجيران مصر والأسرى للعمل بها ، ففي مدن سسيناء التعدينية ، كان يوجد الآسيويون ، مما أوجد تأثيرا ثقافيا وحضاريا متبادلا ، كذلك عمل الكتعانيون في مساجم الفيروز والنحاس في سربيط الخنادم في سسيناء ، وان كان بعض العلماء يرى أن وجود الآسيويون في مساجم

(١) الجدول عن سليم حسن : مرجع سبق ذكره . ص ٤٠٧ .

مسيئاء، ومنها التعدينية انما يرجع الى الدولة الوسطى وليس الحديثة (١) .

ومما يدل على كبر حجم هذه المحلات التعدينية ، كذلك مما يدل على أن الكثير منها كان دائم العمران ، أن واحدة من بعثات التعدين الملكية في عهد الدولة الحديثة كانت تتألف من ٦٠٠٠ — ٨٠٠٠ شخصا ، وقد حددت وثيقة من عهد رمسيس الرابع ، جماعات التعدين والتعجير بحوالى ٩٣٦٨ شخصا في بعثة واحدة ، كذلك ذكرت ألقابهم . وأعلن قائد إحدى هذه البعثات وجماعات التعدين في آخر عهد الدولة القديمة أن رجاله في موقع التعدين يحتلجون الى حوالى ٥٠ رأسا من الماشية، ٣٠٠ رأسا من المعز يوميا، التغذية رجاله (٢) . ومثل ذلك الوصف يدل على أن هذه المحلات — على الأقل بعضها — كان له صفة المحلات العمرانية الدائمة .

مدن الثقافة والاشماع الحضارى :

وهذه لم يكن هناك من نظير لها ، حتى في مصر ذاتها ، سوى القليل. كذا لم تتخصص في ثقافة، بعينها ، أو في علم بذاته ، وانما تعددت منابع الثقافة بها والمعرفة ، ليتزود منها كل وافد عليها. ليس من مصر فقط ولكن من خارجها أيضا ، لذلك فانه يمكننا القول بثقة شامة أن مجال نفوذ مثل تلك المدن في مصر القديمة — كما هو شأن مراكز الثقافة العالمية اليوم — كان عالميا واسع الانتشار ، مودليل ذلك أن أساطين المفكرين والفلاسفة والأطباء من الإغريق ومنهم الإسكندر الأكبر نفسه الذى قدم القرابين للالهة المصرية في منف (٣) ، ومن غيرهم جاءوا الى مصر ينهلون من علم مراكزها الثقافية هذه ، واعتبروها بلاد الأطباء أحكم أهل الأرض ، وان حكمه مصر ألهمت المشرع «سولون»

(١) سليم حسن : مرجع سبق ذكره .. ص ٣١٣ .

(٢) جونسون : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٣) ابراهيم نصحي : الجزء الثانى ، ١٩٧٦ ، مرجع سبق ذكره .

وكذا الفيلسوف « طاليس » الذى تعلم من أسرار كهنتها ، ونقل عنهم الهندسة الى مواطنيه الاغريق ، وقد نصح طاليس تلميذه « بيتاجوراس » أن يتم دراسته مع الكهنة المصريين فففى فى مصر ٢٢ عاما يتعلم الفلك والهندسة فى معابدها ، كذلك تعلم أفلاطون فيها الحكمة واللاهوت والعلوم ، هو وتلميذه « يودكسوس »^(١) وكان من أهم تلك المراكز ذات الوظيفة الثقافية هى :

١ - هليوبوليس :

المدينة المصرية التى أطلقت عليها المتون اسم « أونو أفق السماء » وأعتبرت كموطن للالهة ، ويذكر أن المؤرخ « مانيتو » جمع تاريخه من سجلاتها ، ومما يدل على تعدد منابع العلم فى مدن مصر القديمة الثقافية أن هليوبوليس اشتهرت فى الفلك ، والدين والحكمة ، والطب ، وفيها كان ابتكار التقويم الشمسى لأول مرة فى العالم ، وكان لها مذاهبها الدينية والفلسفية التى لا تقارن بغيرها ، ويرى (عيد العزيز صالح) أنه كان بالمدينة نوع من التنافس بين علمائها وغيرهم منذ اختيرت المدينة كعاصمة لمصر فى فجر تاريخها ، وأصبحت ممثلة لحضارة الوجه البحرى فى مقابل مدن الصعيد كما يدل على ذلك ما جاء « بمتون الأهرام » .

كذلك يرى كل من Baines & Malek أن عقيدة « أون » ومذاهبها المقدسة قد ظلت العقيدة المصرية القديمة كلها ، كذلك تركزت الأهمية السياسية بها^(٢) ، وكان المعبد الرئيسى وكذا المدينة — على ما يبدو — محاطين بسور مزدوج سميك . وقدرت أبعاد المساحة المطوقة بحوالى ١١٠٠ متر × ٤٧٥ مترًا وان كانت النواحي الخاصة بالتاريخ العمارى للموضع وطوبغرافيته ليست واضحة تماما^(٣) وكان للمدينة شهرة مماثلة فى

(١) عبد العزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٣٥١ .

Baines, J., & Malek, J., op. cit. 1980, p. 173.

Ibid., p. 173.

(٢)

(٣)

مجالات الطب ومما يدل على الترابط بين العلوم أن المعبود حور كان يدعى كبير الأطباء .

٢ - أبيدوس :

وكانت من مراكز الثقافة الهامة بين مدن مصر ، اشتهرت بأنها موطن الأسرة الأوزيرية ، وهي Abedju المصرية القديمة أو Ebot القبطية ، وكانت أهم مناطق الدفن في مصر في بداية عهد الأسرات المصرية ، وأمكن تتبع عمرانها في الزمن إلى عهد أو فترة نقادة الأولى في فترة ما قبل الأسرات (١) . وفي عهد الدولة الوسطى كانت أبيدوس أشهر المراكز المقدسة بالبلاد ، وكانت المدينة لذلك مركزا للإشعاع الثقافي في النواحي الخاصة بالعبادة والديانة .

٣ - منف :

وهذه علاوة على ما نعلمه من وظيفتها كعاصمة ، كانت مركزا من مراكز الفكر والثقافة ، وكان تجاورها مع هليوبوليس مذكيا لروح التنافس والابداع العلمي ، ويمكن القول بلغة جغرافية المدن الحديثة أن مجال نفوذ كل منهما كان متداخلا مع الآخر ، وبدا ذلك التنافس في أن كل منهما كان له مذهبه الخاص بخلق الكون وبعد انتقال العاصمة من منف ظلت لها أهميتها الثقافية والدينية ويدل على ذلك أن شهرة منف ومذهبها الديني كانت تتردد بين جنبات العاصمة طيبة ذاتها. مما يدل على اتساع مجال نفوذها الثقافي ، كذلك كانت المدن الأخرى تفخر بأن كهنتها ومثقفها قد تخرجوا في منف (٢) مما يشابه ما نراه اليوم من شهرة لبعض مدن الجامعات والثقافة الكبرى ولكن أهمية منف تدهورت بسبب التغيرات التي طرأت على مصر سياسيا ودينيا بعد ذلك (٣) .

Baines, J., Malek, J., op. cit., 1980, p. 114.

(١)

(٢) عبد العزيز صالح : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٨ .

(٣) يذكر Baines & Malek أن منف تأثرت بنو الاسكندرية ، كما أن أهميتها الدينية والفكرية انحدرت بعد إعلان Theodosius المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية ، راجع : Baines & Malek, op. cit., p. 184.

بالإضافة الى تلك المدن الكبرى ، كانت هناك أهمية ثقافية لمدن أخرى كبيرة وصغيرة مثل مدينة وونو (قرب الأشمونين الحالية) التي كانت صاحبة مذهب الثامون ومقر رب الحكمة « تحوتى » والتي كان كل مثقف يتمنى أن يصبح من أهلها ، وكذا كانت طيبة من المدن الثقافية الهامة علاوة على كونها أشهر العواصم المصرية القديمة ، وأيضا كانت ساو « سايس » مدينة للطب^(١) .

مدن الحج والزيارة والنبوءات والعراة :

وهذه كانت عديدة في مصر ، وارتبطت بالآلهة المحليين ذوى الشهرة وكان لهذه المدن هيمنة ونفوذ كبيرين وصل حد التصديق المطلق اذ كان ذلك الاعتقاد في النبوءات والعراة وما اليها هو السائد في العالم القديم ، ولم تكن أهمية هذه المدن نابعة من كبر حجمها المادى أو السكانى لكن من كونها لها قوة الاله الكائن في معبدها وذلك يفسر لنا ظاهرة حدثت عند غزو الفرس فقد كان في سيوة معبد لآمون صاحب النبوءات ، وكان تأثيره طافيا على العالم القديم أجمع ، وهو ما يفسر لنا النفوذ الثقافى والحضارى لمدن مصر ، فما كان من قمبيز الا أن سير أحد جيشيه لبيطل نبوءة كهنة آمون بأن جيش الفرس سوف يدحر وهو ما حدث فعلا لجيشهم طبقا لنبوءة آمون في سيوة^(٢) ، ومن هنا كانت هذه المدن تمثل مزارات دائمة وموسمية جلبا للبركة وتحقيقا للرغبات . ومن هذه كانت مدينة « بوزيريس » وهى غربى السنبلأوين الحالية بحوالى ١٣ ميلا وهى تقع على مقربة من النهر ، وكانت من مدن الحج المقدسة ، وذلك للاعتقاد بأن العمود الفقري لأوزيريس دفن فيها ، وكان يتدفق عليها عشرات الآلاف لزيارتها^(٣) .

ويذكر « جونسون » أن العقيدة كانت الشغل الشاغل للبلاد كلها من القرية والاقليم الى الدولة كلها ، وعلى ذلك فلا بد أن تكون العقيدة

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق . ص ٣٥٦ .

(٢) أحمد فخرى : مرجع سبق ذكره . ص ٤٣٤ .

(٣) جيمس بيكى : مرجع سبق ذكره . ص ٨٠ .

قد أثرت في مورفولوجية المدينة بمعابدها ومزاراتها ومنشأتها التابعة وخاصة في حالة مدن الزيارة ، بل أن المزارات كانت أحيانا توجد في القرى ، حيث كان بها بعض المزارات ومقار الآلهة . كذلك يذكر « جونسون » أنه كان في مدينة فيلة وهي جزيرة ، مراكز ومعابد دينية صبغت المدينة بوظيفة مدن الزيارة والحج وقد أثر موقع المدينة في مجال نفوذها إذ كان الكثير من رواد مزارتها لعبادة « ايزيس » كانوا من أقوام وسط أفريقيا ، وقد بدا ذلك في تركيبها العرقي^(١) .

وقد ذكر « هيردوت » العديد من مدن الحج والزيارة والأعياد الدينية ومنها :

- ١ — مدينة بوزيوس (جنوب سمندوت وتسمى أبو صيربنا) للاحتفال بعيد الآلهة ايزيس وهو أكبر معبد لعبادة هذه الآلهة .
- ٢ — مدينة سايس (صا الحجر) لعبادة الآلهة نيت (أثينا) .
- ٣ — مدينة هليوبوليس (للاحتفال بعيد هليوس Helios) ، (وهو الشمس) ومنه اتخذت المدينة اسمها الاغريقي فيما بعد .
- ٤ — مدينة بوطو أو ابطو للاحتفال بعيد (ليتو) .
- ٥ — مدينة برييس (وهي جزء من تل الفرما) للاحتفال بعيد لاريس .
- ٦ — مدينة بوبسطة (شرقى الفرع البيلوزى) وهي تل بسطة اليوم عند الزقازيق وكرست للاحتفال بعيد الآلهة آرتميس .

وكان الطريق الذى يسلكه الناس في طريقهم لمدن الاعياد غروب النيل ويركبون الزوارق^(١) وكانت مدن الحج والزيارة هذه محل تقديس الناس ، ورغبتهم في أن يحظوا بالدفن بها بعد الممات (كما هو شائع اليوم بين بعض أصحاب الرسالات السماوية) ، ومن ذلك رغبة المصريين القدماء في أن يحظوا بالدفن في « أبيدوس » ليكونوا في حماية اله الموتى « أوزيريس » ومن المدن المصرية القديمة ما كان يحج

Johnson, P., op. cit., 1979, p. 125.

(١)

(٣) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٩ — ١٦٦ .

اليها المصريون في حياتهم ، أو يحج خلفهم من بعدهم اليها نيابة عنهم^(١) .

ولابد أن مدن الأعياد هذه كانت تستوعب أحيانا حجما سكانيا يزيد عن حجمها ذاتها ، من ذلك ما ذكره « هيردوت » من أن المحتفلين بعيد الاله في « بوباسطس » كان حوالى ٧٠٠.٠٠٠ من الرجال والنساء والصبية كذلك تميزت بعضها بتقديم الضحايا للالهة مثل هليوبوليس وبوطو^(٢) .

ولم تكن مدن الحج والزيارة هذه دائما للالهة من البشر ، اذ ذكر هيردوت أن القطط بعد موتها تنقل لمداخن مقدسة في مدينة بوباسطس حيث تدفن بعد تحنيطها ، وكذا الحال مع الكلاب والنمس ، أما الجرذان والبواشق فتنتقل الى مدينة « بوطو » وينقل أبو منجل الى هرموبوليس (الأثمنونين) وفي المدينة الأخيرة نجد بها مقبرة كبيرة بها العديد من الحيوانات والطيور وبالذات في جبانة كبيرة هي جبانة الأثمنونين المعروفة اليوم باسم « تونا الجبل »^(٣) .

ومن ذلك أيضا المحلات التى خصصت لدفن طائر الأبيس Apis والمعابد القائمة لذلك ، ومنها معبدا في غرب منف ، وكان الموقع يجذب السكان من الكهنة ، ومن يقومون بمراسم هذه العبادات ، والبنايين والنحاتين ، لعمل الأعمدة والأروقة ، وغيرهم من الحرفيين ومن لهم ضرورة في العناية بالطائر حيا وميتا .

وكان الحجاج يفدون للموضع ليسألوا الاله ، وانتشرت بيوت الضيافة والمحلات الخاصة باحتياجات الحجاج ، وعلى ذلك فكانت هذه المحلات ليست محلات ذات سكان ثابتين دائمين ، بل كانت تحوى سكانا وأهدين لفترة الزيارة أى غير ثابتين أو سكان مؤقتين floating population يتزايدون خلال الأعياد الكبرى ، وخاصة في المناسبات الجنائزية الخاصة بهذا الطائر^(٤) .

(١) محمد أنور شكري : مرجع سبق ذكره . ص ٦٨ — ٦٩ .

(٢) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٩ — ١٦٦ .

(٣) المرجع أعلاه . ص ١٧١ .

(٤) Rah, J. D., The house of osorapis, in ucko, P.; Tringham, R., & Dimbleby, G., op. cit., pp. 699 - 704.

ويذكر بترى أن المدن المقدسة ومدن الحج والزيارة كان عددها ٤ في الوجه القبلى ، ٩ في الدلتا في أقدم الغصور . وفي عصر المملكة الأولى بلغ عدد المدن التى صارت مقدسة لوجود مخلفات من آثار الاله الشهيد أوزيريس (٧) في الوجه القبلى و (١٠) في الوجه البحرى ، وفي الدولة القديمة كانت (١٣) في القبلى و (١٢) في البحرى^(٢) وتجرب ملاحظة أنه اذا ما ذكرنا مدن الزيارة كنمط عريض بين أنماط المدن المصرية القديمة نجد أن سبب هذه الزيارة كان متنوعا ، ويدخل تحت هذه الفئة المدن المقدسة سابقة الذكر ، وكذا مدن العرافة التى كان يهرع اليها الناس بحثا عن الغيب والمستقبل ورؤية الطالع بها حيث آلهة متخصصون في ذلك وكان أشهر الآلهة في ذلك المجال « ليتو » في مدينة « بوطو » أما المدن التى كانت أقل منزلة من بوطو في شهرتها في العرافة (التى تنسب أساسا لآلهة هذه المدن) فمنها المدن التى بها الآلهة « هيراكليس » أبو اللون ، أثينا ، كما لاحظ ذلك هيردوت ، كذلك كان من أسباب شهرة مدن الزيارة شهرة مدن بعينها في الطب والتطبيب وهى أيضا ارتبطت بالآلهة الماهرة في ذلك مثل أرباب صا الحجر (سايس) ، وأون (عين شمس) الذين كانوا يخففون عن الناس آلامهم^(١) .

كذلك كان من مدن الزيارة ، مدن الآلهة المتجلية من البطالة حيث اشتهرت مدن مصرية بعينها في ذلك ، ومنها مدينة نيابوليس (المنشية) قرى اخميم ، وخميس (اخميم) كعبة اله الخصب (مين)^(٣) . ولعل في نمط مدن الزيارة هذه بعض أوجه الشبه مع ما هو سائد في مصر حتى اليوم من وجود جاذبية خاصة لمدن بعينها ، غالبا لأسباب دينية ومقدسة تجتذب من البشر في بعض المواسم ما يفوق حجمها السكانى الفعلى عدة مرات ، وهو ما نراه اليوم في بعض مدن المزارات الدينية في الوادى والدلتا .

-
- (١) فلاندرز بترى : مرجع سبق ذكره . ص ١٠٨ .
 - (٢) هيردوت : مرجع سبق ذكره . ص ١٨٩ .
 - (٣) هيردوت : المرجع أعلاه . ص ١٨٩ .
 - (٤) المرجع أعلاه . ص ١٨٩ .

مدن الموتى :

هذا النمط من المدن لم يكن في الحقيقة قاصرا على الموتى ، بمعنى أنها لم تحو المقابر فحسب ، بل سكنها العديد من الأحياء ، ولكن الموتى كانوا يلقون من العناية والاهتمام والاحترام ، ما لم يلقه الأحياء أحيانا وكما يعبر « ممفورد » أنه حول أهرام الجيزة وهى جبانة أصلا ، نجد موطنا حضريا حقيقيا للموتى ، فالقبور فى خطوط منتظمة ، والشوارع تتقاطع معها شوارع أخرى ، بل أن مصاطب النبلاء تبدو فى شكل منازل ، ونتيجة البذخ والسخاء فى الانفاق بالاضافة الى مادة البناء ، بقيت مدن الموتى ، وذهبت مدن الأحياء ، ويرى « ممفورد » أن هذا الوضع وتلك المعتقدات هى معتقدات مقلوبة — بمقاييس اليوم بالطبع — حيث كان الأموات أجل شأننا من الأحياء .

وكانت هذه المدن تلحق غالبا بالعواصم ، وينقل « ممفورد » عن « فرنكفورت » أن كل فرعون كان مشغولا باقامة عاصمة جديدة ، ومنشآت مقبرته زمن حكمه ، وهذا لم يكن كما نعلم عرفا عاما ، اذ كثيرا ما بقيت العاصمة مسكونة من قبل عديد من الملوك ، وكذا مدينة الموتى ، ولكن الملفت للنظر أن منشآت مدينة الموتى سواء أكلت هرما أو مقبرة كبرى بعد ذلك ، كانت تشغل الجزء الأكبر من حياة الملك ، لما فى ذلك من تعب ومشقة فى النحت ، والنقش ، والاعداد للحياة الأخرى ، والملفت أيضا أن مدينة الموتى كانت — على عكس المنتظر فيها — تنبض بالحياة ، وذلك لاقامة الكهنة بها وكذا مقيمى الشعائر الجنائزية ، وتبع ذلك ضرورة توفر خدمات معينة بها أقرب ما تكون بخدمات المدينة العادية ومحلات ومتاجر وصناعات وأسواق فهقد كانت كثرة عدد الكهنة تضمن وجود المستهلكين وللمقارنة ، نجد أن طيبة فى جزئها الدنيوى (الشرقى) كانت أكثر تواضعا من جزئها الخاص بالحياة الثانية (الغربى) ويرى « ممفورد » أن وظائف المدينة المصرية القديمة وسلطانها ، لم تلتق فى السوق العام وأنها فى المقبرة والمعبد^(١) وهو قول فيه شئ من الصحة ولكن كثير من المبالغة .

(١) لويس ممفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٢ .

ولعل مدينة « هابو » في غرب طيبة مثالا هاما لاحدى مدن الموتى ، وقد بنى بها في عهد رمسيس الثالث معبدا جنائزيا فخما ، وحوله المباني اللازمة له ، وهذا المعبد وما حوله من منشآت تعطينا فكرة جيدة عن مدن الموتى الملكية في ذلك العهد . اذ يقع هذا الأثر الضخم بصروحه وأبهاء أعمدته الرائعة داخل أحواش داخلية وخارجية ، جنبا الى جنب مع المصلى الرئيسى ، والمباني جميعها تكون مدينة كاملة من مساكن الكهنة وأتباعهم ، وكذا حديقة وبحيرة وحائط السور الخارجى للمدينة من اللبن . وكانت توصل اليها قناة تخرج من النيل ، مما يدل على أهمية تزويد هذه المدن — التى لم يقتصر سكانها على الأموات — بالمياه اللازمة للكهنة والموظفين والقائمين على اقامة التمثيل والمباني والخدم اليوميين للمعابد . وعكست الموتى أحيانا بعض التأثيرات الأجنبية ، غير المصرية ، من ذلك أنه كان بسور تلك المدينة بوابة في جهته الشرقية بنيت على طراز سورى نتيجة لاحتكاك الجيش المصرى بالبيئة الآسيوية أثناء حملات مصر على سوريا^(١) ، ومدينة « هابو » هى واحدة فقط من عديد من مدن الموتى ، التى يمكن لنا أن نتعرف عليها في مختلف بقاع مصر ، وبخاصة حيث كان موضع احدى العواصم المصرية ، ولذا نجد أهمها في غرب طيبة وفى سقارة ، ودهشور واللىشت .

مدن النفى والعقاب :

وهذه لم تكن مدنا بالمعنى المفهوم ، ولكنها كانت غالبا تضطلع بوظيفة أخرى اذ كانت تشترك جميعا في موقعها الحدى بعيدا عن المعمور المصرى وعن العاصمة أساسا ، وكان يحجز فيها المارقون والخارجون على القانون ومن يرى الملك فيهم خطرا على البلاد ، لذلك كان من الطبيعى أن تقع تلك المدن في الواحات مثلا ، كذلك يذكر « ولسون » أن بعض الحصون الواقعة عند الحدود البعيدة وخاصة في الشرق استخدمت كمنفى للمجرمين وقطاع الطرق ، والذين

(١) جاردنر : مرجع سبق ذكره . ص ٣١١ .

يسلبون الضرائب ، أو الموظفين العموميين الذين يرتكبون المخالفات والجرائم ، ومن أهم المناطق التى استخدمت كمنفى ومكانا للعقاب حصن « ثارو » الذى يذكر ولسون أنه كان مكانا موحشا طبقا لوصف « استرابو » ، والذى ذكر أن حصن مدينة العريش الحالية ، قد استخدم لنفس الغرض ، وكان اسمه حصن « رينوكولار »^(١) .

وارتباط وظيفة هذه المحلات بالحصون يفسرها موضعها الحدى ، وكما لاحظنا عند ذكر دور الحصون والدفاع ، أن العديد منها أقيم لتأديب البدو ، أو المهاجمين للحدود المصرية من خارج مصر ، ولذا كان العديد من الأسرى والمشايخين يحتجزون بها فى مثل تلك المواضع الهامشية القصية . *

وفى نهاية موضوع أنماط ووظائف المدن المصرية القديمة نشير الى أن تلك الأنماط والوظائف كانت مختلفة بالقطع عن غيرها من مدن الحضارات المجاورة لمصر ، لأسباب عديدة بعضها يرتبط بالآثار الطبيعية للبلاد ، والآخر تآثر تآثرا بأبعاد العقيدة المصرية القديمة . فمثلا ، لم تعرف مدن الأسوار (المدن المسورة) فى الفترة الممتدة بين أوائل الأسرات وعصر الامبراطورية ، لتوفر الأمان والثقة اذ كان الملك الاها بعكس الحال فى العراق مثلا ، وكانت المدينة وقتها مركزا لاقامة الطقوس ، وهى صفة عامة فى معظم مدن مصر التى كان قوامها القصر والمعبد والهيكل ، ولكنها وان كانت غير مسورة فعليا ، كانت مسورة رمزيا ، اذ أحاطها عدة قرى ، بشكل يشبه فى رأى « مفورد » ما كان سائدا عند « المايا » Maya من مراكز اقامة الطقوس وادارة دفعة الحكم ، ولذا كان التكوين الحضري فى مصر تكوينا حضريا مفتوحا وليس مشابها لما كان سائدا لدى معظم الحضارات الأخرى ، أو ما يتطرق الى ذهن أغلبية الناس من أن المدينة القديمة هى حشد كثير من البشر فى مكان مطوق بالأسوار^(٢) .

وقد جاء السور كأحد المعالم فى مورفولوجية المدينة المصرية فى عهد متأخر كما هو الحال لدى المايا ، ولأسباب مشابهة أيضا رغم

(١) مفورد : مرجع سبق ذكره . ص ١٥٥ .

(٢) ولسون : مرجع سبق ذكره . ص ٣٨٢ .

اختلاف الزمان والمكان ، ولم يكن السور كما كان في معظم المدن الأجنبية للحماية الداخلية ، إنما للحماية ضد الغزاة ، وزادت أهمية السور نتيجة تأثيرات أجنبية منها مثلاً غزو الهكسوس الذى ساعد في ظهور السور كمعلم في مورفولوجية المدينة .

وعلى ذلك فنمط ووظائف المدينة المصرية كان أحياناً يبدى استقلالاً وتفرداً وأحياناً كان يعكس نمط المدينة الأجنبية القديمة ، ومرجع ذلك كما رأينا لبعض الظروف أو التأثيرات الأجنبية .

وليس أصدق من تأثير التدخل الأجنبي في مصر ما ذكره « استرابو » من أنه حين قدم الرومان فان « هليوبوليس » هجرت ، وأصبحت المراكز الحضرية مثل « أبيدوس » و « طيبة » مجرد مجموعة من المحلات العمرانية المتواضعة Hamlets (٢) .

وعلى ذلك ، جاء على المدن المصرية وقت ، أفل نجمها ، وقلت أهميتها ، وتدل الدلائل على عكس ذلك أحياناً من ارتفاع الشأن ، وتضخم الحجم . مما جعل البعض يطلق عليها تعبيره المدن الطفيلية ، كما كان الحال مع تانيس Tanis التى اهتم بها رمسيس الثانى ، وجعلها بمعبد لآمون ملاء بالتحف ، لدرجة أنه يعد متحفا قائماً بذاته . جاءت مقتنياته من عديد من المعابد الأخرى في أرجاء مصر كلها ومدنها ، أخذت منها ، حتى أن بناء تانيس نفسها لم يخل من عدوان على آثار ، ومواد بناء أخرى أخذت من مواضع عديدة ، مثل منطقة الاهرامات الكبرى ، علاوة على الأعمدة الجرانيتية التى حصل عليها أينما وجدت (٣) .

ويمكن القول ، أنه بانتهاء العهد الفرعونى ، وبداية التدخل الأجنبي وظهور جحافل الغزاة والأجانب أبدت المدن المصرية وظائف وأنماط جد مختلفة عما كان سائداً بها طوال العهد الفرعونى . وبدأت

(١) مفنورد : المرجع السابق . ص ١٥٥ .
(٢) جونسون : مرجع سبق ذكره . ص ٢١٥ .
(٣) المرجع أملاه . ص ٢٢٩ .

الآثار الأجنبية تظهر بالتدريج على وظيفة المدينة المصرية القديمة بما في ذلك أهم الوظائف مثل وظيفة العاصمة حين تحولت العاصمة الى « الاسكندرية » وكذا الوظيفة الدينية ، وبذلك دخل نمط ووظيفة المدينة المصرية القديمة في طور جديد ، بعد أن ظلت المدينة المصرية تضطلع بوظائفها الحية لعديد من السنين ، اذ نجد مدينة مثل منف ظلت قائمة كمركز مقدس — رغم انحسار الضوء عنها كعاصمة — مدة ١٥٠٠ سنة ، كذلك وحتى في المدن قصيرة العمر كان لها نمطها الخاص ، ووظائفها المميزة ، ولعل أهمها في ذلك المجال واحدة من أقصر المدن المصرية عمرا ونعنى بها « أخيت آتون » حيث مارست وظيفتها لحوالى ستة عشر سنة فقط .

المراجع العربية :

- ١ — ابراهيم أحمد رزقانة : الحضارات المصرية في فجر التاريخ ، مكتبة الآداب ، القاهرة سنة ١٩٤٨ •
- ٢ — ابراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ •
- ٣ — تاريخ مصر في عصر البطالمة : الجزء الثانى ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ •
- ٤ — تاريخ مصر في عصر البطالمة : الجزء الثالث ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ •
- ٥ — تاريخ مصر في عصر البطالمة : الجزء الرابع ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ •
- ٦ — أحمد على اسماعيل : دراسات في جغرافية المدن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٧ •
- ٧ — أحمد فخري : مصر الفرعونية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٧١ •
- ٨ — الثن جاردز : مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٧٣ •
- ٩ — اتين دريوتون وجاك فاندييه : مصر ، تعريب عباس بيومى ، دار النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٥٥ •
- ١٠ — بول غليونجى : الطب عند قدماء المصريين ، في وزارة الثقافة والارشاد القومى ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول (٧) ، القاهرة ، بدون تاريخ نشر ، ص ٥٢٣ — ٥٦ •

- ١١ — بول غليونجى وزينب الدواخلى : الحضارة الطبية فى مصر القديمة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ •
- ١٢ — تقى الدين أحمد بن على المقرئى : (المتوفى ٨٤٥ هـ) ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ، أو تاريخ المجاعات فى مصر ، تقديم وتعليق بدر الدين السباعى ، دار بن الوليد ، حلب ، سنة ١٩٥٦ •
- ١٣ — جمال حمدان : القاهرة ، دراسة فى جغرافية المدن ، فى ديزموند مستيوارت ، القاهرة ، ترجمة يحيى حقى ، كتاب الهلال ، القاهرة ، مارس سنة ١٩٦٩ •
- ١٤ — جمال حمدان : شخصية مصر ، الجزء الثانى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ •
- ١٥ — جون ولسون : الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخرى ، مجموعة الالف كتاب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٥ •
- ١٦ — جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيل ، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد ، مجموعة الالف كتاب ، دار الكرنك ، القاهرة ، ١٩٦٣ •
- ١٧ — جيمس هنرى برستيد : انتصار الحضارة ، ترجمة أحمد فخرى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٥ •
- ١٨ — رمضان عبده السيد : معالم تاريخ مصر القديم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، سنة ١٩٧٩ •
- ١٩ — سليم حسن : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٤ •
- ٢٠ — مصر القديمة : الجزء العاشر ، مطبعة جامعة القاهرة ، سنة ١٩٥٥ •

- ٢١ — سليمان حزين : البيئة والانسان والحضارة في وادى النيل ،
في وزارة الثقافة والارشاد القومى تاريخ الحضارة المصرية ،
العصر الفرعونى ، المجلد الأول (١) ، القاهرة بدون تاريخ
نشر ، ص ٣ — ٣٦ .
- ٢٢ — عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
- ٢٣ — عبد الفتاح وهيبه : جغرافية العمران ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٢٤ — مصر والعالم القديم : منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ ،
- ٢٥ — عبد المجيد فراج : الأسس الاحصائية للدراسات السكانية ،
القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٢٦ — عبد المنعم أبو بكر : النظم الاجتماعية في مصر القديمة ، في
وزارة الثقافة والارشاد القومى ، تاريخ الحضارة المصرية ،
العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، العدد الثانى ، مكتبة النهضة
المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ نشر ، ص ١٩ — ٣٢ .
- ٢٧ — فلندرز بترى : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، ترجمة
حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم ، الهيئة المصرية
العامة للكتاب ، القاهرة سنة ، ١٩٧٥ .
- ٢٨ — هيردوت : هيردوت يتحدث عن مصر ، ترجمة محمد صقر
خفاجة ، دار القلم ، القاهرة سنة ، ١٩٦٦ .
- ٢٩ — لويس ممفورد : المدينة على مصر العصور ، الجزء الأول ،
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٣٠ — المدينة على مصر العصور : الجزء الثانى ، مكتبة الانجلو
المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٣١ — محمد أبو احاسن عصفور : التخطيط العمرانى في مصر
القديمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد
السابع عشر ، ١٩٦٣ ، ص ٨٧ — ١٠٩ .

- ٣٢ — بين الفنون والبيئة في كل من العراق ومصر في عصورها
المقدّمة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد
الحادى والعشرون ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢٥ — ٢٣٩ •
- ٣٣ — محمد السيد غلاب : البيئة والمجتمع ، الاسكندرية ، ١٩٥٥ •
- ٣٤ — ويسرى الجوهري : الجغرافية التاريخية ، عصر ما قبل
التاريخ وفجره ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ •
- ٣٥ — محمد السيد غلاب ويسرى الجوهري : جغرافية الحضرة ،
منشأة المعارف ، الاسكندرية ، بدون تاريخ نشر •
- ٣٦ — محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ، الهيئة المصرية
العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ •
- ٣٧ — محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية فى عهد قدماء
المصريين الى سنة ١٩٤٥ ، خمسة أجزاء ، مطبعة دار الكتب
المصرية ووزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٥٣ — ١٩٥٤ •
- ٣٨ — محمد شفيق غربال : تكوين مصر ، ترجمة محمد رفعت ،
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ، ١٩٧٧ •
- ٣٩ — محمد مدحت جابر عبد الجليل : مركز المنيا ، دراسة فى
جغرافية العمران ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى
قسم الجغرافيا بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٨ •
- ٤٠ — محمود أمين الله : تطور الوحدات الادارية فى العهد
العربى ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى قسم
الجغرافيا بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٩ •
- ٤١ — مصطفى عامر : حضارات عصر ما قبل التاريخ ، فى وزارة
الثقافة والارشاد القومى ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر
الفرعونى ، المجلد الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، بدون
تاريخ نشر ، ص ٣٧ — ٨٠ •

- ٤٢ — نجيب ميخائيل إبراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، (١) ،
مصر ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
- ٤٣ — وليم نظير : الثروة النباتية عند قدماء المصريين ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

المراجع الأجنبية :

43. Attia. M. I., Deposits in the Nile Valley and the Delta, Geographical Survey of Egypt, Gov. Press, 1954.
44. Baines, J. and Malek, J., Atlas of Ancient Egypt, phaidon, Oxford, Elsevier. 1980.
45. Ball, J., Egypt in the classical geographers, survey of Egypt, Gov. Press, 1942.
46. ———, contributions to the geography of Egypt, survey of Egypt. Gov. Press, 1952.
47. Bernard, A., le Delta Egyptien d'après les textes grecs : I. les confins libyque, Mem. Inst. Fr. Archeol. Orientale : 41, 1971, pp. 103 - 4.
48. Breasted, J.H., Ancient records of Egypt, IV. Chicago University Press. 1906.
49. Brock, J. and Webb, J.W., A geography of mankind, Mc graw-Hill, New York, 1973.
50. Butzer, K., Contributions to the pliestocene geology of the Nile Valley. Erdkunde 13, 1959, pp. 46 - 67.
51. ———, Environment and human ecology in Egypt during predynastic and early dynastic times, Bull. Soc. Géog-raphy. Egypte, 1959, 32 : pp. 43 - 87.
52. Butzer, K., Remarks on the geography of settlement in the Nile Valley during the Hellenstic times, Bull. Soc. geog-raphy. Egypte, 1960, 33 : 5 - 36.
53. ———, Environment and archeology : An ecological ap-proach to prehistory, Chicago, Aldin Pub. Co., 1971.

54. ———, *Early hydraulic civilization in Egypt*, the University of Chicago Press, Chicago and London, 1976.
55. Carter, H., *The study of urban geography*, John Wiley, New York, 1976.
56. Carter, H., and Davies, W., *urban Essays*, London, 1970.
57. Crawford, D. J., *An Egyptian village in the Ptolemaic period*, Cambridge, Cambridge University press, 1971.
58. Davies, W., *Approaches to urban geography : An overview*, in Carter, H., and Davies, W., eds., *urban essays*, London, 1970.
59. Dixon, D. M., *The disposal of certain personal household and town waste in Ancient Egypt*, in Ucko, P. J.; Tringham, R., and Dimbleby, G. W., eds., *Man, Settlement, and urbanism*, Duckworth, 1972. pp. 46 - 50.
60. El-Gowhary, Y., *The Ancient capitals of Egypt*, Bull. of the Faculty of Arts, Alex. Univ., (19) 1966, pp. 3 - 15.
61. Edwards, I., *The pyramids of Egypt*, New York, Viking Press Inc., 1971.
62. Everson, J. A. and FitzGerald, B. P., *Inside the city*, Longman, London, 1973.
63. Fairman, H. W., *Town, planning in Pharaonic Egypt*, *Town planning Review*, 1949, 20 : 33 - 51.
64. Fakhry, A., *The oases of Egypt*, Vol. I. Siwa, American University in Cairo Press, Cairo, 1973.
65. ———. Vol. 2. Bahria, 1973.
66. ———, Vol. 3. Kharga, 1974.
67. ———, Vol. 4. Dakhla, 1974.
68. Farid, E. A., *The population of Egypt*, Cairo, 1948.
69. Flannery, K. V., *The origins of village settlements type in Meso-America and the Near East : A comparative study*, in Ucko, P., Tringham, R., and Dimbleby, G. W., *Op. Cit.*, 1972, pp. 23.

70. Gardiner, A. H., The Wilbour papyrus, Vol. 2. Oxford University press. 1948.
71. Gallion, A., and Eisner, S., The urban pattern, New Delhi, 1969.
72. Hodges, H. W., Domestic Building materials and Ancient settlements, in ucko. p., Tringham, R., and Dimbleby, G. W., op. cit., pp. 523 - 30.
73. Holz, R. K., Man made landforms in the Nile Delta, Geog. Review, 59 : 253 - 69.
74. Huzayyin, S. A., the place of Egypt in prehistory, Mem. Inst. Egypte 43. 1941.
75. Johnson, p. the civitization of Ancient Egypt, London, 1979.
76. Jones, El., Towns and cities, Oxford Univ. Press, 1976.
77. Jones, El., and Zandt, El., The city, New York, 1974.
78. Kees, H., Ancient Egypt : A cultural Topography, London, 1961.
79. Kemp, B. J. Fortified towns in Nubia, in ucko, P., Tringham, R., and Dimbleby, B. P., eds. Ou. cit., 1972, pp. 651 - 56.
80. Kemp, B. J. Temple and town in Ancient Egypt, in ucko, p., Tringham, R., and Dimbleby, G. W., eds. op. cit., 1972. pp. 657 - 80.
81. Kraeling, C. and Adams. R., eds. City Invincible : An oriental Insititute symbosium, Chicago; University of Chicago press, 1960.
82. Lozach, J., Le Delta du Nil, Soc. de Géog. d'Egypte, 1935.
83. Lucas, A., and Harris. J., Ancient Egyptian materials and industries, London, 1948.
84. Montet, p., Eternal Egypt, traslated by weightman, D., Readers union. London, 1965.
85. Murray, G. W., The Egyptian climate : An hislorical outline, «Geography», 1951, 117. pp. 422 - 34.

86. Northam, R. M., urban geography, Willey, New York. 1975.
87. O'connor, D., The geography of settlement in Ancient Egypt, in ucko, p.; Tringham, R.. and Dimbleby G. W. eds., op. cit. 1972, pp. 681 - 98.
88. Petri, W. M. F., Kahun, Gurob. and Hawara, London, 1890.
89. Ray, J. D., The House of osorapis, in ucko, P. J.; Tarngham, R.. and Dimbleby, G. W., eds., op. cit. pp. 699 - 704.
90. Rugg, D. S., spatial foundation of urbanism, Dubuque Iowa, 1977.
91. Smith, H. S. Society and settlement in Ancient Egypt, in ucko, P.; Tringham, R.. and Dimblaby, G. W., eds., 1972, op. cit., pp. 705 - 19.
92. Toussoun. O., Mémoires sur l'Histoire du Nil., Mem. Inst, Egypte, 8 - 10, 1925.
93. Spiegelman. M., Introduction to Demography, New York, 6th eds., 1980.
94. Uphill, P. The concept of the Egyptian palace as ruling machine, in ucko, p.; Tringham, R., and Dimbleby, G. W.. eds., 1972, op. cit., pp. 721 - 34.
95. Willcocks, W. and Craig.. J., Egyptian Irrigation 3rd eds. 2 Vols. London, 1913.

الفهرست

الموضوع	الصفحة
تقديم ومقدمة :	٥

الباب الأول ال عمران المصرى القديم وخصائصه

الفصل الأول :

البيئة الطبيعية والبشرية وتطورها وأثرها فى العمران المصرى القديم	١١
— التغير المناخى فى اتجاه الجفاف	١٤
— تذبذب فيضان نهر النيل وآثاره العمرانية	١٥
— اتساع الوادى واختلاف وتغير طوبوغرافيته	١٧
— تطور معرفة الانسان المصرى وانعكاساتها على استغلال البيئة	١٩
— التأثيرات البشرية الوافدة على مصر وآثارها العمرانية	٢١

الفصل الثانى :

توزيع العمران والمصلات العمرانية	٢٣
— الشبكة العمرانية المصرية القديمة	٢٦
— المقاطعات المصرية القديمة	٢٦
— التراتب الحضرى فى وادى النيل	٢٩

الفصل الثالث :

العمران المصرى القديم وعلاقته بالسكان واستخدام الأرض	٣٥
--	----

الفصل الرابع :

الموضع والموقع لمحات العمران المصرى القديم	٥٠
--	----

الموضوع الصفحة

الفصل الخامس :

التخطيط العمرانى وأبعاده فى مصر القديمة ٥٤

الباب الثانى

شخصية المدينة المصرية القديمة

الفصل السادس :

المدينة المصرية القديمة وتميزها عن مدن الحضارات الأخرى ٦٣

الفصل السابع :

- مورفولوجية المدينة المصرية القديمة ٦٦
- الخطة العامة للمدينة
- أشكال النمو وتنظيم المبانى العامة والمساكن والمبانى الأخرى
- مادة البناء
- أمثلة لمورفولوجية بعض عواصم مصر القديمة ومدنها الهامة ٧٣
- أمثلة لمورفولوجية المدن المخططة

الفصل الثامن :

تركيب المنزل المصرى القديم وتخطيطه ٨٧

الفصل التاسع :

التجهيزات الصحية فى المنزل المصرى القديم والمناطق السكنية ٩٤

الفصل العاشر :

مجتمع المدينة المصرية القديمة ٩٩

الفصل الحادى عشر :

التركيب العرقى فى المدينة المصرية القديمة ١٠٦

الفصل الثانى عشر :

تباعد المدن فى مصر القديمة ١١٣

الموضوع
الفصل الثالث عشر :

اقليم المدينة المصرية القديمة ١١٧

الباب الثالث

العاصمة المصرية القديمة وتغير مواقعها

الفصل الرابع عشر :

المواسم المبكرة منذ فجر التاريخ وحتى قيام طيبة كعاصمة
قومية ١٢٣

الفصل الخامس عشر :

العاصمة المصرية منذ اتخاذ طيبة كعاصمة وحتى نهاية
عهد الأسرات ١٢٥

الباب الرابع

أنماط ووظائف المحلات العمرانية المصرية القديمة

الفصل السادس عشر :

أنماط ووظائف المحلات العمرانية المصرية القديمة ١٥١
— مقدمة
— مدن الادارة والحكم ١٥٤
— مدن الحماية والحصون العسكرية ١٥٥
— محلات المستودعات التجارية ومراقبة التجارة النيلية .. ١٦٥
— مدن التعدين والمناجم والتحجير ١٧١
— مدن الثقافة والاشعاع الحضارى ١٧٣
— مدن الحج والزيارة والنبؤات والعرافة ١٧٦
— مدن الموتى ١٨٠
— مدن النفى والعقاب ١٨١
— المراجع : ١٨٥

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٧٣٧٠

المطبعة التجارية الحديثة
٢٢ شارع ادريس راغب بالظاهر
تليفون ٩٠٣٣٦٤ القاهرة

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة
١٩٨٤